1

أدب أمريكي حديث

بليك كراوتش

ترجمة: عبدالرحيم يوسف

غابة الصنوبر

ثلاثية وايوارد باينز

رواية

مكتبة

المحروسة

ثلاثية وايوارد باينز

(1)

غابة الصنوبر

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

نسخ لجودة أعلى داخل القناة

عنوان الكتاب: ثلاثية وايوارد باينز(1)
غابة الصنوبر
The Wayward Pines Trilogy (Book 1): Pines
المؤلف: بليك كراوتش Blake Crouch
ترجمة: عبد الرحيم يوسف
مراجعة لغوية: شيرين يونس
إخراج داخلي: رشا عبدالله

المحروسة

قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف:- 28432157 02 002

mahrousaeg
almahrosacenter
almahrosacenter
www.mahrousaeg.com
info@mahrousaeg.com
mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ١٦٢٥٦/ ٢٠٢٣
الترقيم الدولي: 978-977-313-986-5
جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية
محفوظة لمركز المحروسة
2023

PINES © 2012 by Blake Crouch

"All rights reserved. No part of this book may be reproduced or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopying, recording or by any information storage and retrieval system, without permission in writing from the Publisher."

مكتبة
t.me/soramnqraa

ثلاثية وايوارد باينز

(1)
غابة الصنوبر

بليك كراوتش

ترجمة
عبد الرحيم يوسف

رواية

الطبعة الأولى 2023

مكتبة
t.me/soramnqraa

10 I 2025

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

كراوتش، بليك

ثلاثية وايوارد باينز(1) غابة الصنوبر: رواية/ بليك كراوتش؛ ترجمة: عبد الرحيم يوسف.-ط1

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2023

423 ص؛ 21.5×14.5 سم

تدمك 978-977-313-986-5

1 - القصص الامريكية

أ-يوسف، عبد الرحيم (مترجم)

ب- العنوان

823

رقم الإيداع 2023/16256

الشـخصيات والأحـداث المصـوَّرة في هـذا الكتـاب خياليـة، وأي تشـابه مـع أشـخاص حقيقيـين، أحيـاء أو أمـوات، هـو مـن قبيـل المصادفـة وغـير مقصـودٍ مـن المؤلـف.

رغم الأدلة على أنَّ التطوُّر البشري ما زال
يعمل، فإن علماء البيولوجيا
يعترفون أنه من غير المؤكد إلى أين سيأخذنا
من مكاننا هذا.

مجلة تايم، 23 فبراير 2009

مجرد أنك لستَ مريضًا بالبارانويا لا يعني
أنهم لا يتعقَّبونك.

جوزيف هيلر

مكتبة
t.me/soramnqraa

1

أفاق ليجد نفسه ممددًا على ظهره، ونور الشمس ينسكب على وجهه وخرير ماء جارٍ بالقرب منه. ثمة وجعٌ باهرٌ في عصبه البصري، وخفقٌ ثابتٌ بلا ألمٍ في قرارة جمجمته؛ كأنه هدير ناءٍ لصداع نصفي يقترب. انقلب على جنبه ودفع جسده ليتخذ وضع الجلوس، ويدسُّ رأسه بين ركبتيه. أحسَّ بالدنيا في حالة من عدم الاستقرار طويلًا قبل أن يفتح عينيه، كأن محورها انفلت من عِقاله وأخذ يتأرجح. بدا شهيقه العميق الأول كأن أحدهم يدق وتدًا من الفولاذ بين الضلوع عاليًا في جانبه الأيسر، لكنه تأوَّه ليطرد الألم وأجبر عينيه على أن تنفتحا. لا بُدَّ أن عينه اليسرى متورمة بشدة، لأن الأمر بدا كأنه يحدِّق عبر شقٍّ.

عشب هو أكثر ما رآه خضرةً -غابة من نصال طويلة ناعمة- امتدَّ حتى الضفة. الماء صافٍ ومسرع كأنه يجري متدفقًا بين الصخور التي

بـرزت مـن القنـاة. عـلى الناحيـة الأخـرى مـن النهـر، نهـض جـرفٌ بارتفـاع ألـف قـدم. نمـت أشـجار الصنوبـر في عناقيـد امتـدَّت بمـوازاة الحـواف، وامتـلأ الهـواء برائحتهـا وبعذوبـة المـاء الجـاري.

كان يرتـدي بنطـالًا أسـود وسـترة سـوداء تحتهـا قميـص سـادة، تبقَّـع نسـيجه القطنـي الأبيـض بالـدم. وتدلَّـت مـن ياقتـه رابطـة عنـق سـوداء كادت عقدتهـا أن تنحـلَّ تمامًـا.

في محاولتـه الأولى للنهـوض، التـوت ركبتـاه وهـوى جالسًـا بعنـفٍ كافٍ ليبعـث ذبذبـة مـن ألمٍ حـارقٍ عـبر قفصـه الصـدري. نجحـت محاولتـه الثانيـة، ووجـد نفسـه مترنحًـا لكنـه واقـف، والأرض ظهـر مركـب خـادع أسـفل قدميـه. اسـتدار ببـطء، وقدمـاه تنتقـلان وتتباعـدان بحثًـا عـن التـوازن.

وقـف موليًـا ظهـره للنهـر عنـد حافـة حقـلٍ مفتـوحٍ. عـلى الجانـب البعيـد، التمعـت السـطوح المعدنيـة لأراجيـح وألـواح تزحلـق تحـت شـمس ظهـيرة حـادة.

ولا مخلوق آخر من حوله.

فيـما وراء المتنـزَّه، لمـح منـازل عـلى الطـراز الفيكتـوري، ووراءهـا أبنيـة شـارع رئيـسي. كانـت البلـدة عـلى مبعـدة ميـل أمامـه تقريبًـا، واسـتقرَّت في قلـب مـا يشـبه مسرحًـا رومانيًـا مـن الصخـر، مطوقـة بأسـوار جرفيـة ارتفعـت عـدة آلاف مـن الأقـدام عـلى كل ناحيـة، وتألَّفـت مـن حجـارة ذات حـزوز حمـراء. في أعـلى الزوايـا الجبليـة الظليلـة، تخلَّفـت كتـل صغيرة مـن الجليـد، لكـن هنـا في أسـفل الـوادي كان الجـو دافئًـا، والسـماء فوقـه قطعـة صافيـة وغامقـة مـن الكوبالـت بـلا غيـومٍ.

فتش الرجل جيوب بنطاله، وسترته ذات الصف الواحد من الأزرار.

لا محفظـة، ولا حافظـة نقـود صغـيرة، ولا بطاقـة هويـة، ولا مفاتيـح، ولا هاتـف.

فقط سكين جيش سويسري صغير في أحد جيوبه الداخلية.

***

قبيـل أن يصـل إلى الجانـب الآخـر مـن المتنـزه، كان قـد غـدا أكـثر انتباهًـا وأكـثر حـيرة، ولم يعُـد النبـض في فقراتـه العنقيـة عديـم الألم كـما كان.

كان يعرف ستة أشياء:

اسم الرئيس الحالي.

هيئـة وجـه أمِّـه، رغـم أنـه لم يتمكَّـن مـن تذكُّـر اسـمها أو حتـى نغمـة صوتها.

أنه يستطيع العزف على البيانو.

وقيادة طائرة مروحية.

أنه في السابعة والثلاثين من العمر.

وأنه في حاجة إلى الوصول إلى مستشفى.

بعيـدًا عـن هـذه الحقائـق، لم يكـن العـالم ومكانـه فيـه مخفيـين إلى حـدٍّ كبـيرٍ كأنهـما منطبعـان في قائمـة تسـميات أجنبيـة بعيـدة عـن فهمِـه. كان في مقـدوره أن يشـعر بالحقيقـة تحلِّـق عـلى تخـوم وعيـه، لكنهـا ظلَّـت فقـط بعيـدة المنـال.

سـار في شـارع سـكني هـادئ، متفحصًـا كلَّ سـيارة مـرَّ بهـا. هـل واحدة منهـا تخصُّه؟

كانـت المنـازل التـي واجـه أحدهـا الآخـر عـلى حالتهـا الأولى؛ حديثـة الطـلاء وبهـا مربعـات صغـيرة نموذجيـة مـن العشـب الزاهـي تؤطرهـا سـياجات خشـبية، واسـم كل أهـل بيـت مرسـوم بحـروف بيضـاء بـارزة عـلى جانـب صنـدوق بريـد أسـود.

في كل فنـاء خلفـي تقريبًـا، رأى حديقـة زاهيـة، تفيـض بالخـضراوات والفواكـه وليـس بالزهـور فقـط.

كل الألوان صافية وزاهية للغاية.

في منتصـف المسـافة بجـوار المربـع السـكني الثـاني جفـل. كان مجهـود السـير قـد انتـزع منـه نفَسًـا عميقًـا، وجعلـه الألم في جانبـه الأيـسر يتوقـف في مكانـه. خلـع سـترته، وجـذب قميصـه مـن حـول خـصره، وفـك أزرار القميـص، وفتحـه. بـدا الأمـر أسـوأ حتـى مـما كان يحـس بـه؛ حيـث غطَّـت كدمـة بنفسـجية داكنـة كل جانبـه الأيـسر، وفي مركزهـا شـقٌّ أصفـر متقـرح.

لقد ضربه شيء ما.. بقسوة.

مـرَّر يـده خفيفًـا عـلى سـطح جمجمتـه، كان الصـداع موجـودًا، ويغـدو أكـثر حـدة بسرعـة، لكنـه لم يشـعر بـأي علامـات لصدمـة شـديدة تتجـاوز الشـعور بـالألم في الجانـب الأيـسر.

أغلق أزرار قميصه مرة أخرى، ودسَّه في بنطاله، وتابع سيره في الشارع.

الاستنتاج الواضح أنه تعرَّض لحادث ما.

ربمـا سـيارة، ربمـا سـقوط، ربمـا تعـرَّض لهجـوم؛ وهـذا يفـسر لمـاذا لا يحمـل محفظـة.

أول ما ينبغي له فعله أن يذهب إلى الشرطة.

إلا إذا...

ماذا لو كان قد ارتكب خطأ ما؟ ارتكب جريمة؟

أهذا ممكن؟

ربما ينبغي له أن ينتظر، ويرى إن استعادت ذاكرته شيئًا.

رغـم أنـه لا شيء في هـذه البلـدة بـدا لـه مألوفًـا ولـو مـن بعيـدٍ، فإنـه أدرك -بينـما كان يقطـع الشـارع مترنحًـا- أنـه يقـرأ الاسـم المكتـوب عـلى كل صنـدوق بريـد. شيء في اللاوعـي؟ لأنـه في أسـفل تجاويـف الذاكـرة كان يعلـم أن واحـدًا مـن هـذه الصناديـق البريديـة يحمـل اسـمه **هـو** مطبوعًـا عـلى جانبـه؟ وأن رؤيتـه سـتعيد كل شيء؟

ارتفعـت أبنيـة وسـط البلـدة أعـلى أشـجار الصنوبـر عـلى مبعـدة عـدة مربعـات سـكنية، واسـتطاع أن يسـمع -لأول مـرة- ضجـة سـيارات متحركة، وأصواتًـا نائيـة، وطنـين نُظُـم التهويـة.

تجمَّد في منتصف الشارع، وأمال رأسه بحركة لا إرادية.

كان يحـدِّق في صنـدوق بريـدٍ يتبـع منـزلًا فيكتوريًّـا مـن طابقـين باللونـين الأحمـر والأخـضر.

يحدِّق في الاسم المطبوع على جانبه.

بدأ نبضه يتسارع، رغم أنه لم يفهم السبب.

ماكينزي

"ماكينزي".

لم يكن الاسم يعني له شيئًا.

"ماكـ.."

لكـن المقطـع الأول كان يعنـي لـه شـيئًا، أو بالأحـرى، أثـار اسـتجابة عاطفيـة مـا.

"ماك. ماك".

أكان هو ماك؟ أكان هذا هو اسمه الأول؟

"اسمي ماك، أهلًا، اسمي ماك، سعيد بلقائك".

لا.

هـذه الطريقـة التـي جـرى بهـا الاسـم عـلى لسـانه، لم تكـن طبيعيـة. لم تبـدُ شـبيهة بـأي شيء يخصُّـه. ولـو كان أمينًـا مـع نفسـه، فهـو يكـره الكلمـة، لأنهـا اسـتحضرت...

الخوف.

يا للغرابة! لسببٍ ما، طبعت هذه الكلمة في نفسه الخوف.

هل أذاه شخص ما اسمه ماك؟

تابع سيره.

بعـد ثلاثـة مربعـات سـكنية أخـرى وصـل إلى ناصيـة الشـارع الرئيـسي والشـارع السـادس، حيـث جلـس عـلى دكـة ظليلـة وأخـذ نفَسًـا بطيئًـا حريصًـا. نظـر في اتجاهـيْ الشـارع، بعينـين متلهفتـين عـلى أي شيء مألـوف.

ليس من متجرٍ تابعٍ لإحدى السلاسل المعروفة في مرمى البصر.

ثمة صيدلية على خط قُطري من موقع جلوسه.

ومقهى إلى جوارها.

ومبنى من ثلاثة طوابق بجوار المقهى تعلَّقت على مدخله لافتة:

فندق وايوارد باينز

انتزعتـه رائحـة حبـوب القهـوة مـن فـوق الدكـة. رفـع رأسـه، ورأى مكانًـا يُدعـى (سـتيمينج بـين) في منتصـف المربـع السـكني لا بـد أنـه كان مصـدر الرائحـة.

إممم.

لم تكـن هـذه بالـضرورة المعلومـة الأنفـع، لـو وُضعـت كل الأمـور في الاعتبـار، لكـن بَـرَقَ في ذهنـه أنـه يحـب القهـوة الجيـدة. يتـوق إليهـا. قطعـة أخـرى صغـيرة مـن الأحجيـة التـي تكـوِّن هويَّتـه.

سـار إلى المقهـى وفتـح البـاب ذا الحاجـز المصنـوع مـن الأسـلاك. كان المقهـى صغـيرًا وأنيقًـا، ومـن رائحـة الأشـياء فقـط اسـتطاع معرفـة أنهـم يصنعـون منتجًـا عظيـمًا. ثمـة بـار إلى الناحيـة اليمنـى في مواجهـة ماكينـات الإسبريسـو والمطاحـن والخلاطـات وزجاجـات ضـخ النكهـات. ثلاثـة مقاعـد بـار مشـغولة. بضـع أرائـك ومقاعـد مصفوفة بمحـاذاة الجـدار المقابـل. رفٌّ عليـه كتـب ذات أغلفـة ورقيـة باهتـة. عجـوزان بينهـما حـرب قائمـة عـلى لوحـة شـطرنج ذات قطـع غـير متماثلـة. عرضـتْ الجـدران أعـمالًا فنيـة محليـة؛ سلسـلة مـن البورتريهـات الذاتيـة بالأبيـض والأسـود لامـرأة في منتصـف عمرهـا لم تتغـير تعبيراتهـا قـط مـن صـورة لصـورة، فقـط نقطـة تركيـز الكامـيرا هـي التـي تغـيَّرت.

اقترب من ماكينة النقود.

عندمـا لاحظتـه أخـيرًا النادلـة ذات الضفائـر الشـقراء -والتـي كانـت في العشرينيـات مـن عمرهـا- اعتقـد أنـه لمـح رفـة ذعـرٍ في عينيهـا الجميلتـين.

هل تعرفه؟

في مـرآة خلـف ماكينـة النقـود رأى انعكاسـه وفهـم عـلى الفـور مـا أثـار نظـرة اسـتيائها؛ كان الجانـب الأيـسر مـن وجهـه مغطـى بكدمـة كبـيرة، وعينـه اليـسرى منتفخـة، متورمـة حتـى لتـكاد تنغلـق.

يا إلهي.. لقد أبرحني أحدهم ضربًا.

بعيـدًا عـن كدمتـه البشـعة، لم يكـن قبيـح الشـكل. تصـوَّر أن طولـه نحـو سـتة أقـدام، وربمـا سـتة أقـدام وبوصـة واحـدة. لـه شـعر أسـود قصـير، ولحيـة عمرهـا يومـان نمـت مثـل ظـلٍّ امتـدَّ عـلى النصـف الأسـفل مـن وجهـه. بنيـة متينـة مفتولـة العضـلات تجلَّـت في الطريقـة التـي تعلَّقـت بهـا سـترته عـلى كتفيـه وفـردة القميـص المشـدودة عـلى صـدره. اعتقـد أنـه يشـبه مسـؤول تنفيـذ إعلانـات أو تسـويق؛ وربمـا يبـدو صاحب هيئـة ملفتـة للأنظـار عندمـا يحلـق لحيتـه ويتأنـق.

سألته النادلة: "ماذا يمكنني أن أقدم لك؟".

لعلَّـه كان عـلى اسـتعدادٍ أن يقتـل أحدهـم مقابـل فنجـان مـن القهـوة، لكنـه لم يكـن يملـك مليـمًا في جيبـه.

- تصنعون قهوة جيدة هنا؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

بدت المرأة في حيرة من السؤال.

- إمم، نعم.

- الأفضل في البلدة؟

- هـذا هـو المقهـى الوحيـد في البلـدة، لكـن نعـم، قهوتنـا تضبـط الدمـاغ.

مال الرجل على النضد وهمس: "هل تعرفينني؟".

- أستميحك عذرًا؟

- هل تميزينني؟ هل آتي إلى هنا أصلًا؟

- أنت لا تعرف إن كنت قد جئتَ إلى هنا من قبل؟

هزَّ رأسه.

تفحَّصته لحظة، كأنها تقيس صدقه، محاولةً أن تحدد إن كان هذا الرجل ذو الوجه المكدوم مجنونًا أو يعبث بها.

أخيرًا قالت: "لا أعتقد أني رأيتك من قبل".

- هل أنتِ واثقة من هذا؟

- حسنًا، الحال هنا ليس كما هو الحال في مدينة نيويورك.

- معقول جدًّا. هل تعملين هنا منذ فترة طويلة؟

- أكثر قليلًا من عام.

- وأنا لستُ زبونًا منتظمًا ولا أي شيء من هذا القبيل؟

- أنت بالقطع لستَ زبونًا منتظمًا.

- هل يمكن أن أسألك شيئًا آخر؟

- بالتأكيد.

- أين نحن؟

- أنت لا تعرف أين أنت؟

تردَّد، جزء منه لا يريد أن يعترف بهذا العجز الكامل والكلي. عندما هزَّ رأسه أخيرًا، قطبت النادلة جبينها كأنها لا تستطيع أن تصدق السؤال.

قال: "أنا لا أعبث بك".

- هذه بلدة وايوارد باينز، بولاية آيداهو. وجهك... ماذا حدث لك؟

- أنا... أنا لا أعرف فعلًا حتى الآن، هل توجد مستشفى في هذه البلدة؟

وبينما كان يطرح السؤال، أحسَّ بتيارٍ منذرٍ يسري داخله.

هاجس منخفض الجهد الكهربائي؟

أم أصابع ذكرى ما مدفونة عميقًا تمرُّ بلمسة باردة على عموده الفقري؟

- نعم، على مبعدة سبعة مربعات سكنية من هنا جنوبًا. ينبغي لك أن تذهب إلى حجرة الطوارئ الآن فورًا، يمكنني أن أطلب سيارة إسعاف من أجلك.

- هذا ليس ضروريًا.

تراجع عن النضد.

- أشكرك... ما اسمك؟

- ميراندا.

- أشكرك يا ميراندا.

خروجه من جديدٍ إلى ضوء الشمس أخلَّ بتوازنه ورفع صداعه الناشئ بضع درجات ليصل إلى المستوى الأدنى من الألم الطاحن. لم تكن هناك أي حركة مرورية، لذا كسر إشارة المرور وعبر الطريق إلى الناحية الأخرى من الشارع وسار بمحاذاة المربع السكني نحو الشارع الخامس، مارًا بأم شابة وصبيها الصغير الذي همس بشيء بدا مثل: "ماما، هل هذا هو؟".

أسكتت الأم ابنها وتبادلت النظر مع الرجل بتقطيبة معتذرة، وقالت: "آسفة على ذلك، لم يقصد أن يكون وقحًا".

وصل إلى ناصية الشارع الخامس والشارع الرئيسي أمام مبنى من طابقين من الحجر الرملي البُني حمل اسم **بنك وايوارد باينز الوطني الأول** مرسومًا عبر الأبواب الزجاجية المزدوجة. بالقرب من زاوية المبنى، لمح كشكَ هاتف قائمًا إلى جوار الزقاق.

عرج نحو الكشك بأسرع ما استطاع، وأغلق على نفسه داخله.

كان دليـل الهاتـف أكـثر دليـل رآه في حياتـه هـزالًا، ووقـف هنـاك يفـرُّ صفحاتـه، آمـلًا في أن يعـثر عـلى اكتشـاف كاشـف مـن أي نـوع، لكـن الدليـل كان مجـرد ثمـاني صفحـات بهـا عـدة مئـات مـن الأسـماء لم تحمـل أي معنـى بالنسـبة إليـه، مثلهـا مثـل كل شيء آخـر في هـذه البلـدة.

أسـقط دليـل الهاتـف، وتركـه يتـدلى مـن سـلكه المعـدني، وأراح جبهتـه عـلى الزجـاج البـارد.

التقطت عينه لوحة المفاتيح.

ابتسم لهذا الإدراك العذب.

أعرف رقم هاتف بيتي.

قبـل أن يرفـع السـماعة، ضغـط الرقـم عـدة مـرات فقـط كي يتأكـد، وبـدا أن الرقـم يتدفـق مـن أطـراف أصابعـه بسـهولة المعرفـة عـن ظهـر قلـب والذاكـرة العضليـة.

سـيُجري مكالمـة عـلى حسـاب الطـرف الآخـر، داعيًـا اللـه أن يكـون أحدهـم في البيـت؛ بافـتراض أن لديـه أحـدًا مـا. بالطبـع ليـس لديـه اسـم يقدمـه لهـم، ليـس اسـمًا حقيقيًـا عـلى الأقـل، لكـن ربمـا يميـزون صوتـه ويقبلـون المكالمـة.

التقط السماعة ووضعها على أذنه.

مدَّ إصبعه نحو الرقم صفر.

لا توجد نغمة اتصال.

دقَّ على زر الاتصال عدة مرات، لكنَّ شيئًا لم يحدث.

أدهشـه كـم انتابـه الغضـب سريعًـا. أغلـق السـماعة بعنـفٍ، وتيـار صاعـد مـن الخـوف والغضـب ينتـشر مثـل تسلسـل اشـتعال مندفـع

يبحث عن مَنفذٍ للخروج. مال بذراعه اليمنى بالكامل إلى الخلف ناويًا أن يخترق بقبضته الزجاج، ولتذهب عقلات أصابعه إلى الجحيم، لكن الألم في ضلوعه المرضوضة جعل كل ما حوله يتوهج وألقاه منثنيًا على نفسه فوق أرضية كشك الهاتف.

صار النبض في قرارة جمجمته الآن متلاطمًا.

ازدوجت الأشياء في ناظريه، ثم غامت، ثم ابتلعها السواد...

***

كان الكشك في الظل عندما فتح عينيه مرة أخرى. تشبَّث بالسلك المعدني المربوط بدليل الهاتف ورفع نفسه ليقف على قدميه. من خلال الزجاج القذر، رأى المنحنى العلوي للشمس وهي تنزلق وراء تلك السلسلة من المنحدرات التي تحيط بالحافة الغربية للبلدة.

في اللحظة التي تلاشت فيها الشمس، انخفضت الحرارة بمقدار عشر درجات.

ما زال يذكر رقم هاتفه، جرَّبه بضع مرات على لوحة المفاتيح ليطمئن قلبه، وتفحص السماعة مرة أخرى بحثًا عن نغمة اتصال؛ صمت إلا من أوهى طقطقة لضجيجٍ أبيض ينساب عبر الخط لا يذكر أنه سمعه من قبل.

- آلو؟ آلو؟

وضع السماعة ورفع دليل الهاتف مرة أخرى. في المرة الأولى بحث عن أسماء العائلات، متلمسًا أي كلمة تطلق سراح ذكرى ما أو تثير عاطفة ما. لكنه الآن يمسح الأسماء الأولى، متعقبًا بإصبعه القائمة ومحاولًا أن يتجاهل ذلك الألم في قرارة جمجمته الذي كان يزحف عائدًا بالفعل.

الصفحة الأولى - لا شيء.

الصفحة الثانية - لا شيء.

الثالثة - لا شيء.

عند أسفل الصفحة السادسة، توقفت إصبعه.

ماك وجين **سكوزي**

403 E الشارع الثالث و. باينز 83278..........559-0196

طالـع الصفحتـين الأخيرتـين بسرعـة؛ اسـم عائلـة سـكوزي هـو الوحيـد الـذي يضـم اسـم مـاك في دليـل هاتـف وايـوارد باينـز.

دفـع بكتفـه البـاب الزجاجـي وخـرج مـن الكشـك إلى أول المسـاء. كانـت الشـمس الآن قـد غاصـت أسـفل حلقـة المنحـدرات الصخريـة، وغـاض الضـوء سريعًـا مـن السـماء، وبـدأت الحـرارة تنخفـض:

أين سأنام الليلة؟

سـار مترنحًـا عـلى الرصيـف، وجـزء منـه يـصرخ بأنـه ينبغـي لـه أن يذهـب مبـاشرةً إلى المستشـفى. كان متعبًـا، مصابًـا بالجفـاف، جائعًـا، حائـرًا، مفلسًـا. جسـده كلـه يوجعـه. وصـار التنفُّـس أكـثر صعوبـة مـع هـذا الألم المنهـك الـذي يسـحق ضلوعـه في كل مـرة تمتلـئ فيهـا رئتـاه بالهـواء وتحتـكان بهـا.

لكـن شـيئًا مـا داخلـه مـا زال يقـاوم فكـرة الذهـاب إلى المستشـفى، وبينـما كان يتحـرك مبتعـدًا عـن وسـط البلـدة نحـو مسـكن مـاك سـكوزي، أدرك ماهيـة ذلـك الـشيء.

مرة أخرى... الخوف.

لم يعـرف السـبب، لم يكـن هنـاك منطـق وراءه، لكنـه لم يرغـب في أن يضـع قدمـه داخـل ذلـك المستشـفى.

ليس في حالته الحالية.. أبدًا.

كان هـذا أغـرب أنـواع الخـوف.. خـوف غـير محـدد، مثـل السـير في الغابـة ليـلًا، دون أن تعـرف عـلى وجـه الدقـة مـما ينبغـي لـك أن تخـاف، ومـع ذلـك يـزداد الخـوف قـوة تحديـدًا بسـبب غموضـه.

بعـد مربعـين سـكنيين شـمالًا وصـل إلى الشـارع الثالـث، وصـدره يضيـق بشـكلٍ غـير مفهـومٍ بينـما ينعطـف عـلى الرصيـف ويتوجـه شرقًـا، مبتعـدًا عـن وسـط البلـدة.

أول صندوق بريد مرَّ به حمل رقم 201 مطبوعًا على جانبه.

حسـب أن مسـكن آل سـكوزي ينبغـي لـه أن يكـون عـلى مبعـدة مربعـين سـكنيين فقـط.

ثمـة أطفـال يلعبـون في عشـب فنـاء أمامـه مبـاشرةً، متبادلـين الأدوار في الجـري مخترقـين رشاشـة مـاء. حـاول أن يسـير منتصبًـا وثابتًـا عندمـا وصـل إلى سـياجهم الخشـبي، لكنـه لم يسـتطع أن يمنـع نفسـه مـن تفضيـل جانبـه الأيمـن كي يخفـف مـن احتـكاك ضلوعـه المؤلم.

ران السـكون والهـدوء عـلى الأطفـال عندمـا اقـترب منهـم، راقبـوه وهـو يجـرُّ خطـاه مـارًّا بهـم بنظـرات عفويـة، مزيـج مـن الفضـول وانعـدام الثقـة جعلـه يشـعر بالقلـق.

عـبر طريقًـا آخـر، وهـو يتحـرك بطريقـة أبطـأ بمحـاذاة المربـع السـكني التـالي وهـو يمـرُّ أسـفل غصـون ثـلاث شـجرات صنوبـر هائلـة ظلَّلـت الشـارع.

كل أرقـام المنـازل الفيكتوريـة الملونـة التـي شـكَّلت هـذا المربـع السـكني كانـت تبـدأ برقـم ثلاثـة.

سيكون مربع آل سكوزي هو التالي.

بـدأت راحتـاه تتعرقـان وبـدا النبـض في مؤخـرة رأسـه أشـبه بضربـات طبلـة كبـيرة مدفونـة تحـت الأرض.

ثانيتان من ازدواج الرؤية.

اعتـصر عينيـه مغلقًـا إياهـما بقـوة، وعندمـا فتحهـما مـرة أخـرى كان التشـوش قـد ذهـب.

عنـد التقاطـع التـالي توقـف. كان فمـه جافًـا مـن قبـل، لكنـه الآن تحـوَّل إلى كيـان قطنـي. كان يجاهـد كي يتنفـس، والعصـارة الصفـراء المُـرَّة تهـدد باجتيـاح حلقـه في طريقهـا إلى الخـروج.

سيتبيَّن معنى كل هذا عندما ترى وجهه.

لا بد من ذلك.

خطا خطوة مترددة في قلب الشارع.

حـلَّ المسـاء الآن، وانبعثـت الـبرودة قادمـة مـن تلـك الجبـال وهبطـت مسـتقرة في الـوادي.

كان الشـفق الجبـلي قـد منـح الصخـور المحيطـة بوايـوارد بايـنز صبغـةورديـة، بنفـس الدرجـة التـي كانـت عليهـا السـماء المتحولـة إلى الظلمـة. حـاول أن يجـد في ذلـك جـمالًا وتأثـيرًا، لكـنَّ الوجـع منـع هـذا.

سار زوجان عجوزان بعيدًا عنه، يدًا في يد، في تمشية هادئة.

في غـير ذلـك ظـل الشـارع فارغًـا وصامتًـا، وتلاشـت تمامًـا ضجـة وسـط البلـدة.

سار عبر الأسفلت الأسود الأملس وخطا على الرصيف.

كان صندوق البريد رقم 401 أمامه مباشرةً.

رقم 403 هو التالي في الخط.

كان عليـه الآن أن يُبقـي عينيـه نصـف مغمضتـين كي يتجنَّـب الرؤيـة المزدوجـة والنبـض الموخـز لصداعـه النصفـي.

بعـد خمـس عـشرة خطـوة مؤلمـة، توقـف إلى جـوار صنـدوق البريـد الأسـود رقـم 403.

سكوزي.

ضبـط توازنـه، ممسـكًا عـلى وجـه السرعـة بالأطـراف الحـادة للسـياج الخشـبي.

مـدَّ ذراعـه ورفـع مـزلاج البوابـة ودفعهـا بطـرف حذائـه الأسـود الـرث الهيئـة.

أصدرت المفصلات صريرًا عندما انفتحت متأرجحة.

ارتطمت البوابة بالسياج في نعومة.

كان الممـشى خليطًـا مـن الطـوب العتيـق، ويـؤدي إلى شرفـة أماميـة مغطـاة بهـا زوج مـن المقاعـد الهـزازة تفصـل بينهـما طاولـة صغـيرة مـن الحديـد المشـغول. كان المنـزل نفسـه بنفسـجيًّا بحـوافٍ خـضراء، ومـن خـلال السـتائر الرقيقـة، اسـتطاع أن يـرى الأضـواء في الداخـل.

فقط تقدَّم. عليك أن تعرف.

سار متعثرًا نحو المنزل.

فاجـأه ازدواج الرؤيـة في ومضـات مصحوبـة برغبـة في القـيء، حـارب أكـثر وأكـثر كي يمنعهـا.

صعـد درجـات الشرفـة ومـدَّ ذراعـه في الوقـت المناسـب ليمنـع نفسـه مـن السـقوط، مسـتندًا بجسـده إلى إطـار البـاب. ارتعشـت يـداه بطريقـة لا إراديـة وهـو يقبـض عـلى مطرقـة البـاب ويرفعهـا مـن فـوق لوحتهـا النحاسـية.

رفـض أن يمنـح نفسـه حتـى جـزءًا مـن الثانيـة كي يعيـد التفكـير في الأمـر.

دقَّ بالمطرقة أربع مرات على اللوحة.

أحـسَّ كأن شـخصًا مـا يلكمـه في مؤخـرة رأسـه كل أربـع ثـوان، وبـدأت بقـع حارقـة مـن الظـلام تتناثـر في رؤيتـه كأنهـا ثقـوب سـوداء مصغـرة.

عـلى الجانـب الآخـر مـن البـاب، اسـتطاع أن يسـمع أرضيـة مـن الخشـب الصلـب تـئن تحـت ثقـل خطـوات مقتربـة.

بدت ركبتاه مائعتين.

احتضـن أحـد الاعمـدة التـي كانـت ترفـع سـقف الشرفـة بحثًـا عـن التـوازن.

انفتـح البـاب الخشـبي متأرجحًـا، وظهـر رجـل يمكـن أن يكـون في عمـر والـده محدقًـا إليـه عـبر الحاجـز ذي الأسـلاك المعدنيـة. كان طويـلًا ونحيلًا، لديـه خصلـة مـن شـعر أشـيب عـلى قمـة رأسـه، ولحيـة صغـيرة بيضـاء كلحيـة الماعـز، وعـروق حمـراء متناهيـة الصغـر عـلى وجنتيـه أشـارت إلى عمـر مـن الإفـراط في الـشراب.

تساءل الرجل: "هل يمكنني مساعدتك؟".

اعتـدل في وقفتـه، وهـو يرمـش بصعوبـة مـن خـلال الصـداع النصفـي. بـذل كل مـا لديـه مـن قـوة كي يقـف دون مسـاعدة.

"هـل أنـت مـاك؟" اسـتطاع أن يسـمع الخـوف في صوتـه، وتصـور أن هـذا الرجـل اسـتطاع ذلـك أيضًـا.

كره نفسه لأجل ذلك.

مـال الرجـل الأكـبر سـنًا عـلى البـاب الحاجـز ليحظـى بنظـرة أفضـل للغريـب الواقـف في شرفتـه الأماميـة.

- ماذا يمكنني أن أصنع من أجلك؟

- هل أنت ماك؟

- نعم.

اقـترب أكـثر، وظهـر الرجـل الأكـبر سـنًا في بـؤرة أوضـح، وهبَّـت في أنفاســه العذوبـة الحامضـة للنبيـذ الأحمـر.

تساءل: "هل تعرفني؟".

- عذرًا؟

كان الخوف الآن يتحوَّل إلى غضب.

- هل.. تعرفني.. أنت.. هل فعلت بي هذا؟

قال الرجل العجوز: "لم أرك من قبل في حياتي".

"أهـذا صحيـح؟" كانـت يـداه تتكـوران عـلى غـير إرادتـه عـلى هيئـة قبضتـين، "هـل يوجـد مـاك آخـر في هـذه البلـدة؟".

"لا يوجـد في حـدود علمـي" فتـح مـاك البـاب الحاجـز، وغامـر بخطـوة خارجًـا إلى الشرفـة.

- يا صاحبي، يبدو أنك محموم بعض الشيء.

- وأنا لست محمومًا بعض الشيء.

- ماذا حدث لك؟

- قل لي أنت يا ماك.

هتـف صـوت امـرأة مـن مـكان مـا في المنـزل: "حبيبـي؟ هـل كل شيء بخـيرٍ؟".

"نعـم يـا جـين، كل شيء بخـيرٍ!" وحـدَّق مـاك إليـه. "لم لا تسـمح لي باصطحابـك إلى المستشـفى؟ أنـت مصـاب، أنـت في حاجـة...".

- لن أذهب إلى أي مكان معك.

"إذن، لماذا أنت في بيتي؟" تخللت نغمة خشنة صوت ماك، "لقد عرضت عليك المساعدة فقط. وأنت لا تريدها، لا بأس، لكن...".

كان ماك ما زال يتكلم، لكن كلماته بدأت تذوب، وتغرق في ضجة تتصاعد في أعماق معدته مثل هدير قطار شحن ينطلق في اتجاهه. كانت الثقوب السوداء تتضاعف، وبدأ العالم يدور حول نفسه. ببساطة لن يتمكَّن من البقاء واقفًا على قدميه خمس ثوان أخرى إذا لم تنفجر رأسه أولًا.

رفع ناظريه إلى ماك، وفم الرجل ما زال يتحرك، وقطار الشحن ذاك يقترب في ضجيج ثائر، إيقاعه متزامن مع الطحن الوحشي في رأسه، ولم يستطع أن يرفع عينيه عن فم ماك، وأسنان الرجل العجوز - مشابكها تلتمع، محاولة أن تترابط، والضجيج، يا إلهي، الضجيج، والنبض...

لم يشعر بركبتيه وهما تستسلمان.

لم يميز حتى السقوط إلى الخلف.

بعد ثانية واحدة كان على أرضية الشرفة الأمامية.

وفي اللحظة التالية كان على العشب.

تمدَّد على ظهره ورأسه يتمايل من ارتطامٍ قاسٍ بالأرض.

يحوم ماك فوقه الآن، محدقًا إليه من علٍ، منحنيًا ويداه على ركبتيه وكلماته ضائعة بلا أمل أمام القطار الذي كان يصرخ في رأسه.

سيفقد وعيه -كان بمقدوره أن يشعر بذلك على نحوٍ وشيكٍ، على مبعدة ثوان- وأراد ذلك، أراد أن يتوقف الألم، لكن...

الإجابات.

كانت هناك مباشرةً.

قريبة جدًّا.

لم يكـن هـذا مفهومًـا، لكـنَّ ثمـة شـيئًا مـا يتعلـق بفـم مـاك، بأسـنانه. لم يسـتطع أن يتوقـف عـن النظـر إليهـا، ولم يعـرف السـبب، لكـن كل شيء كان هنـاك.

تفسير.

إجابات لكل شيء.

وخطر له: توقف عن محاربة ذلك.

توقف عن الرغبة في ذلك بشدة.

كُف عن التفكير.

فقط دعه يأتي.

ال أسنان الأسنانالأسنانالأسنانالأسنانالأسنـ..

إنها ليست أسنانًا.

إنها شبكة معدنية لامعة وبراقة تحمل حروف

م ا ك

مختومة على واجهتها.

سـتولينجز، الرجـل الجالـس إلى جـواره في مقعـد الراكـب الأمامـي لا يـرى مـا هـو قـادم.

في الرحلـة التي اسـتغرقت ثـلاث سـاعات منطلقـين مـن مدينـة بويسي إلى الشـمال، صـار واضحًـا أن سـتولينجز يعشـق نغمـة صوتـه، ويفعـل مـا ظـل يفعلـه طـوال الوقـت: يتكلـم. توقـف عـن الإنصـات منـذ سـاعة،

عندما اكتشف أن بمقدوره أن يفصل نفسه تمامًا ما دام أنه يتدخل في الكلام بعبارة مثل: "لم أفكر في الأمر بتلك الطريقة" أو "إمم، مثير للاهتمام" كل خمس دقائق أو نحو ذلك.

التفت ليقدم هذا الإسهام الرمزي في الحوار عندما قرأ كلمة "ما" على مبعدة عدة أقدام من الجانب الآخر لنافذة ستولينجز.

لم يشرع حتى في إبداء رد فعل -قرأ الكلمة فقط- عندما انفجرت النافذة المجاورة لرأس ستولينجز في رشاش من الحصوات الزجاجية.

تنفجر الوسادة الهوائية من عمود التوجيه لكنها متأخرة جزءًا من الثانية، لتفلت رأسه وترتطم بالنافذة في قوة كافية لاختراقها.

ينبعج الجانب الأيمن من السيارة اللنكولن تاون إلى الداخل في مشهدٍ يليق بنهاية العالم من زجاج متكسر ومعدن منثنٍ، وتتلقّى رأس ستولينجز ضربة مباشرة من شبكة الشاحنة.

في إمكانه الشعور بحرارة محرك الشاحنة وهي تندفع داخل السيارة.

الانبعاث المفاجئ لرائحة البنزين وزيت الفرامل.

الدم في كل مكان، يسيل هابطًا على الهيكل الداخلي للنافذة الأمامية المهشمة، يتناثر عبر لوحة البيانات، في عينيه، وما زال يتفجر مما تبقى من ستولينجز.

السيارة اللنكولن تنزلق عبر مفترَق طرق، تدفعها الشاحنة نحو جانب ذلك المبنى المُشيَّد بالطوب الرملي البني وكشك الهاتف بالقرب من الزقاق، حيث يفقد وعيه.

2

امـرأة تبتسـم إليـه منحنيـة فوقـه. عـلى الأقـل، اعتقـد أنهـا تمتلـك فـمًا مليئًـا بالأسـنان الجميلـة، رغـم أن رؤيتـه المشوشـة المزدوجـة جعلـت مـن الصعـب عليـه أن يؤكـد هـذا. مالـت مقتربـة أكـثر، اندمـج رأسـاها -اللـذان صنعتهـما زغللـة عينيـه- وتبلـورت ملامحهـا بشـكلٍ كافٍ بالنسـبة إليـه كي يـرى أنهـا جميلـة. كان زيهـا الرسـمي ذو الكُمَّـين القصيريـن أبيـض، وامتـدَّت الأزرار بطـول مقدمتـه حيـث توقفـت التنـورة أعـلى ركبتيهـا تمامًـا.

ظلَّت تكرر اسمه.

- مستر بيرك؟ مستر بيرك، هل يمكنك أن تسمعني؟ مستر بيرك؟

اختفى الصداع.

أخذ نفَسًا بطيئًا حريصًا حتى قَطَعَه الألم في ضلوعه.

لا بـد أنـه جفـل، لأن الممرضـة قالـت: "هـل مـا زلـتَ تعـاني مـن تعـبٍ في جانبـك الأيـسر؟"

"تعــب" توجُّــع وهــو يضحــك: "نعــم، أعــاني مــن التعــب. يمكنــك بالتأكيــد أن تســميه هكــذا".

- يمكنني أن آتي بشيء أقوى قليلًا من أجل الألم لو شئتَ.
- أعتقد أن في إمكاني التحمُّل.
- لا بـأس، لكـن لا تكـن شـهيدًا يـا مسـتر بـيرك. أي شيء يمكننـي أن أصنعـه كي أجعلـك أكـثر ارتياحًـا، فقـط سَـمِّه. أنـا فتاتـك. اسـمي بـام، بالمناسـبة.
- أشـكرك يـا بـام. أعتقـد أني أذكـرك منـذ المـرة الأخـيرة التـي كنـت فيهـا هنـا. لـن أنـسى أبـدًا ذلـك الـزي الكلاسـيكي للممرضـات، لم أعـرف حتـى أنهـم مـا زالـوا يصنعونـه.

ضحكـت وقالـت: "حسـنًا، أنـا سـعيدة لسـماع أن ذاكرتـك تعـود، هـذا جيـد جـدًّا، سـيأتي د. مايـتر بعـد قليـل لـيراك، هـل تمانـع في أن أقيـس ضغـط دمـك؟".

- يمكنك بالتأكيد.
- رائع.

رفعـت الممرضـة بـام مضخـة قيـاس ضغـط الـدم مـن عربـة عنـد طرف الفـراش وربطـت الحـزام حـول عضلـة ذراعـه اليسرى.

قالـت وهـي تنفـخ الحـزام: "لقـد أصبتنـا بمقـدارٍ لا بـأس بـه مـن الرعـب يـا مسـتر بـيرك؛ أن تتسـلل بهـذه الطريقـة".

كانت هادئة بينما إبرة المقياس تنزل إلى أسفل.

سألها: "هل اجتزتُ الاختبار؟".

"بامتيـاز، الضغـط الانقبـاضي مائـة واثنـان وعـشرون، والانبسـاطي خمسـة وسـبعون". فكـت الحـزام وقالـت: "عندمـا أتـوا بـك كنـتَ تهـذي، لم يبـدُ أنـك تعـرف مـن تكـون".

نهـض جالسًـا في الفـراش، وقـد بـدأ الضبـاب في رأسـه ينقشـع. كان في حجـرة خاصـة داخـل إحـدى المستشـفيات، اعتقـد أنهـا بـدت مألوفـة، ثمـة نافـذة بجـوار الفـراش، السـتائر المعدنيـة مرخـاة، لكـن الضـوء الزاحـف عبرهـا بـدا خجـولًا بمـا يكفـي لأن يكـون الوقـت إمـا في الصبـاح الباكـر وإمـا بدايـات المسـاء.

سألها: "أين وجدتموني؟".

- في الحديقـة الأماميـة لمنـزل مـاك سـكوزي. أغمـى عليـك. هـل تذكـر مـا كنـت تفعلـه هنـاك؟ قـال مـاك إنـك بـدوت مضطربًـا وتائهًـا للغايـة.

- أفقتُ بالأمس قرب النهر، لم أعرف من أكون أو أين كنت.

- كنتَ قد تركتَ المستشفى، هل تذكر كيف تركتها؟

- لا، ذهبـتُ إلى مسـكن سـكوزي لأنـه المـاك الوحيـد في دليـل الهاتـف.

- لا أعتقد أني أفهمك.

- كان ماك هو الاسم الوحيد الذي يحمل أي معنى بالنسبة إليَّ.

- ولماذا تعتقد ذلك؟

- لأن ماك كانت آخر كلمة قرأتها قبل أن تصدمنا الشاحنة.

- أوه، صحيـح... كانـت شـاحنة ماركـة مـاك هـي مـا صدمـت جانـب سيارتك.

- بالضبط.

قالت الممرضة وهي تدور حول طرف الفراش وتسير نحو النافذة: "العقل شيء غريب، إنه يعمل بأساليب غامضة، يبحث عن أغرب الارتباطات".

- كم مضى منذ أعادوني إلى هنا؟

رفعت الستائر.

- يوم ونصف.

تدفق الضوء داخلًا.

كان الوقت في الحقيقة ضحى، وقد غادرت الشمس للتوِّ الحافة الشرقية للمنحدرات.

قالت: "لقد أُصبتَ بارتجاجٍ شديدٍ في المخ، كان من الممكن أن تموت هناك".

- شعرت كأني أموت.

كان الضوء المبكر المنسكب على البلدة باهرًا.

تساءلت بام: "كيف حال ذاكرتك؟".

- أغرب شيء، استعدت كل شيء عندما تذكرت الحادثة، كأن أحدهم ضغط زرًّا. كيف حال العميل ستولينجز؟

- من؟

- الرجل الذي كان راكبًا في المقعد الأمامي بالسيارة عندما حدث التصادم.

- أوه.

- لم ينجُ، أليس كذلك؟

سارت الممرضة بام عائدة إلى جانب الفراش، مدَّت يدها ووضعتها على رسغه: "أخشى ذلك".

لقد افترض هذا؛ لم يرَ ذلك النوع من الصدمات منذ الحرب، ومع ذلك، كان تأكيد هذا الافتراض شيئًا مقبضًا.

تساءلت الممرضة: "هل كان من أصدقائك المقربين؟".

- لا، قابلته أول مرة في وقتٍ سابقٍ من ذلك اليوم.

- لا بد أن هذا كان شيئًا مريعًا، أنا في غاية الأسف.

- ما هو حجم خسائري؟

- عذرًا؟

- إصاباتي؟

- سيتمكَّن د. مايتر من توضيح الأمر لك على نحوٍ أفضل مما أستطيع، لكنك عانيتَ من ارتجاج في المخ، وهو ما تتعافى منه الآن. وبضع ضلوع مكسورة. بعض الجروح السطحية والكدمات. في ضوء كل ما حدث، كان من الممكن أن يسوء الوضع بشكلٍ كبيرٍ، كبير بالنسبة إليك.

استدارت مبتعدة وتوجهت نحو الباب، وتوقفت عندما شرعت في جذبه لتفتحه كي تلقي نظرة سريعة من فوق كتفها.

قالت: "إذن، هل نحن متأكدون من عودة ذاكرتك؟".

- بالتأكيد.

- ما اسمك الأول؟

- إيثان.

- ممتاز.

- هل يمكن أن تصنعي لي معروفًا؟

قالت بابتسامة واسعة متوهجة: "سمِّه".

- هنـاك أشـخاص أحتـاج إلى الاتصـال بهـم، زوجتـي، رئيـسي في الخدمـة السريـة، هـل اتصل بهـم أحـد؟

- أعتقـد أن أحـدًا مـن مكتـب المأمـور اتصـل بقائمـة اتصـالات الطـوارئ الخاصـة بـك بعـد الحـادث مباشرةً، أعلمهـم بمـا حـدث، بحالتـك.

- كان معـي جهـاز آيفـون في سـترتي وقـت التصـادم. هـل تعرفـين أيـن هـو؟

- لا، لكـن يمكننـي بالتأكيـد أن أرتـدي قبعـة المحققـة البوليسـية نانـسي درو الخاصـة بي وأبحـث عنـه مـن أجلـك.

- سأكون ممتنًّا لهذا.

- ذلك الزر الأحمر الصغير على جانب حاجز السرير؟ أتراه؟

خفض إيثان عينيه ناظرًا إليه.

- ضغطة واحدة عليه وستجدني أمامك.

منحته الممرضة بام ابتسامة أخرى برَّاقة ومضت.

***

لم يكـن هنـاك تلفـاز في الحجـرة، ولا هاتـف. التسـلية الأفضـل والوحيدة كانـت سـاعة الحائـط المعلقـة أعـلى البـاب. رقـد في الفـراش عـدة سـاعات يراقـب عقـرب الثـواني وهـو يقطـع مـداره اللانهـائي بينـما الصبـح يسـتحيل إلى ظهـر وبعـد ذلـك إلى عـصر.

لم يكـن في إمكانـه أن يتأكـد.. لكـن بـدا أن حجرتـه في الطابـق الثالـث وربمـا الرابـع. كانـت الممرضـة بـام قـد تركـت السـتائر مفتوحـة وعندمـا سـئم مـن مراقبـة السـاعة، انقلـب بحـرصٍ عـلى جنبـه السـليم وأخـذ يراقـب مـا يحـدث في وايـوارد باينـز.

مـن نقطـة مراقبتـه، اسـتطاع أن يـرى امتـداد الشـارع الرئيـسي وعـدة مربعـات سـكنية إلى الـوراء عـلى جانبيـه.

كان قـد عـرف قبـل أن يـأتي إلى هنـا أنهـا بلـدة صغـيرة ناعسـة، لكـن مـا زالـت حالـة الخمـول الخالصـة تدهشـه. مـرَّت سـاعة، وأحـصى دسـتة أشـخاص يتمشَّـون عـلى الرصيـف ماريـن بالمستشـفى، ولا سـيارة واحـدة تقطـع الشـارع الأكـثر ازدحامًـا في البلـدة. كان موضـوع التسـلية الأكـثر فاعليـة عـلى مبعـدة مربعـين سـكنيين، طاقـم مـن عـمال البنـاء يقيمـون هيـكل منـزل.

فكـر في زوجتـه وابنـه هنـاك في سـياتل، وتمنـى أن يكونـا بالفعـل في طريقهـما لرؤيتـه. لعلَّهـما لحقـا بـأول طائـرة. سـيكون عليهـما أن يطـيرا إلى بويـسي أو ميـزولا، ثـم يسـتأجران سـيارة لتقطـع بهـما الرحلـة الطويلـة إلى وايـوارد باينـز.

في المرة التالية التي نظر فيها إلى الساعة، كانت الرابعة والربع.

كان راقـدًا في هـذا الفـراش طـوال اليـوم، ود. مايـتر -أو أيًّا كان اسـمه- لم يكلِّـف خاطـره كي يمـرَّ عليـه. لقـد قـضى إيثـان وقتًـا كبـيراً في المستشـفيات، وفي إطـار خبرتـه لا يـتركك الأطبـاء والممرضـون وحـدك أكـثر مـن عـشر ثـوانٍ، دائمًـا مـا يـأتي أحدهـم ببعـض الـدواء الجديـد، دائمًـا مـا ينخسـونك ويتحسَّسـونك.

أما هنا، فقد تجاهلوه فعليًّا.

بـل لم تظهـر الممرضـة بـام قـط حاملـة هاتفـه ومتعلقاتـه الأخـرى. أي قـدرٍ مـن الانشـغال يمكـن أن يكـون عليـه هـذا المستشـفى الكائـن في قلـب العـدم؟

مـدَّ يـده نحـو لوحـة التحكُّـم الملحقـة بحاجـز السريـر وضغـط بإبهامـه زرَّ اسـتدعاء الممرضة.

بعـد خمـس عـشرة دقيقـة، انفتـح بـاب حجرتـه ومرقـت عـبره الممرضة بام.

- أوه يـا إلهـي، أنـا في غايـة الأسـف. لم أرَ أنـك دققـت الجـرس إلا منـذ عـشر ثـوان. أعتقـد أن لدينـا بعـض المشـكلات في نظـام الاتصـال الداخـلي الخـاص بنـا.

توقفـت عنـد طـرف الفـراش ووضعـت يديهـا عـلى الحاجـز المعـدني: "كيـف يمكننـي أن أسـاعدك يـا إيثـان؟".

- أين دكتور مايتر؟

تجهَّمـت وقالـت: "كان مشـغولًا في جراحـة طارئـة طـوال العـصر. واحـد مـن تلـك الكوابيـس التـي تسـتمر خمـس سـاعات" ثـم ضحكـت، وقالـت: "لكنـي أبلغتـه بقياسـاتك الحيويـة هـذا الصبـاح والتقـدم الرائـع الـذي تحققـه بشـأن ذاكرتـك، وهـو يعتقـد أنـك تبـلي بـلاء حسـنًا".

ورفعت لإيثان إبهاميها.

- متى يمكنني أن أراه؟

- يبـدو أنـه سـيقوم بجولاتـه بعـد وجبـة العشـاء الآن، التـي يجـب أن تُقـدَّم خـلال النصـف سـاعة التاليـة.

جاهد إيثان كي يخفي إحباطه المتنامي.

- هـل صادفـك أي حـظٍّ في العثـور عـلى هاتفـي والأشـياء الأخـرى التـي كانـت معـي قبـل الحـادث؟ تتضمـن هـذه الأشـياء محفظتي وحقيبـة أوراق سـوداء.

رفعــت الممرضــة بــام يدهــا في نصــف تحيــة عســكرية، وســارت في مكانهـا بضـع خطـوات.

- أعمل على ذلك يا كابتن.

- فقط ائتِ لي بخط أرضي الآن، أحتاج إلى إجراء بعض المكالمات.

- طبعًا يا مارشال.

- مارشال؟

- ألا تشبه مارشالًا أمريكيًّا أو ما شابه؟

- لا، أنا عميل خاص في جهاز الخدمة السرية الأمريكي.

- فعلًا؟

- فعلًا.

- ظننتُ أنكم في هذا الجهاز تحمون الرئيس.

- نتعامل مع بعض الأشياء الأخرى أيضًا.

- إذن، ماذا تفعل هنا في جنتنا الصغيرة؟

منحها إيثان ابتسامة صغيرة باردة.

- لا يمكنني مناقشة هذا.

كان في إمكانه في الحقيقة، لكنه فقط لم يشعر بالرغبة في ذلك.

- حسنًا، لقد أثرت فضولي تمامًا الآن.

- الهاتف يا بام.

- عذرًا؟
- أحتاج إلى الهاتف فعلًا.
- سأتعامل.

***

عندما أتى العشاء أخيرًا -حصص من شيء لزج أخضر وبُني مجزأة في صينية معدنية لامعة- ولم يأتِ الهاتف قرر إيثان أن يرحل.

بالطبع كان قد تسلَّل خارجًا مرة من قبل، لكنه كان غائب الذهن في تلك المرة، يعاني ارتجاجًا شديدًا في المخ.

أما الآن، فهو يفكر بوضوحٍ.

اختفى الصداع، وصار في إمكانه أن يتنفَّس بسهولة أكبر وبألمٍ أقل، ولو كان لدى الطبيب قلق حقيقي فيما يتعلق بحالته، فلربما كان هذا اللعين قد منحه شرف المرور في لحظة ما خلال العشر ساعات الماضية.

انتظر إيثان حتى غادرت الممرضة بام، وهي تؤكد له لحظة مغادرتها أن طعام المستشفى "له مذاق أفضل بكثيرٍ من هيئته!".

عندما انغلق الباب، نزع إبرة الخرطوم الوريدي من رسغه ونزل من فوق الحاجز. كانت الأرضية المفروشة بالمشمع باردة على باطن قدميه الحافيتين. شعر بأنه ليس في حالة من التوازن الكامل، لكنه مع ذلك أفضل بسنوات ضوئية مما كان عليه منذ ثماني وأربعين ساعة.

جرَّ إيثان قدميه إلى الخزانة، وجذب بابها ليفتحه.

قميصه وسترته وبنطاله كانوا على مشجب، وحذاؤه على الأرضية بالأسفل.

لا جورب.

لا ملابس داخلية.

أظن أني سأنطلق بلا ملابس داخلية.

أتى الألم الوحيد عندما انحنى ليجذب بنطاله في أثناء ارتدائه؛ وخزة حادة في الجانب الأيسر تلاشت عندما استقام في وقفته من جديدٍ.

ألقى نظرة خاطفة على ساقيه العاريتين، وكما هو الحال دائمًا، أخرجته سلسلة الندوب عليهما من اللحظة، مجاهدة كي تجذبه إلى الوراء ثماني سنوات إلى حجرة ذات جدران بُنية لن تغادره أبدًا رائحة الموت النتنة فيها.

تأكد من أن المطواة ما زالت في سترته. حسنًا. كانت ذكرى من أوائل عشرينياته عندما كان يعمل ميكانيكيًا للطائرات المروحية -أقرب إلى تعويذة الآن من كونها أداة وظيفية- لكن معرفته بوجودها قدمت له درجة ما من الراحة.

وقف أمام مرآة في الحمَّام، متعثِّرًا في عقد ربطة عنقه. تطلَّب الأمر منه خمس محاولات كي يربطها بشكلٍ صحيحٍ. أصابعه مختلة وخرقاء، كأنه لم يربط واحدة منذ سنوات.

عندما انتهى أخيرًا من ربط عقدة وندسور[1] متوسطة المستوى، أخذ خطوة إلى الوراء ليُقيِّم نفسه.

بدت الكدمات على وجهه في حالة أفضل قليلًا، لكن سترته كانت ما زالت تحمل عشبًا وبقعًا من التراب ومزقًا صغيرًا بعرض الجيب

(1) عقدة مثلثة كبيرة وفضفاضة من عقدات ربطات العنق، تُربط بعقْد لفاتٍ إضافية. (المترجم)

الأيسر. وكان القميص الأبيض مبقَّعًا أيضًا أسفلها، أمكنه أن يرى القليل من الدماء قرب الياقة.

كان قد فَقَدَ عدة بوصات من محيط خصره طوال الأيام القليلة الماضية، وكان عليه أن يثبِّت إبزيم الحزام في آخر ثقب، ورغم ذلك أحسَّ أن بنطاله أوسع من اللازم.

أدار الصنبور، وبلَّل يديه، ومرَّر أصابعه في شعره.

ضبط فَرْق الشعر، وحاول أن يمنحه مظهرَ نظامٍ ما.

تمضمض بالماء الفاتر عدة مرات، لكنه ظلَّ يحس كأن أسنانه مغطاة بالطحالب.

تشمَّم إبطيه - **رائحة نتنة.**

كان في حاجة أيضًا إلى حلاقة ذقنه، لقد مرَّت سنوات منذ بدا بهذه الهيئة الخشنة.

ارتدى حذاءه، وعقد رباطه، وخرج من الحمَّام نحو الباب رأسًا.

كان أول ما حثَّته عليه غريزته أن يغادر دون أن يراه أحد، وحيَّره هذا؛ فهو عميل فيدرالي لديه سلطة كاملة من حكومة الولايات المتحدة الأمريكية. وهذا معناه أنَّ على الناس أن يفعلوا ما يأمر به، حتى الممرضات والأطباء، لا يريدونه أن يرحل؟ هراء تام. ومع ذلك، كان جزءٌ ما داخله يخشى متاعب صدفة ما، كان هذا غباءً، وهو يعرف، لكنه لم يُرِد أن تمسك به الممرضة بام.

أدار مقبض الباب، وفتحه مقدار بوصة من دعامته.

كان الجزء الذي استطاع رؤيته من الممر خاليًا.

أرهف سمعه.

ليس هناك أثرٌ لثرثرة ممرضات بعيدة.

ولا وقع خطوات.

مجرد صمتٍ تامٍّ.

أخرج رأسه.

لمحة سريعة إلى اليسار واليمين أكدت شكَّه. كان المكان خاليًا، خاليًا، حتى غرفة الممرضات على مبعدة خمسين قدمًا في نهاية الممر.

خطا خارج حجرته إلى الأرضية ذات البلاطات الشطرنجية المغطاة بالمشمع، وأغلق الباب بهدوء وراءه.

هنا في الخارج، كان الصوت الوحيد صادرًا عن المصابيح الفلورسنت المعلَّقة في السقف؛ طنين ناعم ثابت.

أدرك فجأة ما كان ينبغي له أن يفعله في الأصل وانحنى رغم الألم في ضلوعه ليفك رباط حذائه.

بقدمين حافيتين سار قاطعًا الممر.

كل الأبواب في هذا الجناح كانت مغلقة، ولا ضوء يتسلَّل من الشقوق أسفلها، بدا أن حجرته كانت الوحيدة المشغولة.

لاحت غرفة الممرضات خالية عند تقاطع أربعة ممرات، قادت ثلاثة منها إلى أجنحة إضافية من حجرات المرضى.

امتدَّ رواق أقصر خلف غرفة التمريض إلى بابين مزدوجين نُقِشَت كلمة **جراحة** على لوحة فوقهما.

توقَّف إيثان عند المصعد في الجهة المقابلة لغرفة التمريض مباشرةً وضغط السهم النازل.

سمع البكرات وهي تبدأ في الدوران من وراء الأبواب.

- هيا.

استغرق المصعد دهرًا.

أدرك أنه كان ينبغي له أن يستخدم السلالم.

ظلَّ ينظر من فوق كتفه، منصتًا إلى أي خطوات مقتربة، لكنه لم يتمكَّن من سماع شيء أعلى من ضجة كابينة المصعد الصاعدة.

أخيرًا انفرج البابان بصريرٍ جعل أسنانه تؤلمه، وانتحى جانبًا لعلَّ أحدًا كان يستقله.

لم يخرج أحد من الكابينة.

أسرع إلى الداخل وضغط زر الدور الأرضي.

فحص الأرقام المضيئة على البابين، وراقب الكابينة وهي تبدأ هبوطها البطيء من الطابق الرابع، ومرَّت دقيقة كاملة -وقت كافٍ له كي يرتدي حذاءه من جديد- قبل أن يضيء زر الرقم الأرضي ويبدأ البابان في الانفتاح ببطء.

انفلت من بينهما، وخطا خارجًا إلى تقاطع أروقة آخر.

همهمت أصواتٌ، ليس ببعيدٍ.

ضجة نقالة تتدحرج على عجلة زاعقة.

مضى في الاتجاه المعاكس، وسار في ثلاثة ممرات طويلة، وبدأ يشك في أنه ضلَّ الطريق عندما لمح لافتة **خروج**.

أسرع هابطًا نصف دورة من الدرَج، واندفع عبر الباب في الأسفل، وتعثَّر خارجًا.

كان المساء في بدايته، السماء صافية وباهتة، والجبال تصطبغ بضوء المغيب في درجاتٍ من الوردي والبرتقالي. وقف في رواقٍ قصيرٍ يمتد خارجًا من المستشفى، وهي بناية من الطوب الأحمر ذات أربعة طوابق بدت له أقرب إلى أن تكون مدرسة أو مصحة عقلية.

أخذ جرعة عميقة من الأكسجين بقدر ما استطاع دون أن يبلغ حدَّ الألم، وبدا من الرائع استنشاق هذا الهواء البارد المعبَّق بالصنوبر بعد تنفس رائحة المطهرات الكريهة في المستشفى.

وصل الرصيف، وبدأ يقطع الشارع الرئيسي نحو أبنية وسط البلدة.

كان هناك أشخاص أكثر ممن كانوا بعد الظهيرة.

مرَّ بمطعمٍ يقع في منزل صغير له باحة مرصوفة إلى جانبه. ثمة أشخاص يتناولون العشاء تحت أشجار حور تدلَّت منها عناقيد مصابيح بيضاء صغيرة.

أثارت رائحة الطعام تذمُّر معدته.

عند ناصية الشارع الرئيسي والشارع الخامس، عَبَرَ الشارع وعاد إلى كشك الهاتف الذي فَقَدَ عنده وعيه قبل يومين.

عندما خطا داخله، فرَّ بإصبعه دليل الهاتف حتى وجد عنوان مكتب مأمور وايوارد باينز.

***

شعر أنه أفضل مما كان طوال أيام مضت وهو يسير نحو الجانب الشرقي من البلدة بينما بدأ الضوء ينحسر والحرارة تنخفض.

مرَّ في سيره بحفل شواء قائم.

رائحة الفحم في النسيم.

هبوب نكهة البيرة الطيبة اللاذعة من الأكواب البلاستيكية.

صوت ضحك الأطفال يتردد صداه عبر الوادي.

طقطقة رشاش ماء في الجوار أشبه بصوت حشرات الزيزيات.

أينما ولّى وجهه، رأى لوحة.

كأنها بلدة تجسّد المثالية الأفلاطونية. لا يمكن أن يكون هناك أكثر من أربعمئة أو خمسمئة شخص يعيشون هنا، ووجد نفسه يتساءل ما الذي أتى بهم إلى هنا. كم منهم اكتشف وايوارد باينز بالصدفة وسقط في حبّها وبقي فيها؟ كم منهم وُلد هنا ولم يغادرها قط؟

بقدر ما كان دائمًا ابن مدينة كبيرة، إلا أنه استطاع أن يفهم السبب وراء عدم مغادرة مكان كهذا. لماذا يهجر المرء ما بدا الكمال الكلي والتام؟ النموذج المثالي للثقافة الأمريكية محاط ببعض من أبدع مظاهر الجمال الطبيعي التي وقعت عليها عيناه. لقد رأى صورًا لوايوارد باينز في الليلة السابقة على مغادرته سياتل، لكن أيًّا منها لم يقترب حتى من إعطاء هذا الوادي الصغير حقَّه.

ومع ذلك، هو موجود هنا.

وبفضل هذه الحقيقة، أو بالأحرى بسببها، لم يكن هذا المكان مثاليًّا.

من خبرته، ثمة ظلمة في كل مكان يتجمَّع فيه البشر.

هكذا يسير العالم.

الكمال شيء سطحي، قشرة خارجية، احفر بضع طبقات في العمق، وسترى بعض الدرجات الأكثر ظلمة.

احفر إلى العظم؛ ظلام دامس.

لم يستطع رفع عينيه عن الجبال بينما كان يسير. لا بد أن الحد الشرقي يرتفع ثلاثة أو أربعة آلاف قدم. نحو القمة، كلها صخور وجليد.

كانت الخيوط الأخيرة من ضوء الشمس الأفقي تضرب المنحدرات وراءه. استدار ولبث لحظة يراقب تلاشي الوهج.

عندمـا اختفـى الضـوء، تحوَّلـت الصخـور عـلى الفـور إلى لـون الفـولاذ المـزرق.

وتغيَّرت طبيعتها.

كانت ما زالت جميلة.

لكنها أكثر نأيًا.

غير مبالية.

***

اللافتة أعلى الأبواب الزجاجية المزدوجة:

مكتب مأمور وايوارد باينز

حـين تحـرك نحـو المدخـل الأمامـي عـبر ممـشى اصطفَّـت عـلى جانبيـه أشـجار صنوبـر صغـيرة، شـعر بموجـة إحبـاط جديـدة تجتاحـه.

عبْر الزجاج، استطاع أن يرى الرواق مظلمًا وخاويًا.

رغم ذلك، قبض على الأبواب ودفعها بقوة.

مغلقة بالقفل.

بالتأكيد الوقت الآن بعد ساعات العمل، لكن **اللعنة على ذلك!**

تراجـع إيثـان عـن المدخـل، ورمـق امتـداد المبنـى ذي الطابـق الواحـد. في الطـرف البعيـد، بـدا كأن قليـلًا مـن الضـوء ينـسرب عـبر السـتائر وراء نافـذة مـا.

تحـرك إلى الأمـام مـن جديـد، وطـرق بمفاصـل أصابعـه عـلى أحـد الأبـواب الزجاجيـة.

لا شيء.

طرق بقوة أكبر، دقَّ على الزجاج بشدة حتى صلصلت الأبواب في أطرها.

مرَّت خمس دقائق، لكن أحدًا لم يأتِ.

***

ظهرت نجمتان وكوكب في السماء قبل أن يصل إلى الشارع الرئيسي، والبرودة التي كانت منعشة منذ خمس عشرة دقيقة صارت مزعجة، تخترق قميصه القطني الخفيف، وبدأ التنميل يدب في قدميه العاريتين من الجوارب.

الأسوأ من ذلك أن أولى علامات الجوع الحقيقي بدأت تتجلَّى كوجع أجوف في فم معدته ودوار خلف عينيه.

قطع عدة مربعات سكنية إلى فندق وايوارد باينز وصعد السلالم الحجرية إلى المدخل.

عبر ألواح الزجاج في الباب، رأى مصابيح مضاءة في الداخل، وشابة جالسة خلف مكتب الاستقبال.

دخل إيثان البهو لتستقبله لفحة من الدفء.

شغل بيانو كبير ركنًا أمام المدفأة الضخمة، التي احتوت وقتها نارًا هادرة.

توقف لحظة ورفع يديه أمام الحرارة. كانت هناك قِطَع من صمغ الصنوبر تغلي في إناء وتنبعث منها رائحة شمعة عذبة، كان بمقدوره أن يتمدد على الأريكة ويغفو لأيام.

بعد لحظة، جرَّ جسده مبتعدًا، وسار نحو مكتب الاستقبال.

ابتسمت الشابة لإيثان عندما اقترب.

خطـر لـه أنهـا في منتصـف العشرينيـات مـن عمرهـا، لطيفـة، رغـم أن وزنهـا ثقيـل بعـض الـشيء، وشـعرها الأسـود مشـدود في ذيـل حصـان قصـير. ارتـدت قميصًـا أبيـض تحـت صديريـة سـوداء، وعرَّفتهـا بطاقـة الاسـم عـلى صدرهـا باسـم "ليـزا".

اقـترب إيثـان مـن المكتـب متمهـلًا، وأراح سـاعديه عـلى النضـد العـالي ليثبِّـت توازنـه.

قالـت ليـزا: "مسـاء الخـير، مرحبًـا بـك في فنـدق وايـوارد باينـز، كيـف يمكننـي أن أسـاعدك الليلـة؟".

بـدت تحيتهـا غريبـة، ليسـت الكلـمات، بـل الأداء، كأنهـا تجاهـد أمـام شيء نـادرًا مـا اضطـرَّت إلى قولـه.

- هل لديكم أي غرف شاغرة الليلة؟

- بالطبع لدينا.

نقرت ليزا لوحة مفاتيح.

سألته: "الليلة فقط؟".

- نعم، حاليًّا على الأقل.

رمـق إيثـان شاشـة الكمبيوتـر، وحـش عتيـق، كأنـه شيء مـن أواخـر الثمانينيـات. لم يسـتطع أن يتذكـر آخـر مـرة رأى فيهـا ديناصـورًا كهـذا.

- لـديَّ غرفـة ممنـوع فيهـا التدخـين واصطحـاب الحيوانـات الأليفـة في الطابـق الثـاني وبهـا سريـر مَلَـكي.

- هذا جميل.

أنهـت النقـر عـلى اللوحـة، وقالـت: "وهـل تـود أن تضيـف حسـاب هـذا عـلى بطاقـة ائتـمان؟".

ابتسم إيثان، وقال: "هذا سؤال مثير للاهتمام".

- حقًّا؟ كيف ذلك؟

- تعرَّضت لحادثة سيارة منذ عدة أيام، ارتطمت شاحنة بجانب سيارتي، بعد مربع سكني واحد من هنا في الحقيقة، لعلك رأيتِها؟

- لا، بالتأكيد لم أرها.

- حسنًا، خرجت للتوِّ من المستشفى، والحكاية أن... لم أتمكن من العثور على محفظتي، ولا شيء من متعلقاتي الشخصية في الحقيقة.

- أوه، أنا في غاية الأسف لسماع هذا.

اعتقد أنه رأى ابتسامة ليزا تفقد لمسة من حماسها الأوليّ.

- إذن، كيف ستدفع الحساب يا مستر...؟

- بيرك، إيثان بيرك. كما ترين، هذا ما أحاول أن أقوله لك. لن أتمكَّن من دفع حساب الغرفة إلى أن أسترد محفظتي غدًا. قيل لي إن أشيائي في حوزة المأمور، لست متأكدًا من السبب، لكن... (هزَّ كتفيه) هذا ما حدث.

- إممم. اسمع، ليس مسموحًا لي فعلًا بحجز غرفة دون دفع نقدي مقدمًا أو على الأقل بوجود رقم بطاقة ائتمان؛ إنها سياسة الفندق. في حالة -وبالطبع أنا لا أقول إن هذا سيحدث بالضرورة- لكن في حالة حدوث أي ضرر للغرفة أو تكبد نفقات بما...

- أفهم ذلك، أنا أعي تمامًا الغرض من الدفع مقدمًا، ما أقوله لك إني سأتمكَّن من الدفع غدًا.

- ألا تملك حتى رخصة قيادة؟

- كل شيء في محفظتي.

عضَّت ليزا على شفتها السفلى، ورأى إيثان ما هو آتٍ؛ فتاة لطيفة تتأهب للتعامل مع شخص شرير.

- سيدي، مستر بيرك، أخشى أنه دون بطاقة ائتمانية أو مبلغ نقدي أو بطاقة هوية، لن أتمكن من منحك غرفة الليلة. كنت أتمنى لو باستطاعتي، حقًّا، لكن هذه سياسة الفندق و...

توقفت عن الحديث عندما مال إيثان على النضد.

- ليزا، أتعرفين لماذا أرتدي بدلة سوداء؟

- لا.

- أنا عميل خاص في جهاز الخدمة السرية بالولايات المتحدة الأمريكية.

- أتقصد هؤلاء الأشخاص الذين يحرسون الرئيس؟

- هذا واحد فقط من واجباتنا. مهمتنا الأساسية أن نحمي سلامة البيئة المالية لأمتنا.

- وبالتالي أنت، مثلًا، في مهمة تحقيق في وايوارد باينز؟

- صحيح، كنت قد وصلت توًّا إلى البلدة عندما وقعت الحادثة.

- أي نوع من التحقيقات؟

- لا يمكنني مناقشة التفاصيل.

- أنت لا تخدعني، أليس كذلك؟

- لو كنت أخدعك، فأنا أرتكب جريمة فيدرالية.

- أنت فعلًا عميل خاص؟

- نعـم، وأنـا متعـب وأطلـب منـك أن تمنحينـي راحـة، أحتـاج إلى غرفـة الليلـة. أعـدك.. أنـا أهـل لذلـك.

- وستدفع غدًا؟ أول شيء؟

- أول شيء.

***

بمفتـاح في اليـد، صعـد السـلم متثاقـلًا إلى الطابـق الثـاني، وانعطـف في ممـرٍّ طويـل هـادئ. ثمـة فوانيـس صناعيـة معلقـة عـلى الجـدران كل عشريـن قدمًـا ألقـت ضـوءًا أصفـر واهنًـا عـلى السـجاجيد الفارسـية.

كانت غرفته في الطرف الأقصى، رقم 226.

فتح قفل الباب، وخطا إلى الداخل، وأضاء النور.

مال الديكور إلى الشكل الفلكلوري بطريقة مصطنعة.

منظران أيقونيان من عالم الغرب الأمريكي مُنفَّذان بطريقة سيئة.

راعي بقر يتقافز على حصان جامح.

مجموعة من العاملين في مزرعة ماشية تحلَّقوا حول نار مخيم.

كانت الغرفة خانقة ولم يكن بها تلفاز.

فقـط هاتـف أسـود قديـم بقـرص دوار يسـتقر عـلى إحـدى الطـاولات الصغـيرة إلى جانـب السريـر.

بـدا السريـر نفسـه ناعـمًا وضخـمًا. جلـس إيثـان مسـتريحًا عـلى المرتبـة وفـك ربـاط حذائـه. كان السـير مـن دون جـورب قـد أنشـأ بالفعـل عـدة بثـور في عقبيـه. خلـع سـترته، وربطـة عنقـه، وفـك الأزرار الثلاثـة الأولى مـن قميصـه.

كان هنـاك دليـل هاتـف في درج الطاولـة الصغـيرة إلى جـوار السريـر. أخرجـه ووضعـه عـلى السريـر ورفـع سـماعة الهاتـف العتيـق.

نغمة اتصال.

الشكر لله.

الغريـب أن رقـم هاتـف منزلـه لم يقفـز إلى ذهنـه عـلى الفـور. كان عليـه أن يقـضي دقيقـة في اسـتدعائه لعـين عقلـه، محـاولًا أن يتصـور كيـف كان يبـدو الرقـم عندمـا كان يتصـل بـه عـلى جهـاز الآيفـون الـذكي. كان في ذهنـه منـذ يومـين، لكـن... "اثنـان... صفـر... سـتة" كان يعـرف أنـه يبـدأ بهـذه الأرقـام الثلاثـة -رمـز منطقـة سـياتل- وأدارهـا خمـس مـرات عـلى قـرص الهاتـف، لكنـه في الخمـس مـرات وجـد ذهنـه فارغًـا بعـد السـتة.

اتصل برقم الدليل 411.

بعد رنتين، أجابته عاملة الهاتف متسائلة: "ما المدينة والبيانات؟".

- سياتل، واشنطن. إيثان بيرك. ب-ي-ر-ك.

- لحظة من فضلك.

عـلى الخـط اسـتطاع أن يسـمع المـرأة تنقـر لوحـة مفاتيـح. مـرَّت لحظـة صمـت طويلـة. ثـم: "ب-ي-ر-ك؟".

- مضبوط.

- سيدي، لا يظهر لي أي بيان تحت هذا الاسم.

- متأكدة؟

- نعم.

كان هـذا غريبًـا بالتأكيـد، لكـن نظـرًا إلى طبيعـة وظيفتـه، ربمـا لم يكـن رقمـه مدرجًـا في القائمـة. عندمـا فكـر في الأمـر، صـار شـبه متأكـد مـن هـذا.. غالبًـا.

- حسنًا، أشكرك.

وضع الهاتف مكانه وفتح الدليل، بحث عن رقم مكتب المأمور حتى وجده.

رنَّ الهاتف على الطرف الآخر خمس مرات ثم تحوَّل إلى البريد الصوتي.

بعد الصافرة قال إيثان: "معك العميل الخاص إيثان بيرك من جهاز الخدمة السرية بالولايات المتحدة الأمريكية، مكتب سياتل الميداني. كما تعرف، تعرضت لحادث السيارة في الشارع الرئيسي منذ عدة أيام. أحتاج إلى الحديث معك في أقرب وقت يناسبك. أخبروني في المستشفى أن متعلقاتي الشخصية بحوزتك، ومن ضمنها محفظتي وهاتفي وحقيبة أوراقي وسلاحي الناري، سآتي أول شيء في الصباح لأستلمها. لو تلقَّى أي شخص هذه الرسالة قبل ذاك، من فضلك اتصل بي في فندق وايوارد باينز، أنا مقيم في الغرفة رقم 226".

***

حلَّ الليل تمامًا عندما هبط إيثان السلالم من مدخل الفندق، يكاد ألم قدميه يقتله، والجوع كالجحيم.

كان المقهى المجاور للفندق مغلقًا، لذا توجه شمالًا تحت سماء مليئة بالنجوم، مارًّا بمحل بيع كتب نادر، ومحلين أو ثلاثة لبيع الهدايا، ومكتب قانوني.

لم يكن الوقت متأخرًا إلى هذا الحد، لكن مع إغلاق كل شيء بدخول الليل، كانت أرصفة الشارع الرئيسي خالية تمامًا. كان قد بدأ يتصالح مع رعب ألا يتناول العشاء قبل كل شيء آخر عندما لمح ضوءًا ينثال على الرصيف في المربع السكني التالي. تسارعت خطاه بشكل لا

إرادي عندما التقط أول نفحة لطعام ساخن تخرج من فتحة تهوية في المبنى أمامه.

عندما وصل المدخل، حدّق عبر زجاج الواجهة في حانة كابية الإضاءة اسمها (بيرجارتن).

انتعش قلبه.. ما زالت مفتوحة.

دخل.

ثلاث طاولات مشغولة، لكن في غير ذلك كان المكان فارغًا.

اتخذ مقعدًا في الركن عند البار.

من خلال زوج من الأبواب المروحية تناهى إليه طشيش لحم يُطهى على شواية مفتوحة.

في جلسته تلك بهذه الحانة، مريحًا ذراعيه على البار الذي أبلاه الدهر، أحس بالسلام لأول مرة منذ أيام. كانت ذكرى ستولينجز والحادث قريبة، منذرة بأن تشقّ طريقها عنوة، لكنه رفض السماح لها بالسيطرة على ذهنه، فقط أخذ شهيقًا وأطلق زفيرًا وحاول أن يبقى راسخًا بثباتٍ قدر الإمكان في هذه اللحظة.

بعد خمس دقائق، خرجت من الأبواب المروحية امرأة طويلة ذات كومة من الشعر البُني مرفوعة بعِصي صينية وفتحت جزءًا من البار معلقًا بمفصلات.

اقتربت من إيثان، بابتسامة واسعة، وألقت بقاعدة أكواب صغيرة أمامه.

- ماذا تود أن تشرب؟

ارتدت فانلة سوداء مطبوعًا عليها بعرض صدرها اسم الحانة.

- كوب من البيرة سيكون عظيمًا.

التقطت النادلة كوبًا كبيرًا وتحركت نحو الصنابير: "بيرة فاتحة؟ سوداء؟".

- ألديك جينيس؟

- لديَّ شيء يشبهها.

كانت قد فتحت الصنبور بالفعل عندما تذكر أنه لا يملك أي نقود.

وضعت الكوب أمامه، والرغوة تنسكب من الجانبين، وقالت: "هل ستشرب فقط، أم تريد أن ترى قائمة الطعام؟".

قال: "الطعام طبعًا، لكنك ستقتلينني".

ابتسمت المرأة: "ليس بعد، فأنا أعرفك بالكاد".

- لا أملك أي نقود.

تلاشت ابتسامتها: "لا بأس، ربما تقوم بخدعة ما".

- يمكنني توضيح الأمر، هل رأيت حطام السيارة في الحادث الذي جرى بالشارع الرئيسي منذ بضعة أيام؟

- لا.

- هل سمعتِ به؟

- لا.

- حسنًا، وقع حادث، على مبعدة بضع مربعات سكنية جنوبًا من هنا، وكنتُ من ضحاياه. خرجت من المستشفى توًّا، في الواقع.

- إذن نلتَ هناك تلك الكدمات الشنيعة؟

- صحيح.

- ما زلت أحاول أن أفهم ما علاقة هذا بكونك لن تدفع لي.

- أنا عميل فيدرالي.

- نفس السؤال.

- مـن الواضـح أن المأمـور اسـتولى عـلى محفظتـي وهاتفـي، كل شيء في الحقيقـة؛ إنـه صـداع كبـير.

- إذن مـاذا تكـون مثـلًا، عميـلًا في مكتـب التحقيـق الفيـدرالي أو مـا شا به ؟

- جهاز الخدمة السرية.

ابتسـمت المـرأة، ومالـت نحـوه عـبر البـار، كان مـن الصعـب تحديـد ذلـك في الضـوء الـكابي، لكنهـا كانـت بالتقريـب شـديدة الجـمال، أصغـر مـن إيثـان ببضـع سـنوات، لديهـا عظـام وجنـات نموذجيـة، قصـيرة الجـذع وطويلـة السـاقين. ربمـا كانـت ذات فتنـة طاغيـة في العشرينيـات مـن عمرهـا، رغـم أن سـن الرابعـة أو الخامسـة والثلاثـين -أيًّـا كان سـنها الآن- لا يبـدو أنـه ينـال منهـا عـلى نحـو سـيئ.

- لا أعـرف إن كنـتَ نصابًـا وهـذا مجـرد جـزء مـن لعبتـك أن تـأتي إلى هنـا ببدلتـك السـوداء وهـذه القصـة المجنونـة...

- أنا لا أكذب...

وضعـت إصبعًـا عـلى شـفتيه، وقالـت: "يُهيَّـأ لي أنـك إمـا أن تكـون مـا تقولـه بالضبـط وإمـا أنـك كاذب بـارع. أقصـد، هـذه قصـة جيـدة، وأنـا أحـب القصـص الجيـدة. في الحالتـين سأسـمح لـك بالطبـع أن تتنـاول العشـاء عـلى الحسـاب".

- ليست كذبة... ما اسمك؟

- بيفرلي.

- أنا إيثان.

صافحته وقالت: "فرصة سعيدة يا إيثان".

- بمجرد أن أحصل على محفظتي ومتعلقاتي غدًا صباحًا يا بيفرلي، سآتي إلى هنا...

- دعني أخمن... وتمنحني بقشيشًا كبيرًا.

هزَّ إيثان رأسه، وقال: "أنتِ الآن تسخرين مني".

- أنا آسفة.

- إذا كنتِ لا تصدقينني، سوف...

- لقد التقيتك للتوِّ. قبل أن تنهي عشاءك، سأعرف إن كنت سأراك مرة أخرى أم لا.

- ما زال من السابق للأوان أن تعرفي، هه؟

وابتسم شاعرًا كأنه قد فاز برضاها.

جلبت له قائمة طعام، وطلب أصابع بطاطس مشوية وتشيزبرجر غير تام النضج بقدر ما تسمح وزارة الصحة.

عندما اختفت بيفرلي داخل المطبخ لتعد طلبه، ارتشف بيرته.

إمممم. شيء ما غير مضبوط. كانت فاترة، وبعيدًا عن لمحة اللذوعة الواهية في نهاية الرشفة، كانت خالية تمامًا من الطعم.

وضع الكوب على البار عندما عادت بيفرلي.

قال: "أنا أحظى بوجبة مجانية، لذا أنا متردد في الشكوى، لكن هناك مشكلة ما في البيرة".

"حقًّا؟" وأشارت إلى الكوب. "هل تمانع؟".

- تفضلي.

رفعـت الكـوب وتناولـت رشـفة، لعقـت الرغـوة عـن شـفتها العليـا وأعـادت الكـوب مكانـه.

- طعمها طيب بالنسبة إليّ.
- حقًّا؟
- نعم.
- لا، إنها فاترة و... لا أعلم... إنها فقط... لا طعم لها.
- غريبـة. لا أشـعر بذلـك عـلى الإطـلاق. أتريـد أن تجـرب بـيرة أخـرى؟
- لا، ربما لا ينبغي لي أن أشرب على أي حال، سأتناول ماء فقط.

أتت له بكوب جديد، وصبّت الماء على الثلج.

***

رفـع سـاندويتش التشـيزبرجر السـاخن الـذي يتصاعـد منـه البخـار مـن طبقـه بيديـه الاثنتين.

كانـت بيفـرلي تمسـح الطـرف الآخـر مـن البـار عندمـا ناداهـا، والسـاندويتش معلـق أمـام فمـه.

سألته: "ما الخطب؟".

- لا شيء.. بعد. تعالي هنا.

اقتربت ووقفت في مواجهته.

قـال: "مـن واقـع خـبرتي، ثمانـون في المائـة مـن المـرات التـي طلبـت فيهـا هامبرجـر غـير تـام النضـج كـما فعلـت للتـوِّ، حصلـت عـلى واحـدٍ تـام النضـج. لا أعـرف لمـاذا لا يسـتطيع أغلـب الطهـاة إعـداد هامبرجـر

بالطريقـة الصحيحـة، لكـن هـذا مـا يحـدث. وهـل تعرفـين مـاذا أفعـل عندمـا أحصـل عـلى برجـر مطهـو أكـثر مـن الـلازم؟".

لم يبدُ عليها الاستمتاع وهي تقول: "تعيده؟".

- بالضبط.

- أنت شخص من الصعب إرضاؤه إلى حدٍّ لعين، أتعرف ذلك؟

- أعرف ذلك.

قالها وغاص بأسنانه في الساندويتش.

مضغ لمدة عشر ثوان كاملة.

تساءلت بيفرلي: "حسنًا؟".

أعـاد إيثـان السـاندويتش إلى طبقـه، وابتلـع مـا مضغـه وهـو يمسـح يديـه في المنديـل الكتـاني.

أشار إلى البرجر وقال: "هذا عمل رائع".

ضحكت بيفرلي، ودارت بحدقتيها في عينيها.

***

قبـل أن ينهـي إيثـان آخـر فتفوتـة في طبقـه، كان قـد أصبـح الزبـون الأخـير الباقـي في المطعـم.

رفعت النادلة طبقه ثم عادت لتعيد ملء كوبه بالماء.

- ستكون بخير الليلة يا إيثان؟ لديك مكان تبيت فيه؟

- نعـم، تملقـت بمعسـول الـكلام موظفـة الاسـتقبال في الفنـدق كي تدعنـي أحصـل عـلى غرفـة.

تكلّفت بيفرلي الابتسام، وقالت: "صدَّقتْ قصتك الهرائية أيضًا، هه؟".

- على الفور.
- حسنًا، بما أن هذا على حسابي، هل يمكنني أن أقدم لك تحلية؟ حلوى الشيكولاتة لدينا استثنائية وستأكل أصابعك وراءها.
- أشكرك، لكن ربما ينبغي لي أن أنصرف الآن.
- ماذا تفعل هنا بالضبط؟ أقصد بصفتك الرسمية. سأتفهم إن لم يكن في استطاعتك الحديث عن ذلك...
- إنه تحقيق حول اختفاء أشخاص.
- من اختفى؟
- عميلان في الخدمة السرية.
- اختفيا هنا؟ في وايوارد باينز؟
- منذ نحو شهر، أتى إلى هنا العميل بيل إيفانز والعميلة كيت هيوسون في تحقيق سري. لم يسمع أحد عنهما خبرًا منذ عشرة أيام حتى هذا المساء. فقد اتصال كامل، لا بريد إلكتروني، ولا اتصال بالهاتف. حتى شريحة التتبُّع الخاصة بنظام تحديد المواقع في سيارتهما الرسمية صارت معتمة.
- وأرسلوك لتجدهما؟
- كنت أعمل مع كيت، كنا شريكين في العمل عندما كانت تعيش في سياتل.
- هل هذا هو كل شيء؟
- عذرًا؟
- **مجرد** شريكين؟

أحسَّ برعشة شيء ما -حزن، فقد، غضب- تتذبذب بداخله.

لكنه أخفى ذلك جيدًا.

- نعم، كنا مجرد شريكين. صديقين أيضًا رغم ذلك. على أي حالٍ، أنا هنا لأقتفي أثرهما، لأعرف ما حدث، لأعود بهما إلى الديار.

- هل تعتقد أن شيئًا ما قد حدث؟

لم يرد، فقط حدق إليها، لكن نظرته كانت ردًّا.

- حسنًا، أتمنى أن تجد ما تبحث عنه يا إيثان.

أخرجت بيفرلي شيكًا من الجيب الأمامي في مئزرها ومرَّرته له عبر البار.

- إذن هذا ما تكبدته، هه؟

ألقى إيثان نظرة على الشيك، لم تكن فاتورة مفصَّلة، كانت بيفرلي قد كتبت عنوانًا بعرض أعمدة الفاتورة:

604 الجادة الأولى

تساءل إيثان: "ما هذا؟".

- هذا عنواني، حيث أعيش، لو احتجت إلى شيء، لو قابلتك مشكلة، أيًّا كان...

- ماذا؟ هل قلقتِ عليَّ الآن؟

- لا، لكن بلا مالٍ ولا هاتف ولا بطاقة هوية، أنت في وضعٍ هشٍّ.

- إذن تصدقينني الآن؟

مدَّت بيفرلي يدها عبر البار، وتركت يدها تستقر على يده لحظة واحدة فقط، وقالت:

- لطالما صدقتك.. دائمًا.

***

خارج الحانة، خلع حذاءه، وبدأ السير على الرصيف بقدمين حافيتين. كانت الخرسانة باردة، لكن على الأقل يمكنه السير دون ألمٍ.

بدلًا من العودة إلى الفندق، تتبَّع أحد الشوارع التي تقاطعت مع الشارع الرئيسي وتوجه إلى داخل منطقة سكنية.

كان يفكر في كيت.

اصطفت المنازل الفيكتورية الطراز على جانبي المربع السكني، وقد تحددت خطوطها الخارجية بوهج مصابيح شرفاتها الأمامية.

كان الصمت مدهشًا.

لا ترى ليالي مثل هذه أبدًا في سياتل.

كان هناك دائمًا ذلك النواح النائي لسيارة إسعاف أو آلة تنبيه سيارة ما أو وشيش سقوط المطر على الشوارع.

أما هنا، لم يكن يقطع السكون التام الميت إلا صفع قدميه الواهي للرصيف...

مهلًا.

لا، كان هناك صوت آخر - صرصور ليل وحيد يزقزق بصريره في شجيرة بالجوار.

أعاده ذلك إلى طفولته في تينيسي وتلك الأمسيات في منتصف أكتوبر جالسًا في الشرفة الأمامية المطوقة بالزجاج بينما والده يدخن

غليونه، محدقًا عبر حقول فول الصويا حيث تقلصت جوقة صراصير الليل إلى صرصور وحيد.

ألم يكتب الشاعر كارل ساندبيرج عن هذا الشيء ذاته؟ لم يتمكَّن إيثان من تذكُّر القصيدة حرفيًّا، تذكر فقط أنه كان بها شيء عن صوت صرصور الليل الأخير من خلال الصقيع.

شظية من غناء.

تلك هي، كانت تلك هي العبارة التي أحبها.

شظية من غناء.

توقف إلى جوار الشجيرة، ولديه نصف توقع بأن يتوقف الصرير فجأة، لكنه استمر بإيقاعٍ شديد الثبات حتى بدا آليًا تقريبًا. تحك الصراصير أجنحتها ببعضها كي تصنع ذلك الصوت، كان قد قرأ هذا في مكان ما.

نظر إيثان إلى الشجيرة.

نوع ما من العرعر.

رائحة قوية عبقة.

ألقى عمود نور قريب بقعة معقولة من الإضاءة على الغصون، ومال كي يرى إن كان في استطاعته أن يلمح الصرصور.

استمر الصرير بلا هوادة.

- أين أنت أيها الصغير؟

أمال رأسه.

كان الآن يدقق النظر في شيء برز بالكاد مدسوسًا بين الغصون، لكنه لم يكن الصرصور، بل علبة من نوع ما، تقريبًا في حجم جهاز الآيفون الخاص به.

مدَّ يده عبر الغصون ولمس وجهها.

صار الصرير أنعم.

أبعد يده.

علا الصوت أكثر.

ما معنى هذا بحق الجحيم؟

كان صرير الصرصور ينبعث من مكبر صوت.

***

كانت الساعة العاشرة والنصف تقريبًا عندما فتح باب غرفته بالفندق وخطا داخلًا. ألقى حذاءه وتعرى تمامًا وصعد إلى السرير دون أن يكلف نفسه حتى عناء أن يضيء الأنوار.

كان قد وارب إحدى النوافذ قبل أن يخرج للعشاء، واستطاع أن يشعر بنسيم عليل بارد يهب على صدره، مزيحًا التراكم الخانق من حرارة ذلك اليوم.

خلال دقيقة واحدة، شعر بالبرد.

اعتدل في جلسته، وسحب الأغطية والملاءة، وزحف تحتها.

***

يقاتل من أجل حياته، يخسر، يشتد هياج المخلوق الذي يعتليه وهو يحاول أن يمزق حلقه، الشيء الوحيد الذي يبقي إيثان حيًّا هو القبضة الطاحنة التي يخنق بها رقبة الوحش -معتصرًا إياها أكثر وأكثر- لكن هذا الشيء لديه قوة وحشية خالصة. يمكنه الشعور بتموجات العضلات القاسية بينما تغوص أصابعه في الجلد الشفاف

الواهـي. لكنـه لا يسـتطيع إيقافـه، تبـدأ عضـلات ذراعيـه في التشـنج وتميـل ذراعـاه إلى الـوراء بينـما يقـترب الوجـه والأسـنان أكـثر...

***

انتفـض إيثـان ناهضًـا في السريـر، وهـو يقطـر عرقًـا، ويشـهق ملتقطًـا أنفاسـه، وقلبـه يتسـارع بشـدة حتـى بـدا أنـه لا ينبـض بقـدر مـا يرتجـف بثبـاتٍ في صـدره.

لم يعرف أين كان إلى أن رأى رسمة رعاة البقر ونار المخيم.

تغـيَّرت سـاعة المنبـه عـلى طاولـة الفـراش الجانبيـة إلى الثالثـة وسـبع عـشرة دقيقـة.

أضاء المصباح، وحدق إلى الهاتف.

اثنان... صفر... ستة...

اثنان... صفر... ستة...

كيـف مـن الممكـن ألا يتذكـر رقمـه هاتـف منزلـه الأرضي؟ أو حتـى هاتـف تيريـزا الخلـوي؟ كيـف أمكـن ذلـك؟

أدلى ساقيه من جانب السرير، ونهض وسار نحو النافذة.

أزاح الستائر قليلًا، ونظر إلى الشارع الهادئ بالأسفل.

بنايات مظلمة.

أرصفة خاوية.

فكر: **غدًا سيكون أفضل.**

سيسـترد هاتفـه ومحفظتـه ومسدسـه وحقيبـة أوراقـه، سـيتصل بزوجتـه وابنـه، سـيتصل بسـياتل ويتحـدث إلى هاسـلر العميـل الخـاص المسـؤول. سـيعود إلى التحقيـق الـذي أتى بـه إلى هنـا في الأسـاس.

3

استيقظ على صداع ونور الشمس يتدفق داخلًا غرفته عبر فجوة في الستائر.

تقلَّب، وحملق في المنبه.

- اللعنة.

الثانية عشرة وواحد وعشرون دقيقة.

لقد نام حتى تجاوز الوقت الظُّهر.

زحف إيثان نازلًا من السرير، وعندما مدَّ يده ليتناول بنطاله -المتكوم على الأرضية- كان أحدهم يطرق بابه منذ فترة، وأدرك على الفور لأول مرة أن الدق البعيد لم يكن منحصرًا في رأسه فقط.

- مستر بيرك! مستر بيرك!

ليزا، موظفة الاستقبال، تصيح عبر بابه.

هتـف: "لحظـة واحـدة!" جـذب بنطالـه عـلى سـاقيه وسـار متعـثرًا نحـو البـاب. فتـح المـزلاج والسلسـلة وجـذب البـاب ليفتحـه.

تساءل إيثان: "نعم؟".

- الدفع والمغادرة في الحادية عشرة.

- آسف، أنا...

- ماذا حدث لـ "أول شيء"؟

- لم أدرك...

- هل تمكنت من استعادة محفظتك؟

- لا، لقـد اسـتيقظت الآن تـوًا. هـل تجـاوزت السـاعة الثانيـة عـشرة فعـلًا؟

لم تُجِب، واكتفت بالحملقة إليه غاضبة.

قال: "سأذهب إلى مكتب المأمور على الفور وبمجرد أن أحصل...".

- يجب أن أستعيد مفتاحك، ويجب أن تخلي الغرفة.

- أن ماذا؟

- تخلي الغرفة، اخرج، لا أحب أن يستغلني أحد يا مستر بيرك.

- لا أحد يستغلك.

- أنا منتظرة.

تمعَّـن إيثـان في وجههـا بحثًـا عـن شيء مـا -رقـة، شـقوق في عزمهـا- لكنـه لم يجـد ذرة مـن عطـف.

- دعيني فقط أرتدي ملابسي.

بدأ يغلق الباب، لكنها وضعت قدمها على العتبة.

"أوه، تريدين مراقبتي؟ فعلًا؟" وتراجع إلى داخل الغرفة، "لا بأس، استمتعي بالعرض".

وهو ما حدث. وقفت في مدخل الباب تراقبه وهو يربط حذاءه على قدميه العاريتين، ويغلق أزرار قميصه الأبيض المبقع، ويجاهد في دقيقتين من العذاب كي يعقد ربطة عنقه.

عندما انزلقت ذراعاه أخيرًا داخل السترة السوداء، جذب مفتاح الغرفة من فوق الطاولة بجوار السرير وألقاه في راحتها المفتوحة في طريق خروجه.

قال وهو يقطع الممر نحو السلم: "ستندمين على هذا بشدة خلال ساعتين".

***

في الصيدلية عند ناصية الشارع الرئيسي والشارع الخامس، جذب إيثان زجاجة أسبرين من فوق الرف وحملها إلى ماكينة النقود.

قال وهو يضعها على النضد: "لا يمكنني أن أدفع ثمن هذه، لكني أعد أني سأعود إلى هنا ومعي محفظتي خلال ثلاثين دقيقة، إنها قصة طويلة، لكن عندي صداع جهنمي، ولا بد أن أتناول شيئًا فورًا".

كان الصيدلي ذو المعطف الأبيض منغمسًا في ملء روشتة، وهو يحصي حبوب دواء في صينية بلاستيكية، خفض ذقنه ونظر إلى إيثان من فوق نظارته ذات الإطار الفضي المربع.

- ماذا تطلب مني بالضبط؟

كان الصيـدلي رجـلًا أصلـع يبـدو أكـبر سـنًّا مـن عمـره الـذي ناهـز الأربعـين، شـاحبًا، نحيـلًا، لـه عينـان واسـعتان بُنيتـان بدتـا أكـبر حجـمًا مـن خـلال عدسـات نظارتـه السـميكة.

- أن تساعدني. أنا... أتألم حقًّا.

- إذن فلتذهـب إلى المستشـفى، أنـا أديـر صيدليـة وليـس محـل رهونـات.

ومضـة مـن ازدواج الرؤيـة صدمـت إيثـان لكـسر مـن الثانيـة، وأحـس بـأن هـذا النبـض الفظيـع بـادئ في التلـوي مـن جديـدٍ عنـد قاعـدة رقبتـه، وكل نبـض يرسـل موجـة مـن ألم صاعـق في عمـوده الفقـري.

لم يتذكر كيف غادر الصيدلية.

مـا يذكـره بعـد ذلـك أنـه كان يمـشي متعـثرًا عـلى الرصيـف في الشـارع الرئيـسي.

كان شـعوره يـزداد سـوءًا مـع الوقـت، وتسـاءل إن كان ينبغـي لـه أن يعـود إلى المستشـفى، لكـن هـذا كان آخـر شيء يريـده. احتـاج فقـط إلى بعـض المُسـكِّن اللعـين، شيء يخفـف الألم حتـى يتمكَّـن مـن تسـيير أمـوره.

توقـف إيثـان عنـد معـبر المشـاة التـالي. حـاول أن يعيـد توجيـه نفسـه إلى الاتجـاه الـلازم للذهـاب إلى مكتـب المأمـور عندمـا تذكـر. انزلقـت يـده في جيـب سـترته الداخـلي، وأخـرج قصاصـة الـورق وفضَّهـا.

_604_ الجادة الأولى

كان مـترددًا؛ أيطـرق بـاب هـذه الغريبـة عنـه تمامًـا ويطلـب الـدواء؟ مـن ناحيـة أخـرى هـو لا يريـد الذهـاب إلى المستشـفى، ولا يسـتطيع الظهـور في مكتـب المأمـور بهـذه الحالـة مـن آلام الصـداع الـذي يصيـب عقلـه بالكسـاح. كان يخطـط لتوبيخـه، ويمـضي هـذا عـادةً عـلى نحـو

أفضـل عندمـا لا تكـون مغلوبًـا برغبـة في الزحـف والتقوقـع في وضـع جنينـي داخـل غرفـة مظلمـة.

ماذا كان اسمها؟

هذا صحيح.. بيفرلي.

ربمـا هـي مـن أغلقـت المحـل ليلـة الأمـس، وهـو مـا يعنـي أن هنـاك احتـمالًا لا بـأس بـه أن تكـون في البيـت الآن. اللعنـة، هـي مـن عرضـت. يمكنـه أن يمـرَّ عليهـا، يسـتعير بعـض الحبـوب، يجعـل صداعـه تحـت السـيطرة قبـل أن يتوجـه إلى مكتـب المأمـور.

عـبر الطريـق، وظـل في الشـارع الرئيـسي إلى أن وصـل إلى الجـادة التاسـعة، وبعـد ذلـك انعطـف حـول المربـع السـكني وتوجـه شرقًـا.

كانت الشوارع تتقاطع مع الشارع الرئيسي.

والجادات تتوازى معه.

تصور أن أمامه سبعة مربعات سكنية عليه أن يسير بجوارها.

بعـد المربـع الثالـث، بـدأ يحـس بقدميـه تتقرحـان، لكنـه لم يتوقـف. كان هـذا مؤلمًـا، لكنـه إلهـاء مرحـب بـه عـن الطحـن في رأسـه.

شـغلت المدرسـة مربعًـا سـكنيًا كامـلًا في البلـدة بـين الجادتـين الخامسـة والرابعـة، وعـرج بمـوازاة سـياج مـن الأسـلاك أحـاط بملعب.

كانـت سـاعة الراحـة لفصـل مـن أطفـال في الثامنـة أو التاسـعة مـن العمـر، انخرطـوا بجديـة في لعبـة (ثبِّـت)، حيـث تطـارد فتـاة ذات ضفائـر شـقراء كل مـن تقـع عليهـم عيناهـا بينـما يـتردد صـدى الصرخـات بـين الأبنيـة الحجريـة.

راقـب إيثـان لعبهـم محـاولًا ألا يفكـر في الـدم الـذي بـدأ يتجمـع في حذائـه، والـبرد بـين أصابعـه.

توقفـت ذات الضفائـر الشـقراء فجـأة وسـط مجموعـة مـن الأطفـال وحدَّقـت في إيثـان.

للحظـة، اسـتمر بقيـة الأطفـال في الجـري والـصراخ، لكنهـم تدزيجيًّـا توقفـوا أيضًـا بعـد أن لاحظـوا أولًا أن مطارِدتهـم لم تعـد تجـري وراءهـم، وبعـد ذلـك لاحظـوا مـا اسـترعى انتباههـا.

واحـدًا بعـد واحـدٍ التفـت كل طفـل وحـدَّق في إيثـان.. بتعبـيرات جامـدة كان يمكنـه أن يقسـم بأنهـا احتـوت عنـصرًا مـا مـن العدائيـة المقنَّعـة بقنـاعٍ خفيـفٍ.

ابتسم رغم ألمه، ولوَّح لهم تلويحة صغيرة.

- أهلًا يا أطفال.

لم يـرد طفـل واحـد منهـم تلويحتـه أو يسـتجب بـأي طريقـة، وقفـوا فقـط متجمديـن في أماكنهـم مثـل مجموعـة مـن التماثيـل الصغـيرة، فقـط اسـتدارت رؤوسـهم وهـم يراقبونـه حتـى غـاب عـن أبصارهـم وراء ناصيـة صالـة الألعـاب الرياضيـة.

"أوغـاد صغـار غريبـو الأطـوار!" تمتـم إيثـان في سره عندمـا تعـالى صوت ضحكهـم وصراخهـم مـن جديـد، بعـد أن عـادوا للعب.

في الجانـب الآخـر مـن الجـادة الرابعـة، حـثَّ الخطـى رغـم ازديـاد حدة الألم في قدميـه، لكنـه قاومـه مفكـرًا: **فقـط فلتصـل إلى هنـاك. اضغـط عـلى أسـنانك وتحملـه حتـى تصـل إلى هناك.**

تجـاوز الجـادة الثالثـة الآن، وهـو يهـرول. بـدأت ضلوعـه توجعـه مـن جديـد. مـرَّ بسلسـلة مـن المنـازل التـي بـدت أكـثر تداعيًـا. تسـاءل: أهـذه هـي الناحيـة البائسـة مـن وايـوارد باينـز؟ هـل يمكـن لهـذه البلـدة أن تكـون بهـا ناحيـة بائسـة؟

عند الجادة الأولى توقف.

تحـوَّل الطريـق إلى تـراب، بُـلي حصـاه منـذ زمـنٍ بعيـدٍ وانطمسـت هيئتـه بشـدة. لم تكـن هنـاك أرصفـة للمـشي ولا طريـق بعد هـذا الطريق. كان قـد وصـل إلى الحافـة الشرقيـة لوايـوارد بايـنز، وخلـف المنـازل التـي اصطفَّـت في هـذا الشـارع وصلـت الحضـارة إلى نهايـة مباغتـة. ارتفـع تـلٌّ منحـدر، امتـلأ بغابـة مـن أشـجار الصنوبـر، عـدة مئـات مـن الأقـدام حتـى قاعـدة تلـك الحلقـة الجبليـة التـي طوَّقـت البلـدة.

عرج إيثان سائرًا في منتصف الطريق الترابي الخالي.

كان بمقـدوره سـماع الطيـور تزقـزق في الغابـة القريبـة، ولا شيء آخـر. في عزلـة تامـة عـن أي صخـبٍ بسـيطٍ يمكـن أن يجتمـع لـدى وسـط البلـدة.

مـرَّ بصناديـق بريـد كانـت تبـدأ بالفعـل برقـم خمسـمئة، شـاعرًا بـأول بصيـصٍ مـن الارتيـاح، بعـد أن عـرف أن بيـت بيفـرلي سـيكون في المربـع السـكني التـالي.

كان الـدوار يهـدِّده مـن جديـدٍ، حيـث تجتاحـه موجـات -رقيقـة حتـى الآن- منـه.

ظهر التقاطع التالي خاليًا تمامًا.

لا يوجد مخلوق في الخارج.

ثمـة ريـحٌ دافئـة تنزلـق هابطـة مـن الجبـل أرسـلت دوامـات صغـيرة مـن الـتراب في الشـارع.

هـا هـو ذا، رقـم 604، المنـزل الثـاني عـلى اليمـين. اسـتطاع أن يتبـيَّن هذا مـن البطاقـة الفولاذيـة الصغـيرة التـي ثُبِّتـت فيـما تبقـى مـن صنـدوق البريـد، الـذي تغطـى كلـه بالصـدأ فيـما عـدا الثقـوب المسـنَّنة الفاغـرة. انبعثـت مـن الداخـل زقزقـة هادئـة، حسـبها للحظـة مكـبر صـوت آخـر، لكنـه لمـح عندئـذٍ جنـاح الطائـر الـذي عشَّـش في الصنـدوق.

تطلَّع إلى المنزل ذاته.

لعلَّـه في زمـن مـضى كان منـزلًا جميـلًا مـن طابقـين عـلى الطـراز الفيكتـوري، لـه سـقف شـديد الانحـدار وشرفـة أماميـة بهـا أرجوحـة وممـرٌّ حجـري يـؤدي عـبر الفنـاء الأمامـي إلى المدخـل.

زال الطـلاء تدريجيًّـا منـذ زمـن بعيـد، حتـى وهـو واقـف في الشـارع، كان بمقـدور إيثـان أن يـرى كيـف لم تتبـقَّ حتـى نقطـة واحـدة منـه. اسـتحالت الألـواح التـي مـا زالـت متصلـة بالهيـكل المتداعـي إلى اللـون الأبيـض بفعـل الشـمس، وأغلبهـا في المراحـل النهائيـة مـن التفـكك بفعـل التعفـن. لم تبـقَ شـظية واحـدة مـن زجـاج النوافـذ.

أخـرج الورقـة التـي تبقَّـت مـن عشـاء الليلـة الماضيـة مـن جيبـه وراجـع العنـوان مـرة أخـرى. كان الخـط واضحًـا ***604*** **- الجـادة الأولى**- لكـن ربمـا بدلَّـت بيفـرلي مواضـع الأرقـام، أو كتبـت "جـادة" بـدلًا مـن "شـارع".

شـقَّ إيثـان طريقـه وسـط الحشـائش التـي ارتفعـت حتـى خـصره والتـي احتلـت الفنـاء الأمامـي، لم تظهـر إلا لمحـات مـن الممـشى الحجـري عـبر الحشـائش الناميـة.

بـدت الدرجتـان المؤديتـان إلى الشرفـة الأماميـة المغطـاة كأنهـما دخلتـا مـن قبـل في ماكينـة لتقطيـع الخشـب، تخطاهـما ووضـع قدميـه عـلى لـوح في الأرضيـة، نـدَّ عـن ثقلـه فوقـه صريـرٌ يصـم الآذان.

- بيفرلي؟

عَـبَرَ الشرفـة الأماميـة بحـذرٍ، واجتـاز المدخـل الخـالي مـن الأبـواب، ونـادى باسـمها مـرة أخـرى. اسـتطاع أن يسـمع الريـح تندفـع في أرجـاء المنـزل، وهيكلـه الخشـبي يـئنُّ. بعـد ثـلاث خطـوات داخـل غرفـة المعيشـة، توقـف. رقـدت النوابـض لتصـدأ عـلى الأرضيـة وسـط الهيـكل المتداعـي لأريكـة عتيقـة. نهضـت طاولـة قهـوة مغطـاة بأنسـجة العنكبـوت، وأسـفلها صفحـات مـن مجلـة مـا، مخضلـة ومتعفنـة حتـى ليسـتحيل التعـرُّف عليهـا.

لا يمكـن أن تكـون بيفـرلي قـد أرادت منـه أن يـأتي إلى هنـا، ولا حتـى كمزحـة، لا بـد أنهـا كتبـت عرَضًـا وبطريـق الخطـأ...

جعلتـه الرائحـة يرفـع رأسـه عاليًـا، أخـذ خطـوة مـترددة إلى الأمـام، مراوغًـا ثلاثـة مسـامير بـرزت مـن لـوح في الأرضيـة.

تشمَّم الهواء مرة أخرى.

هبَّـت لفحـة أخـرى منهـا عندمـا هـزَّت هبَّـة ريـح المنـزل، وعـلى الفـور دفـن أنفـه في ثنيـة ذراعـه. تحـرَّك إلى الأمـام، مـارًّا بنصـف دَرَج، إلى داخـل رواق ضيـق امتـدَّ بـين المطبـخ وغرفـة الطعـام حيـث هبـط شـلال مـن الضـوء عـلى البقايـا المتشـظية للمـكان الـذي سـحق فيـه السـقف مائـدة الطعـام.

تابـع الحركـة متلمسًـا طريقـه عـبر حقـل ألغـام مـن الألـواح الفاسـدة والحفـر الظاهـرة التـي فغـرت فاهـا حتـى أرض القبـو أسـفل المنـزل.

غطـى الصـدأ كل سـطح معـدني كأنـه فطـر -الثلاجـة، الحـوض، الموقـد- وذكَّـره هـذا المـكان بالمسـاكن القديمـة التـي كان يتعـثَّر فيها هـو وأصدقاؤه في رحـلات استكشـافهم الصيفيـة داخـل الغابـات خلـف مزارعهـم؛ حظائـر وكبائـن مهجـورة، أسـقف مليئـة بالثقـوب التـي توهجـت الشـمس عبرهـا في أنابيـب مـن الضـوء. وجـد ذات مـرة صحيفـة عمرهـا خمسـون عامًـا داخـل مكتـب قديـم تعلـن انتخـاب رئيـس جديـد، وأراد أن يأخذهـا إلى البيـت ويُريهـا لوالديـه، لكنهـا كانـت هشَّـة للغايـة حتـى إنهـا تفتتـت في يديـه.

لم يغامـر إيثـان باستنشـاق نفَـسٍ واحـدٍ عـبر أنفـه طـوال أكـثر مـن دقيقـة، ومـع ذلـك كان بمقـدوره أن يجـزم بـأن الرائحـة النتنـة تـزداد قـوة. أَقسـم أن بمقـدوره تذوقهـا في زوايـا فمـه، وإن حدتهـا الخالصـة -الأسـوأ مـن النشـادر- اسـتدرَّت الدمـوع مـن عينيـه.

صار الطرف القصي من الرواق مظلمًا؛ حيث ما زال محميًا تحت سقف يقطر ماء منذ آخر وابل من المطر أيًّا كان زمن هطوله.

كان الباب عند نهاية الصالة مغلقًا.

نفض إيثان الدموع من عينيه ومدَّ يده نحو مقبض الباب، لكنه لم يجده.

وكز الباب بحذائه ليفتحه.

صرَّت المفصلات.

ارتطم الباب بالحائط وخطا إيثان خطوة عبر العتبة.

تمامًا مثل ذكرياته عن تلك المساكن القديمة، اندفعت طلقات من الضوء عبر الثقوب في الحائط البعيد، لتومض منعكسة من متاهة أنسجة العناكب، قبل أن تضرب قطعة الأثاث الوحيدة في الحجرة.

كان الهيكل المعدني ما زال قائمًا، وعبر الحطام الهيولي للحشية، استطاع أن يرى نوابض السرير كأنها أفاعٍ نحاسية ملتفة.

لم يكن قد سمع الذباب حتى الآن، لأنه كان محتشدًا داخل فم الرجل؛ مدينة من الذباب، صوت أزيزهم الجماعي أشبه بمحرك خارجي صغير.

لقد رأى ما هو أسوأ في الحرب، لكنه لم يشم ما هو أسوأ.

ظهر البياض في كل مكان -عظام الرسغ والكاحل، التي قُيِّدت إلى لوح رأس السرير والهيكل الحديدي في الناحية الأخرى. وفي الجزء الذي انكشف من ساقه اليمنى، بدا اللحم ممزقًا تقريبًا. وكان التكوين الداخلي للجانب الأيسر من وجه الرجل مكشوفًا، حتى جذور أسنانه. انتفخت بطنه أيضًا- استطاع إيثان أن يرى تورمها من تحت البدلة الممزقة، التي كانت سوداء وذات صف واحد من الأزرار.

مثل بدلته تمامًا.

ورغم أن الوجه كان حطامًا، إلا أن طول الشعر ولونه كانا مضبوطين.

وكان الطول متوافقًا أيضًا.

ترنَّح إيثان متراجعًا واستند إلى إطار الباب.

اللعنة يا إلهي!

إنه العميل إيفانز.

***

خرج إيثان عائدًا إلى الشرفة الأمامية في البيت المهجور، وانحنى مستندًا بيديه إلى ركبتيه، واستنشق أنفاسًا عميقة نافذة عبر أنفه ليتطهر من الرائحة، لكنها لم تفارقه؛ لقد انزرعت رائحة الموت النتنة تلك في تجويفه الأنفي، وانطبعت كلدغة حادة عفنة في مؤخرة حلقه.

خلع سترته وفكَّ أزرار قميصه، وتحرَّر بصعوبة من الأكمام. كانت الرائحة النتنة في أنسجة ثيابه الآن.

بلا قميصٍ تحرك عبر فوضى الحشائش التي كانت فيما مضى فناء أماميًّا ووصل أخيرًا إلى الطريق الترابي.

كان بمقدوره أن يحس ببرودة الجلد المهترئ في عقبيه والنبض العميق في جمجمته، لكن الألم كان قد فَقَدَ حدته لصالح الأدرينالين الخالص.

انطلق في خطوة قوية عبر منتصف الشارع، والأفكار تتسابق في ذهنه. كان قد أحسَّ بإغراء تفتيش جيوب سترة وبنطال الرجل الميت، ليرى إن كانت بحوزته محفظة أو بطاقة هوية ما، لكن الحركة الذكية هي تأجيل ذلك. هي عدم لمس أي شيء. فليهبط على تلك

الحجـرة الأشـخاص ذوو القفـازات المطاطيـة والكمامـات وكل أداة جنائيـة حديثـة يمكـن تصورهـا.

ما زال غير قادر على استيعاب الأمر.

لقد قُتِل عميل فيدرالي في هذه الجنة الصغيرة.

لم يكـن طبيبًـا شرعيًّـا، لكنـه شـعر بيقـين أن مـا حـدث لوجـه إيفـان لم يكـن بفعـل التعفـن فقـط، ثمـة تجويـف مصنـوع عمـدًا في جـزء مـن جمجمتـه، أسـنان مخلوعـة، إحـدى عينيـه مفقـودة.

لقد عُذِّب أيضًا.

بـدا أن المربعـات السـكنية السـتة مـرَّت عليـه مـرور الريـح، وبعـد ذلـك كان يهـرول عـلى الرصيـف متوجهًـا إلى مدخـل مكتـب المأمـور.

تـرك سـترته وقميصـه خارجًـا عـلى دكـة خشـبية وجـذب أحـد الأبـواب المزدوجـة ليفتحـه.

كانـت قاعـة الاسـتقبال غرفـة مكسـوة بالألـواح الخشـبية والسـجاد البُنـي ورؤوس الحيوانـات المحنطـة التـي عُلِّقـت عـلى كل قطعـة متاحـة مـن أعمـدة المـكان.

عـلى المكتـب الأمامـي امـرأة تخطَّـت السـتين ذات شـعر فـضي طويـل تلعـب (سـوليتير) بـأوراق لعـب حقيقيـة، حملـت لوحـة الاسـم الهرميـة عـلى مكتبهـا اسـم "بليـنـدا مـوران".

وقـف إيثـان عنـد حافـة مكتبهـا وراقبهـا وهـي تضـع أربـع أوراق لعـب أخـرى قبـل أن تنتـزع نفسـها أخـيرًا مـن اللعـب.

"هـل يمكننـي أن أسـاعد.." واتسـعت عيناهـا، نظـرت إليـه مـن رأسـه إلى قدميـه، وهـي تُجعـد أنفهـا إزاء مـا حسـبه رائحة النـتن البشـعة للتحلل البـشري التـي لا بـد أنهـا انبعثـت منـه. قالـت: "أنـت لا ترتـدي قميصًـا..".

- أنا العميل الخاص بجهاز الخدمة السرية الأمريكي إيثان بيرك جئت هنا لأقابل المأمور، ما اسمه؟

- من؟

- المأمور.

- أوه، بوب، المأمور آرنولد بوب.

- هل هو بالداخل يا بليندا؟

بدلًا من أن تجيب عن سؤاله، رفعت هاتفها ذا القرص الدوار واتصلت بخط داخلي من ثلاثة أرقام: "أهلًا آرني، هنا رجل يريد أن يقابلك. يقول إنه عميل سري أو ما شابه".

- عميل خاص لدى...

رفعت سبابتها، وتابعت: "لا أعرف يا آرني، هو لا يرتدي قميصًا، وهو.." واستدارت مبتعدة عن إيثان بمقعدها الدوار، وهمست: "يفوح برائحة سيئة، سيئة فعلًا... حسنًا، حسنًا، سأخبره".

دارت بمقعدها لتواجهه من جديد، وأعادت السماعة مكانها.

- سيكون المأمور بوب معك بعد قليلٍ.

- يجب أن أقابله حالًا.

- أفهم ذلك، يمكنك الانتظار هناك.

وأشارت إلى مجموعة مقاعد في ركنٍ قريبٍ.

تردد إيثان للحظة، ثم استدار أخيرًا وتوجه نحو مساحة الانتظار. من الحكمة أن يحافظ على تحضُّره في هذا اللقاء الأول. من واقع خبرته، يتخذ أفراد سلطة تطبيق القانون المحليون موقفًا دفاعيًّا بل وعدائيًّا عندما يلقي العملاء الفيدراليون بثقلهم منذ البداية. في ضوء ما وجده في ذلك المنزل المهجور، سيعمل مع هذا الشخص في

المستقبل المنظور؛ من الأفضل أن يبدأ بيدٍ ممدودة في ودٍّ بدلًا من أن يبدأ برفع الإصبع الوسطى.

استرخى إيثان جالسًا على واحد من المقاعد المُنجَّدة في مساحة الانتظار.

كان قد تعرق في سيره المهرول، لكن الآن بعد أن عاد نبض قلبه إلى معدله الطبيعي، بدأت طبقة العرق على جلده العاري تُشعره بالبرودة مع هبوب تيار التهوية المركزية من فتحة فوق رأسه.

لم يكن هناك الكثير من مواد القراءة الحديثة على الطاولة الصغيرة أمام مقعده، مجرد القليل من الأعداد القديمة لمجلتيْ ناشيونال جرافيك وبوبيولار ساينس.

مال إلى الوراء في مقعده وأغلق عينيه.

عاوده الألم في رأسه، وتصاعدت حدة كل نبضة بدرجة صغيرة لا يمكن ملاحظتها إلا بعد مرور عدة دقائق. كان بمقدوره فعليًّا أن يسمع دق صداعه في الصمت التام لمكتب المأمور، حيث لم يكن هناك من صوت إلا رفيف أوراق اللعب.

سمع بليندا تقول: "مرحى!".

فتح عينيه في اللحظة المناسبة ليراها تضع ورقة اللعب الأخيرة، بعد أن فازت بشوطها، جمعت الأوراق وخلطتها وبدأت من جديد.

مرّت خمس دقائق أخرى.

وعشر دقائق أخرى.

أنهت بليندا الشوط وبدأت تخلط مجموعة الأوراق مرة أخرى عندما لاحظ إيثان أولى أمارات الانزعاج: رفة في عينه اليسرى.

كان الألم ما زال يتزايد وقد انتظر الآن، حسب تقديره، خمس عشرة دقيقة، طوال هذه الفترة من الزمن، لم يرن الهاتف مرة واحدة، ولم يدخل مخلوق آخر المبنى.

أغلق عينيه، وبدأ العد من ستين وهو يدلِّك صدغيه. عندما فتحهما مرة أخرى، كان ما زال جالسًا هناك بلا قميص وبردانًا، وكانت بليندا ما زالت تقلب أوراق لعبها، ولم يأت المأمور بعد.

نهض إيثان، وقاوم نوبة من الدوار لمدة عشر ثوان، قبل أن يضبط توازنه أخيرًا. عاد إلى مكتب الاستقبال وانتظر حتى رفعت بليندا عينيها إليه.

وضعت خمس أوراق لعب قبل أن توليه اهتمامًا.

- نعم؟

- آسف على إزعاجك، لكني منتظر منذ عشرين دقيقة الآن.

- المأمور مشغول فعلًا اليوم.

- أنا واثق من هذا، لكن يجب أن أتحدث معه حالًا. والآن يمكنك إما أن تهاتفيه مرة أخرى وتخبريه أني اكتفيت من الانتظار، وإما سأدخل بنفسي و...

رنَّ هاتفها المكتبي.

أجابت: "نعم؟ ... حسنًا، سأفعل بالتأكيد"، أعادت السماعة مكانها وابتسمت لإيثان: "يمكنك الدخول الآن على الرحب والسعة، اقطع هذا الرواق، مكتبه وراء الباب الموجود في نهاية الرواق تمامًا".

***

دقَّ إيثان على الباب أسفل لوحة الاسم.

صاح صوت عميق من الناحية الأخرى: "نعم!".

أدار المقبض، ودفع الباب ليفتحه، وخطا إلى الداخل.

كانت أرضية المكتب من خشب صلب أسود وبه آثار حك عميقة. على يسار إيثان، عُلِّق رأس ظبي ضخم على الجدار المقابل لمكتب خشن كبير. وراء المكتب قامت ثلاثة خزائن سلاح عتيقة ممتلئة بالبنادق الكبيرة وبنادق الصيد والمسدسات وما حسبه صناديق كافية من الذخيرة لإعدام كل سكان هذه البلدة الصغيرة أكثر من ثلاث مرات.

اضطجع رجل يكبره بعشر سنوات في مقعد جلدي، رافعًا قدميه المنتعلتين حذاء راعي بقر على المكتب. له شعر أشقر مموج ربما سيغدو أبيض خلال عقد من الزمان، ونمت على فكه شعيرات بيضاء تساوي عشرة أيام بلا حلاقة.

بنطال من الكتان البُني الداكن.

قميص بكمين طويلين وأزرار مغلقة.. أخضر داكن.

التمعت نجمة المأمور تحت الأضواء، بدت كأنها من نحاس صلب، محفورة بطريقة معقدة، ومنقوش في وسطها حرفا (و.ب) باللون الأسود.

عندما اقترب من المكتب، ظنَّ إيثان أنه رأى ابتسامة متكلِّفة تفلت من المأمور.

- إيثان بيرك، جهار الخدمة السرية.

مدَّ يده عبر المكتب، وتردد المأمور، كأنه يقيم نقاشًا داخليًّا حول إن كان يشعر بالاستعداد للحركة، أخيرًا أنزل قدميه عن المكتب ومال إلى الأمام في مقعده.

"آرنولد بوب"، وتصافحا.. "تفضَّل بالجلوس يا إيثان".

استراح إيثان على أحد المقاعد الخشبية ذات الظهر المستقيم.

تساءل بوب: "كيف حالك؟".

- صرت أفضل حالًا.

"أراهن على ذلك.. وربما كنت أفضل رائحة أيضًا" وومضت على شفتيه ابتسامة صفراء. "لقد تعرضتَ لحادثة قاسية منذ بضعة أيام، مأساة".

- نعم، وكنت آمل أن أعرف بعض التفاصيل الأخرى عن ذلك.. من صدمنا؟

- يقول شهود العيان إنها كانت شاحنة مقطورة.

- هل السائق في الحبس؟ هل وُجهت إليه التهمة؟

- هذا لو استطعتُ العثور عليه.

- تقصد أنها كانت حادثة تصادم وهروب؟

أومأ بوب برأسه وقال: "فرَّ الوغد خارج البلدة بعد أن حطَّم جنب سيارتك، وفرَّ قبل وقت طويل من وصولي إلى مسرح الحادث".

- ولم يسجل أحد رقم اللوحة أو أي شيء؟

هزَّ بوب رأسه، ورفع شيئًا ما من فوق المكتب؛ كرة شفافة ذات قاعدة ذهبية، صارت الأبنية المصغرة تحت القبة الزجاجية عالقة في دوامة من الثلج عندما نقل الكرة جيئة وذهابًا بين يديه.

تساءل إيثان: "وما الجهود المبذولة لتحديد موقع هذه الشاحنة؟".

- لدينا فريق عمل يقوم باللازم.

- فعلًا؟

- يمكنك أن تراهن على ذلك.

- أود رؤية العميل ستولينجز.
- جثته محفوظة في المشرحة.
- وأين هي؟
- في قبو المستشفى.

فجـأة جـاء خاطـر عـلى بـال إيثـان، هكـذا بـلا مقدمـات، كأن أحـدًا همـس لـه بـه في أذنـه.

تساءل إيثان: "هل يمكنني أن أستعير ورقة؟".

فتـح بـوب درجًـا ونـزع ورقـة ملاحظـات لاصقـة مـن أعـلى رزمـة وناولهـا لإيثـان مـع قلـم. نهـض إيثـان بسرعـة مـن مقعـده ووضـع الورقـة عـلى سـطح المكتـب وخـط بسرعـة الرقـم.

قـال إيثـان وهـو يضـع الورقـة في جيبـه: "فهمـت أن متعلقـاتي في حوزتـك".

- أي متعلقات؟
- هاتفي الخلوي ومسدسي ومحفظتي وحقيبة أوراقي...
- من أخبرك أن لديَّ هذه الأشياء؟
- ممرضة في المستشفى.
- لا أعرف من أين أتت بهذه الفكرة.
- مهلًا. إذن متعلقاتي ليست لديك؟
- لا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

حـدَّق إيثـان إلى بـوب مـن وراء المكتـب: "هـل مـن الممكـن أن تكـون مـا زالـت في السـيارة؟".

- أي سيارة؟

جاهـد كي يحافـظ عـلى نـبرة صوتـه هادئـة: "السـيارة التـي صدمتهـا المقطـورة بينـما كنـت فيهـا".

- أظنـه مـن الممكـن، لكنـي واثـق إلى حـدٍّ كبـيرٍ أن مسـعفي الطوارئ أخذوا أشـياءك.

- يا إلهي!

- ماذا؟

- لا شيء، هـل تمانـع في أن أقـوم بإجـراء بعـض المكالمـات الهاتفيـة قبـل أن أرحـل؟ لم أتحـدث إلى زوجتـي منـذ أيـام.

- أنا تحدثت إليها.

- متى؟

- في يوم الحادث.

- هل هي قادمة؟

- لا فكرة لديَّ، أعلمتها فقط بما جرى.

- أحتاج أيضًا إلى الاتصال برئيسي في العمل...

- من يكون؟

- آدم هاسلر.

- هو من أرسلك إلى هنا؟

- هذا صحيح.

- وهـل أمـرك أيضًـا ألا تكلِّـف نفسـك عنـاء الاتصـال بي مقدمًـا لإعلامـي بـأن العمـلاء الفيدراليـين سـيقتحمون عالمـي؟ أم كان هـذا كلـه بوحـي مـن قـرارك؟

- هل تعتقد أن عليَّ واجب أن...

- اللياقة يا إيثان، اللياقة، لكن ربما لكونك عميلًا فيدراليًا لست معتادًا هذا المفهوم...

- كنت سأتصل بك في النهاية يا مستر بوب، لم تكن هناك نية لإقصائك عن دائرة البحث.

- أوه، حسنًا، في هذه الحالة..

تردد إيثان، أراد أن يكون واضحًا، أن يوصل المعلومات التي يريد أن ينقلها دون أي كلمة زائدة، لكن رأسه كانت تقتله ألمًا وهدَّده ازدواج الرؤية بأن يَقسم أمامه المأمور إلى وغدين.

- أُرسلتُ إلى هنا للعثور على عميلين في جهاز الخدمة السرية.

ارتفع حاجبا بوب: "مفقودان؟".

- منذ أحد عشر يومًا الآن.

- وماذا كانا يفعلان في وايوارد باينز؟

- لم أُزوَّد بمختصر تفصيلي حول تحقيقهما، رغم أني أعرف أنه يتعلق بديفيد بيلتشر.

- يبدو هذا الاسم مألوفًا على نحو غامض، من يكون؟

- يظهر دائمًا في قوائم أغنى الرجال في العالم، واحد من هؤلاء المليارديرات المنعزلين، لا يتحدث أبدًا إلى الصحافة، يمتلك حزمة من شركات المستحضرات الصيدلانية الحيوية.

- وهل له علاقة بوايوارد باينز؟

- مرة أخرى لا أعرف هذا، لكن إذا أتى عملاء الخدمة السرية إلى هنا، فربما كان هناك تحقيق ما يتضمن جريمة مالية، هذا كل ما أعرفه.

نهض بوب فجأة. استطاع إيثان أن يحدس بأنه رجل ضخم وهو جالس خلف المكتب، لكن عندما وقف على قدميه، رأى إيثان أنه أقل طولًا بوصة أو بوصتين من ستة أقدام ونصف.

- يمكنك استخدام الهاتف في حجرة الاجتماعات أيها العميل بيرك على الرحب والسعة.

لم يتحرك إيثان من مقعده.

- لم أنتهِ من كل شيء أيها المأمور.

- حجرة الاجتماعات من هنا.

دار بوب حول مكتبه، وتحرك نحو الباب: "وربما ترتدي قميصًا في المرة القادمة؟ مجرد اقتراح".

كان الدق في رأس إيثان قد أصبح مصطبغًا بالغضب.

- هل تود أن تعرف لماذا لا أرتدي قميصًا أيها المأمور؟

- ليس ضروريًّا.

- واحد من العميلين اللذين جئت للبحث عنهما يتحلَّل في منزل على مبعدة ستة مربعات سكنية من هنا.

توقف بوب عند الباب، وظهره لإيثان.

قال إيثان: "وجدته للتوِّ قبل أن آتي إلى هنا".

التفت بوب وحملق في إيثان.

- أوضح لي أكثر ما تعنيه بـ "وجدته للتوِّ".

- ليلة أمس، أعطتني نادلة في بيرجارتن عنوانها في حالة إذا ما احتجت إلى شيء، استيقظت هذا الصباح مصابًا بصداعٍ رهيبٍ، وبلا نقودٍ، طُردت من غرفتي في الفندق. ذهبت إلى منزلها

كي أحصل على بعض الدواء لصداعي، غير أن العنوان الذي أعطتني إياه كان خاطئًا أو شيئًا من هذا القبيل.

- ما هو العنوان؟

- 604 الجادة الأولى، تبيَّن أنه منزل قديم مهجور، أطلال منزل، وقد قُيد العميل إيفانز إلى فراش في إحدى الحجرات.

- هل أنت واثق بأنه الرجل الذي جئت للبحث عنه؟

- واثق بنسبة ثمانين في المائة؛ تعرَّض لقدرٍ كبيرٍ من التحلل وعانى وجهه صدمة شديدة القوة.

اختفى العبوس الذي حافظ عليه المأمور منذ دخل إيثان مكتبه، وبدأت ملامحه تلين، سار نحو إيثان وجلس على المقعد الخالي بجواره.

- أعتذر لك أيها العميل بيرك، أبقيتك منتظرًا في الاستقبال. غضبت لأنك لم تتصل قبل أن تأتي إلى البلدة، وحسنًا، أنت على حقٍّ، لم يكن هناك واجب إلزامي. كان مزاجي سيئًا -وهذا أحد عيوبي الكثيرة- وكان سلوكي غير مقبول.

- اعتذار مقبول.

- لقد مررتَ ببضعة أيام صعبة.

- فعلًا.

- اذهب وقم بمكالماتك الهاتفية وسنتكلم عندما تنتهي.

***

ازدحمت حجرة الاجتماعات بمنضدة طويلة، ولم يعُد بها غير حيِّز بين المقاعد والجدار يكفي إيثان بالكاد كي يشقَّ طريقه نحو الهاتف ذي القرص الدوار في آخرها.

أخرج ورقة الملاحظات اللاصقة من جيبه، ورفع السماعة.

نغمة اتصال.

أدار الرقم.

رنَّ الهاتف في الطرف الآخر.

تسلَّلت شمس الأصيل بين الستائر وضربت قشرة المائدة الخشبية المصقولة بنصال من ضوء يغشي الأعين.

قال بعد ثلاث رنات: "هيا يا حبيبتي ارفعي السماعة".

بعد الرنة الخامسة، تحوَّل الخط إلى جهاز الرد الآلي.

صوت تيريزا: "أهلًا، معك آل بيرك، نعتذر لأننا لسنا هنا لتلقي مكالمتك... إلا إذا كنت بالطبع مندوب تسويق عبر الهاتف... في هذه الحالة سنكون سعداء بتفويت مكالمتك، وربما نحن في الحقيقة نتملص منها ونشجعك على نسيان هذا الرقم. في غير ذلك، اترك رسالتك بعد الصافرة".

"تيريزا، إنه أنا، يا إلهي، أشعر كأني لم أسمع صوتك منذ سنوات، أظن أنك تعرفين بتعرضي لحادث سيارة هنا. لا يبدو أن أحدًا يستطيع أن يجد هاتفي، لذا إن كنتِ تحاولين الاتصال فأنا آسف. أنا مقيم في فندق وايوارد باينز، الغرفة رقم مائتين وستة وعشرين. يمكنك محاولة الاتصال بمكتب المأمور أيضًا. آمل أن تكوني أنت وبِن بخيرٍ. أنا بخيرٍ. ما زلت موجوعًا بعض الشيء، لكني أتحسَّن. من فضلك اتصلي بي في الفندق الليلة، سأحاول الاتصال بك مرة أخرى، أحبك يا تيريزا.. كثيرًا جدًّا".

أعـاد السـماعة مكانهـا، وجلـس هنـاك لحظـة يحـاول أن يسـتحضر رقـم هاتـف زوجتـه الخلـوي، توصـل إلى أول سـبعة أرقـام لكـن بقيـت الثلاثـة الأخـيرة محاطـة بالغمـوض.

تذكـر رقـم مكتـب سـياتل الميـداني عـلى الفـور، أدار الرقـم، وبعـد ثـلاث رنـات، أجابـت امـرأة لم يميـز إيثـان صوتهـا:

- الخدمة السرية.
- أهـلًا، معـك إيثـان بـيرك. أحتـاج إلى الحديـث مـع آدم هاسـلر مـن فضلك .
- ليس متاحًا حاليًا، هل هناك شيء يمكنني مساعدتك به؟
- لا، أحتاج إلى الحديث معه فعلًا. هل هو خارج المكتب اليوم؟
- ليس متاحًا حاليًا، هل هناك شيء يمكنني مساعدتك به؟
- مـاذا لـو حاولـت الاتصـال بـه عـلى هاتفـه الخلـوي؟ هـل يمكـن أن أحصـل عـلى الرقـم مـن فضلـك؟
- أوه، أخشى أنه من غير المسموح لي أن أقدم هذه المعلومة.
- هل تفهمين من أكون؟ **العميل** إيثان بيرك؟
- هل هناك شيء **يمكنني** مساعدتك به؟
- ما اسمك؟
- مارسي.
- أنت جديدة، صحيح؟
- هذا يومي الثالث.

- اسـمعي، أنـا موجـود في وايـوارد باينـز، آيداهـو، في مـأزق خـرائي. ائتِـي بهاسـلر عـلى الهاتـف فـورًا، لا يهمنـي مـا يفعـل، لـو كان في اجتـماع... لـو كان يقـوم بـأي خـراء... أوصليـه بالهاتـف اللعـين.

- أوه، آسفة.

- ماذا؟

- لـن أتمكـن مـن الاسـتمرار في هـذه المحادثـة معـك وأنـت تتحـدث بهـذه الطريقـة.

- مارسي؟

- نعم؟

- أعتــذر، أنــا آســف لأني رفعــت صــوتي عليــك، لكــن يجــب أن أتحــدث إلى هاســلر؛ الأمــر عاجــل.

- يسعدني أن أنقل إليه رسالة لو شئت.

أغلق إيثان عينيه.

كان يكزُّ على ضروسه ليمنع نفسه من الصراخ عبر الهاتف.

- قـولي لـه أن يتصـل بالعميـل إيثـان بـيرك في مكتـب مأمـور وايـوارد باينـز، أو فنـدق وايـوارد باينـز في الغرفـة مائتـين وسـتة وعشريـن. عليـه أن يفعـل ذلـك في اللحظـة التـي يتلقـى فيهـا الرسـالة، العميـل إيفانـز مـات، هـل تفهمينـي؟

- سأبلغه الرسالة!

قالتها مارسي بابتهاجٍ، وأغلقت الخط.

أبعد إيثان السماعة عن وجهه وضرب بها المنضدة خمس مرات.

وبينـما كان يعيـد السـماعة مكانهـا، لاحـظ المأمـور بـوب واقفًـا في مدخـل حجـرة الاجتماعـات.

- هل كل شيء بخيرٍ يا إيثان؟

- نعـم، إنـه... فقـط مشـكلة صغـيرة في الوصـول إلى العميـل الـسري المسـؤول.

دخـل بـوب وأغلـق البـاب، جلـس عنـد طـرف المنضـدة في مواجهـة إيثـان.

تساءل بوب: "قلتَ إن هناك عميلين مفقودين؟".

- هذا صحيح.

- احكِ لي عن العميل الثاني.

- اسـمها كيـت هيوسـون، كانـت تعمـل مـن مكتـب بويـسي الميداني، وقبـل ذلك في سـياتل.

- هل عرفتها هناك؟

- كنّا شريكين.

- إذن فقد نُقلت؟

- نعم.

- وأتت كيت هنا مع العميل...

- بيل إيفانز.

- في هذا التحقيق شديد السرية.

- صحيح.

- أود المساعدة، هل ترغب في مساعدتي؟

- طبعًا يا آرنولد.

- حسنًا، دعنا نبدأ بالأساسيات، كيف تبدو كيت؟

مال إيثان إلى الوراء في مقعده.

كيت.

كان قد درَّب نفسه طوال العام الماضي ألا يفكر فيها حتى إنه استغرق لحظة كي يستعيد وجهها، الذي بدت ذكراه أشبه بفتح جرح كان قد بدأ يبرأ للتوِّ.

- طولها نحو خمسة أقدام وبوصتين أو ثلاث. وزنها مائة وخمسة أرطال.

- فتاة صغيرة الحجم، هه؟

- أفضل ضابطة عرفتها على الأفل. آخر مرة رأيتها كان شعرها بنيًّا قصيراً، لكن ربما طال. عينان زرقاوان.. جميلتان بشكل فريد.

(يا إلهي، ما زال بمقدوره أن يستشعر نكهتها).

- أي علامات مميزة؟

- نعم، فعلًا، لديها وحمة خفيفة على خدها، في حجم عملة الخمس سنتات بلون القهوة بالحليب.

- سأوزع المعلومات على مندوبيَّ، وربما حتى أجعلهم يرسمون بورتريهًا سريعًا لها كي نوزعه.

- سيكون هذا عظيمًا.

- لماذا قلتَ إن كيت نُقلت من سياتل؟

- لم أقل.

- حسنًا، هل تعرف؟

- سَرت إشـاعة بـأن الأمـر لـه علاقـة بنـوعٍ مـا مـن إعـادة التنظيـم الداخـلي. أود أن أرى السـيارة.

- السيارة؟

- السـيارة اللنكولـن السـوداء التـي كنـت أقودهـا عندمـا وقعـت الحادثـة.

- أوه، طبعًا.

- أين يمكنني أن أجدها؟

- توجد ساحة خردة على أطراف البلدة.

ثم نهض المأمور وقال: "أين كان ذلك العنوان مرة أخرى؟".

- 604 الجادة الأولى، سأوصلك.

- لا حاجة إلى ذلك.

- أريد أن أفعل ذلك.

- وأنا لا أريدك أن تفعل ذلك.

- لماذا؟

- هل كان هناك أي شيء آخر تحتاج إليه؟

- أود أن أعرف نتائج تحقيقك.

- تعال غدًا بعد الغداء، سنرى إلى أين وصلنا.

- وهل ستأخذني إلى ساحة الخردة لأرى السيارة؟

- أعتقـد أنـه في إمكاننـا إنجـاز ذلـك، لكـن الآن، هيـا بنـا، سـأوصلك إلى الخـارج.

***

بـدت رائحـة سـترة وقميـص إيثـان أفضـل قليـلًا وهـو يـدس ذراعيـه في الأكـمام ويسـير في الشـارع مبتعـدًا عـن مكتـب مأمـور وايـوارد باينـز. كانـت الرائحـة الكريهـة مـا زالـت تفـوح منـه، لكنـه تصـور أن رائحـة التعفـن المزعجـة سـتجذب انتباهًـا أقـل مـن رجـل يسـير في البلـدة بـلا شيء غـير بنطـال بدلـة.

سـار بقـدر مـا اسـتطاع مـن خطـوة قويـة، لكـن الـدوار ظـل ينتابـه في موجـات، وضجَّـت رأسـه بـالألم، كل خطـوة تبعـث دوامـات جديـدة مـن العـذاب إلى أبعـد أجـزاء جمجمتـه.

كانـت حانـة بيرجارتـن مفتوحـة وخاليـة إلا مـن نـادل يبـدو عليـه السـأم في جلسـته عـلى مقعـد خلـف البـار يقـرأ روايـة في طبعـة شـعبية؛ واحـد مـن الكتـب الأولى لفرانسـيس بـول ويلسـون.[1]

عندما وصل إيثان إلى البار قال: "هل ستعمل بيفرلي الليلة؟".

رفع الرجل سبابته.

مرَّت الثواني حتى انتهى من قراءة فقرة.

أخيرًا أغلق الكتاب، ومنح إيثان كامل انتباهه.

- ماذا يمكنني أن أقدمه لك من شراب؟

- لا شيء، أبحـث عـن المـرأة التـي كانـت تقـدم الـشراب في البـار ليلـة أمـس. اسـمها كان بيفـرلي، سـمراء جميلـة، في منتصـف الثلاثينيـات، طويلـة إلى حـدٍّ مـا.

نـزل النـادل مـن مقعـده ووضـع الكتـاب عـلى البـار، كان شـعره الطويـل الرمـادي في لـون مـاء غسـيل الأطبـاق الموحـل، وقـد جذبـه إلى الـوراء وجعلـه ذيـل حصـان.

---

(1) كاتب وروائي وكاتب خيال علمي أمريكي، ولد في جيرسي سيتي عام 1946. (المترجم)

- كنتَ هنا؟ في هذا المطعم؟ ليلة الأمس؟
- مضبوط.
- وتخبرني أن سمراء طويلة كانت تقدم الشراب في البار؟
- بالضبط، وكان اسمها بيفرلي.

هزَّ الرجل رأسه، ولمح إيثان نفحة من تهكم في ابتسامته.

- هناك شخصان في كشف المرتبات هنا يخدمان في البار، شخص اسمه ستيف، وأنا.
- لا، خدمتني هذه المرأة ليلة الأمس، أكلتُ برجر، وجلست هناك تمامًا.

وأشار إيثان إلى المقعد عند ركن البار.

- لا تأخذ هذا على محمل سيئ يا صاحبي، لكن كم شربت؟
- لا شيء. أنا لست صاحبك، أنا عميل فيدرالي، وأعرف أني كنت هنا ليلة أمس، وأعرف من خدمني.
- آسف يا رجل، لا أعرف ماذا أقول لك. أعتقد أنك لا بد كنت في مطعم آخر.
- لا، أنا...

فجأة فَقَدَ إيثان تركيزه.

ضغط بأطراف أصابعه على صدغيه.

كان بمقدوره الآن أن يشعر بنبضه في شريانه الصدغي، وكل نبضة تحمل حزمة من تلك الأوجاع الباردة في الرأس التي كانت تنتابه وهو طفل؛ ذلك الألم الشديد العابر الذي كان يتبع أي قضمة بالغة الجشع من المصاصة أو الآيس كريم.

- سيدي؟ سيدي، هل أنت بخيرٍ؟

ترنَّح إيثان متراجعًا عن البار، واستطاع أن يقول: "كانت هنا، أعرف ذلك. لا أعرف لماذا تفعل...".

ثم وجد نفسه واقفًا في الخارج، ويداه على ركبتيه، منحنيًا فوق بركة من القيء على الرصيف سرعان ما خمَّن أنها قادمة منه، وحلقه يحترق من المرارة.

اعتدل إيثان، ومسح فمه في كم سترته.

كانت الشمس قد سقطت بالفعل خلف المنحدرات، وهبطت برودة المساء على البلدة.

ثمة أشياء يتوجب عليه فعلها: أن يجد بيفرلي، أن يجد مسعفي الطوارئ، وأن يستعيد متعلقاته الشخصية، لكن كل ما أراده أن يتكوم في الفراش في غرفة مظلمة، وينام حتى يتخلص من الألم، الحيرة، وذلك الشعور الأساسي الكامن في كل هذا والذي كان يزداد حدة أكثر وأكثر بشكلٍ من الصعب تجاهله.

الرعب.

ذلك الإحساس القوي بأن شيئًا ما خاطئ جدًّا، جدًّا.

***

صعد الدرجات الحجرية متعثرًا ومرق عبر الأبواب إلى الفندق.

بعثت المدفأة بنارها دفئًا في البهو.

شغل زوجان شابان أحد المقاعد المزدوجة قرب المدفأة، يرتشفان من كأسين يلتمع فيهما النبيذ. حدس أنهما في إجازة رومانسية، يستمتعان بجانبٍ مختلفٍ تمامًا من وايوارد باينز.

جلس رجل يرتدي بدلة توكسيدو إلى البيانو الكبير يعزف موسيقى أغنية: "فلتنظر دائمًا إلى الجانب المشرق من الحياة".

وصل إيثان مكتب الاستقبال، مجبراً نفسه على الابتسام رغم الألم.

نفس الموظفة التي طردته من غرفته ذلك الصباح بدأت في الكلام حتى قبل أن ترفع عينيها:

- مرحبًا بك في فندق وايوارد باينز. كيف يمكنني مساعدتـ..

توقفت عندما رأت إيثان.

- أهلًا ليزا.

- أنا متأثرة.

- متأثرة؟

- لقد عدتَ كي تدفع، قلتَ إنك ستفعلها، لكني بأمانة لم أعتقد أني سأراك مرة أخرى أبدًا. أعتذر عن...

- لا، اسمعي، لم أتمكّن من العثور على محفظتي اليوم.

- تقصد أنك لم تعُد كي تدفع ثمن غرفتك ليلة الأمس؟ مثلما وعدتني أنك ستفعل مرات عديدة؟

أغلق إيثان عينيه، متنفسًا عبر الألم الحاد.

- ليزا، لا يمكنك أن تتخيلي ما مررت به اليوم، أنا فقط في حاجة إلى أن أتمدد بضع ساعات، لست حتى في حاجة إلى غرفة لقضاء الليل كله، مجرد مكان كي أصفي ذهني وأنام، أنا في حالة رهيبة من الألم.

- لحظة واحدة.

وانزلقت من فوق مقعدها ثم مالت نحوه عبر النضد، قائلة: "ما زلت لا تستطيع الدفع وتطلب مني الآن غرفة أخرى؟".

- ليس لديَّ مكان آخر أذهب إليه.

- لقد كذبتَ عليَّ.

- أنا آسف، اعتقدت فعلًا أني سأحصل عليها قبل...

- هل تفهم أني قمت بمخاطرة من أجلك؟ أني من الممكن أن أفقد وظيفتي؟ مكتبة سُر مَن قرأ

- أنا آسف، لم أقصد...

- امضِ.

- عذرًا؟

- ألم تسمعني؟

- لا أملك مكانًا أذهب إليه يا ليزا، لا أملك هاتفًا، لا أملك مالًا، لم آكل منذ ليلة الأمس، و...

- فسِّر لي مرة أخرى كيف يمكن لأي من هذا أن يمثِّل مشكلة لي.

- أنا فقط في حاجة إلى أن أتمدد بضع ساعات، أتوسل إليكِ.

- اسمع، لقد أوضحت هذا لك بقدر ما يمكنني من وضوحٍ، وقد حان وقت رحيلك.

لم يتحرك إيثان، اكتفى بالتحديق إليها، آملًا أن ترى الألم في عينيه، أن تشعر بالشفقة.

قالت: "الآن..".

رفع يديه علامة استسلام، وتراجع مبتعدًا عن النضد.

عندما وصل الأبواب، هتفت ليزا من ورائه: "لا أريد أن أراك تعود إلى هنا مرة أخرى أبدًا".

كاد إيثان يسقط في أثناء نزوله الدرجات الحجرية، وقبل أن يصل إلى الرصيف كانت رأسه تدور حول نفسها. بدأت أعمدة النور في الشارع وأضواء السيارات المارة تُدوِّم حوله، ولاحظ إيثان أن ساقيه تخوران كأنما أحد جذب سدادة صرف تسرَّبت عبرها قواه.

رغم ذلك انطلق في سيره على الرصيف، ورأى ذلك المبنى المشيَّد بالطوب الأحمر يلوح في نهاية الشارع، على مبعدة ثمانية مربعات سكنية. كان ما زال هناك خوف منه، لكنه في حاجة الآن إلى المستشفى؛ أراد الفراش، النوم، المسعفين.. أي شيء يوقف هذا الألم.

إما أن يذهب إلى المستشفى وإما ينام في الخارج؛ في زقاق، أو متنزه، معرضًا لتقلبات الجو وعناصر الطبيعة.

لكن أمامه ثمانية مربعات سكنية، وهذا بعيد جدًّا، حيث تتطلَّب كل خطوة الآن قدرًا طاحنًا من الطاقة، وكانت الأضواء تتفكك من حوله في كل مكان، ذيول طويلة مدوِّمة تزداد حدة، ووضوحًا، تُشوش رؤيته كما لو أنه لا يستطيع رؤية العالم إلا كلقطة طويلة لمدينة في الليل، وأضواء السيارات تمتد لتغدو قضبانًا من الألق، وأعمدة الإضاءة تحترق كأنها مواقد لحام.

اصطدم بشخصٍ ما.

دفعه رجل قائلًا: "هل تقود بنفس الطريقة؟".

في التقاطع التالي، توقف إيثان، متشككًا في قدرته على العبور.

تراجع متعثرًا وجلس بعنفٍ على الرصيف مستندًا إلى بناية ما.

لقد أصبح الشارع مزدحمًا، لم يستطع أن يرى شيئًا بوضوح، لكنه استطاع أن يسمع وقع خطى تتحرك على الرصيف الخرساني ونُتفًا من حوار عابر.

فَقَدَ كل إحساس بالزمن.

لعلَّه كان يحلم.

ثم وجد نفسه راقدًا على جنبه فوق الخرسانة الباردة، وشعر بأنفاس أحدهم، بصوته قرب وجهه.

تناهت إلى سمعه كلمات ما، رغم أنه لم يستطع أن يجمعها في أي ترتيب له معنى.

فتح عينيه.

كان الليل قد حلَّ.

وكان يرتعش.

ركعت امرأة بجواره، وشعر بيديها تمسكان كتفيه، كانت تهزه، متحدثة إليه:

- سيدي، هل أنت بخيرٍ؟ هل يمكنك أن تسمعني؟ سيدي؟ هل يمكنك أن تنظر إليَّ وتخبرني ما الخطب؟

صوت رجل: "إنه سكران".

- لا يا هارولد، إنه مريض.

حاول إيثان أن يتبين ملامح وجهها، لكن كل ما حوله كان مظلمًا ومشوشًا، وكل ما استطاع أن يراه هو أعمدة الإضاءة تلك وهي تسطع مثل شموس صغيرة في الناحية الأخرى من الطريق وخط الضوء العابر من سيارة مارة.

"رأسي يؤلمنـي.." قالهـا بصـوتٍ بـدا أضعـف بكثـيرٍ وأكـثر امتـلاءً بالخوف والألم مـن أن يكـون صوتـه: "أنـا في حاجة إلى المسـاعدة".

أمســكت بيــده وقالــت لــه ألا يقلــق، ألا يخــاف، إن المســاعدة في الطريــق بالفعــل.

ورغـم أن اليـد التـي أمسـكت بيـده لم تكـن تخـص امـرأة شـابة بوضوح -بـشرة مشـدودة ونحيلـة للغايـة، مثـل الـورق القديـم- فإنـه كان هنـاك شيء أليـف جـدًا في الصـوت حتـى إنـه فطـر قلبـه.

4

استقلوا عبَّارة جزيرة باينبريدج من سياتل وتوجهوا شمالًا من شبه الجزيرة نحو بورت أنجلوس، في قافلة من أربع سيارات تحمل خمسة عشر من أصدقاء آل بيرك المقربين.

كانت تيريزا تأمل في قضاء يوم جميل، لكن الطقس كان باردًا، والمطر رماديًّا، توارت سلسلة الجبال الأوليمبية في الضباب، ولم يعُد هناك شيء ظاهر وراء ممر الطريق السريع الضيق.

لكن هذا لم يكن مهمًّا.

سيذهبون بغض النظر عن الطقس، وإذا لم يشأ أحد أن ينضم إليها، ستصعد هي وبِن وحدهما.

جلست صديقتها دارلا إلى عجلة القيادة، وجلست تيريزا في المقعد الخلفي ممسكة بيد ابنها البالغ من العمر سبعة أعوام وهي تحدق

عبر الزجاج الذي انثالت عليه حبات المطر بينما تمرُّ بهم الغابة المطيرة في خطوط مشوشة من الأخضر الداكن.

بعد بضعة أميال غرب البلدة على الطريق السريع 112، وصلوا بداية الدرب المؤدي إلى جبل سترايبد بيك.

كان الجو ما زال غائمًا، لكن المطر توقف.

انطلقوا في صمتٍ، سائرين بمحاذاة الماء، ولا صوت إلا أثر وقع خطاهم وهي تدب في الطين والضجة الرتيبة البعيدة لمصدات الأمواج.

ألقت تيريزا نظرة نحو خليج صغير بالأسفل عندما مرَّ الدرب أعلاه، لم يكن الماء بالزرقة التي تتذكرها، وألقت باللوم على غطاء الغيم الذي خنق اللون، دون أن تفكر في أن ذاكرتها يمكن أن تخذلها.

مرَّت المجموعة بمخابئ الحرب العالمية الثانية وتسلقوا عبر أيكات السرخس ومنها إلى الغابة.

الطحالب في كل مكان.

الأشجار ما زالت تقطر ماءً.

خصوبة حتى في أول الشتاء.

اقتربوا من القمة.

طوال هذا الوقت لم يتكلم أحد.

أحسَّت تيريزا بحَرَقان في ساقيها وصعدت في عينيها الدموع.

عندما وصلوا إلى القمة بدأ المطر، لم يكن ثقيلًا، مجرد قطرات قليلة سريعة تهب مائلة في الريح.

سارت تيريزا إلى مرج العشب.

كانت تبكي الآن.

في يوم صحو، كانت الرؤية لتمتد أميالًا، والبحر أسفلهم بألف قدم.

أما اليوم فالقمة منقوعة في الماء.

تداعت جالسة على العشب المخضل، ووضعت رأسها بين ركبتيها وبكت.

لم يكن هناك من صوت إلا طقطقة الرذاذ على قلنسوة معطفها، لا شيء آخر.

جلس بِن إلى جوارها فأحاطته بذراعها، وقالت: "قمت بتمشية جيدة يا صاحبي، كيف تشعر؟".

- بخير على ما أظن، هل هذه هي؟

- نعم، هذه هي، وكان في مقدورك أن ترى أبعد بكثيرٍ لولا الضباب.

- ماذا سنفعل الآن؟

مسحت عينيها، وأخذت نفسًا عميقًا مُرجفًا.

- سأقول الآن بعض الأشياء عن والدك. وربما سيفعل ذلك بعض الآخرين.

- هل عليَّ أن أفعل ذلك؟

- فقط لو أردت.

- لا أريد.

- لا بأس.

- لا يعني هذا أني لا أحبه.. ما زلت.

- أعرف هذا.

- هل كان ليرغب مني في الحديث عنه؟

- ليس إن كان هذا سيزعجك.

أغلقت تيريزا عينيها، واستغرقت لحظة لتستجمع نفسها.

جاهدت كي تنهض على قدميها.

تناثر أصدقاؤها حول شجيرات السرخس، وهم ينفخون في كفوفهم طلبًا للدفء.

كان البرد قارصًا على القمة، وهبّت ريح قوية دفعت شجيرات السرخس في موجات خضراء وابترد الهواء بما يكفي لأن يحيل أنفاسهم بخارًا.

نادت أصدقاءها ووقفوا جميعًا في كتلة ضد المطر والرياح.

حكت تيريزا قصة قيامها هي وإيثان برحلة إلى شبه الجزيرة بعد عدة شهور من بدء خروجهما معًا، أقاما في نُزُل في بورت أنجلوس، وعثرا في عصر يوم على رأس الدرب المؤدي إلى سترايبد بيك. وصلا القمة عند الغروب في مساء صحو هادئ، وبينما كانت تحدق عبر المضيق إلى المنظر الممتد إلى شمالي كندا، خرَّ إيثان على ركبة واحدة وطلب يدها.

كان قد اشترى خاتمًا لعبة من ماكينة بيع في متجر بقالة ذلك الصباح. قال إنه لم يكن يخطط لأي شيء كهذا، لكنه أدرك في هذه الرحلة أنه يريد أن يقضي بقية حياته معها. أخبرها أنه لم يكن في حياته أسعد قط من هذه اللحظة، وهما واقفان على قمة هذا الجبل والعالم ممتد أسفلهما.

قالت تيريزا: "لم أكن أخطط لأي شيء كهذا أيضًا، لكني قلت نعم، ولبثنا هنا وراقبنا الشمس وهي تغوص في البحر. لطالما تحدثنا أنا وإيثان عن العودة إلى هنا لقضاء عطلة نهاية أسبوع، لكنكم تعرفون

ما يقولونه عن الحياة وتدبير خطط أخرى. على أي حال، كانت لنا لحظاتنا المثالية..." وقبّلت رأس ابنها. "... ولحظاتنا غير المثالية أيضًا، لكني أعتقد أن إيثان لم يكن قط أسعد، ولا كان قط أكثر أملًا في المستقبل وراحة بال مما كان في ذلك الغروب على قمة هذا الجبل منذ ثلاثة عشر عامًا. كما تعرفون، فإن الظروف المحيطة باختفائه..." وقاومت عاصفة المشاعر التي كانت على أهبة الانتظار، دائمًا على أهبة الانتظار. "... حسنًا، ليس لدينا حقًّا جثة أو رماد أو أي شيء، لكن..." بابتسامة عبر الدموع. "أحضرتُ هذا" أخرجت خاتمًا بلاستيكيًّا قديمًا من جيبها، تقشَّر الطلاء الذهبي عن حلقته منذ زمن، بينما ما زال الفص الواهي يحمل منشور الزجاج الزمردي اللون. كان بعض الآخرين يبكون الآن أيضًا. "أحضر لي في النهاية خاتمًا ماسيًّا، لكن يبدو من المناسب -إن لم يكن من الأوفر- أن أحضر هذا". وأخرجت جاروف حديقة من حقيبة ظهرها المبتلة. "أريد أن أترك شيئًا قريبًا لإيثان هنا، وهذا يبدو مناسبًا.. بِن، هل تساعدني؟".

جثت تيريزا وأزاحت نبتات السرخس حتى رأت الأرض.

كانت مشبعة بالمطر، وشق الجاروف طريقه عبرها بسهولة. أخرجت عدة كتل من التراب وتركت بِن يفعل مثلها.

همست: "أحبك يا إيثان، وأفتقدك كثيراً".

ثم أسقطت الخاتم في القبر الضحل وغطّته بالتراب المنبوش وساوته بظهر الجاروف.

***

تلك الليلة، عندما عادوا إلى بيتهم في أعلى تلة كوين آن، أقامت تيريزا حفلًا.

ملأت البيت بالأصدقاء والمعارف وزملاء العمل والكثير من الخمر.

مجموعتهـما الأساسـية مـن الأصدقـاء -الذيـن صـاروا الآن مهنيـين مسـؤولين مدجنـين- وفيـما مـضى كانـوا مجانـين وميالـين إلى الإفـراط، تعهـدوا جميعًـا في رحلـة العـودة أن يسـكروا عـلى شرف إيثـان.

وأوفوا بعهدهم.

عبوا من الخمر عبًّا.

حكوا قصصًا عن إيثان.

ضحكوا وبكوا.

***

في العـاشرة والنصـف، كانـت تيريـزا واقفـة عـلى سـطح المنصة الخشـبية المطلـة عـلى الحديقـة الخلفيـة الصغـيرة في منزلهـم، وفي الأيـام الصافيـة القليلـة، تـرى خـط أفـق سـياتل والجـرم الأبيـض الهائـل لجبـل رينييـه إلى الجنـوب. أمـا الليلـة، فقـد تـوارت بنايـات وسـط البلـدة في الضبـاب، وتقلـص وجودهـا إلى شعشـعة سـطح الغيـم بوهـجٍ مـن النيـون.

مالـت تيريـزا إلى السـياج، وهـي تدخـن سـيجارة مـع دارلا -وهـو الـشيء الـذي لم تفعلـه منـذ أيـام سـكن الطالبـات في جامعتهـا- وتحتضـن بيدهـا كأسـها الخامسـة مـن جِـن G&T الليلـة. لم تكـن قـد شربـت هـذا القـدر منـذ زمـن، وعرفـت أنهـا سـتدفع ثمـن هـذا في الصبـاح، لكنهـا الآن كانـت تسـتمتع بهـذا الحشـو الجميـل الـذي حماهـا مـن حـواف الواقـع الحـادة - الأسـئلة التـي بـلا إجابـات، الخـوف الـذي كان معهـا دائمًـا، الـذي سـكن أحلامهـا.

قالت لدارلا: "ماذا لو لم تدفع شركة التأمين على الحياة بوليصته؟".

- ولماذا لن تفعل يا حبيبتي؟

- لا يوجد دليل على موته.

- هذا سخيف.

- سأضطر إلى بيع هذا المنزل.. لا يمكنني دفع الرهن العقاري اعتمادًا على مرتبي كمساعدة قانونية.

شعرت بذراع دارلا ينزلق بين ذراعيها، وهي تقول: "لا تفكري في ذلك الآن، اعرفي فقط أن لديكِ أصدقاءً يحبونك، لن يجعلوا أي شيء يحدث لك أو لبِن".

وضعت تيريزا كأسها الفارغة على السياج.

قالت: "لم يكن مثاليًا..".

- أعرف.

- لم يكن على الإطلاق، لكن الأخطاء التي ارتكبها، عندما يتعلق الأمر بها... كان يعترف بها. أحببته، دائمًا. حتى عندما اكتشفتُ الأمر أول مرة، عرفت أني سأسامحه. كان من الممكن أن يفعل ذلك مرة أخرى، والحقيقة أني كنت سأبقى.. كان **يمتلكني**، أتعرفين؟

- إذن تصالحتما تمامًا قبل أن يرحل؟

- نعم. أقصد، كانت ما زالت هناك فعلًا... مشاعر قاسية. ما فعله...

- أعرف.

- لكننا تخطينا الجزء الأسوأ من الأمر، كنا نذهب إلى استشارية، كنا سننجح.. والآن... أنا أم عزباء يا دي.

- هيا نُدخلك إلى الفراش يا تيريزا، لقد كان يومًا طويلًا، لا تلمسي شيئًا، سآتي في الصباح وأساعدك في التنظيف.

- لقد رحل منذ نحو خمسة عشر شهرًا، وكل يوم أستيقظ، وما زلت لا أصدق أن هذا يحدث فعلًا، أظل منتظرة أن يرن هاتفي، أن تأتي رسالة منه، يسألني بِن باستمرار متى سيعود بابا للبيت، يعرف الإجابة، لكن لديه نفس ما لديَّ من شعور... نفس السبب الذي يجعلني أتفقد هاتفي باستمرار.

- لماذا يا حبيبتي؟

- لأنه ربما هذه المرة سأجد فيه مكالمة فائتة من إيثان، لأنه ربما هذه المرة عندما يسألني بِن ستكون لديَّ إجابة مختلفة من أجله. سأخبره أن بابا سيعود إلى البيت من رحلته في الأسبوع القادم.

نادي أحدهم باسم تيريزا.

التفتت بحرصٍ، وقد أفقدها الشراب توازنها.

كان باركر، أحد الزملاء الشباب في الشركة القانونية التي تعمل بها، واقفًا عند عتبة الباب الزجاجي الجرَّار.

- ثمة شخص هنا يريد رؤيتك يا تيريزا.

- من يكون؟

- شخص اسمه هاسلر.

أحسَّت تيريزا برعشة في جوفها.

تساءلت دارلا: "ومن يكون؟".

- رئيس إيثان في العمل.. اللعنة، أنا سكرانة.

- هل تريدينني أن أخبره أنك لا تستطيعين...

- لا، أريد أن أتحدث معه.

تبعت تيريزا زميلها باركر إلى الداخل.

كان الجميـع في حالـة مزريـة، وسـقط كل مـن في الحفـل متداعيًـا أو نائمًـا.

جـين، زميلتهـا في السـكن مـن سـنتها الأولى في الكليـة، غابـت عـن الوعـي عـلى الأريكـة.

تجمَّـع عـدد مـن صديقاتهـا الأخريـات في المطبـخ حـول آيفـون إحداهـن، في حالـة سـكر شـديد وهـن يحاولـن الاتصـال بسـيارة أجـرة عـبر مكـبر الصـوت.

أمـا أختهـا مارجـي، الممتنعـة عـن تنـاول المسـكرات، وربمـا الشـخص البالـغ الوحيـد الواعـي في المنـزل، فقـد قبضـت عـلى ذراعهـا عندمـا مـرَّت بهـا وهمسـت لهـا أن بِـن نائـم في سـلام بالطابـق العلـوي في غرفتـه.

وقـف هاسـلر منتظـرًا في الردهـة مرتديًـا بدلـة سـوداء وربطـة عنـق سـوداء مفكوكـة قليـلًا، وتحـت عينيـه انتفاخـات جلديـة، تسـاءلت في نفسـها إن كان قـد أتى للتـوِّ مـن المكتـب.

قالت: "أهلًا آدم.."

تبادلا عناقًا سريعًا، وقبلة سريعة على الخد.

قـال هاسـلر: "آسـف لأني لم أسـتطع الحضـور مبكـرًا عـن ذلـك. لقـد كان... حسـنًا، كان يومًـا حافـلًا، لكنـي أردت أن أمـرَّ سريعًـا".

- هذا يعني الكثير، هل يمكنني أن آتي لك بشراب؟

- ستكون البيرة رائعة.

سـارت تيريـزا مترنحـة قليـلًا إلى البرميـل المعـدني نصـف الفـارغ مـن بـيرة (فـات تايـر)، ومـلأت كوبًـا بلاسـتيكيًا.

جلست مع آدم على الدرجة الثالثة من السلم.

قالـت: "أعتـذر لـك، أنـا سـكرانة قليـلًا، أردنـا أن نـودع إيثـان عـلى طريقـة الأيـام الخـوالي".

رشـف هاسـلر بيرتـه، كان أكـبر مـن إيثـان بعـام أو اثنـين. انبعثـت منـه رائحـة واهنـة مـن عطـر (أولـد سـبايس)، وكان مـا زال يقـصُّ شـعره بنفـس الطريقـة التـي يحافـظ عليهـا منـذ رأتـه أول مـرة في حفـل الكريسـماس الجماعـي، منـذ كل تلـك السـنين، يحلـق الجانبـين ومؤخـرة رأسـه تمامًـا ويـترك شـعر أعـلى رأسـه خفيفًـا. نمـت شـعيرات حمـراء قصـيرة عـلى فكّـه عمرهـا يـوم واحـد، تبيّنـت بـروز سـلاحه النـاري عـلى جانـب فخـذه.

تسـاءل هاسـلر: "أمـا زلـت تواجهـين مشـاكل مـع تأمـين إيثـان عـلى الحيـاة؟".

- نعـم إنهـم يتثاقلـون في الدفـع، أعتقـد أنهـم سـيجعلونني أقيـم دعـوى قضائيـة.
- إذا كان هـذا يناسـبك، أود أن أبـادر بالاتصـال بهـم الأسـبوع القادم؛ سـأرى إن أمكننـي أن أسـتخدم بعـض النفـوذ وأدفـع الأمـور إلى الحركـة.
- سأكون ممتنة لهذا حقًّا يا آدم.

لاحظـت أنهـا تتحـدث ببـطء وبحـرصٍ بالـغٍ في محاولـة لمنـع كلماتهـا مـن الاندغـام.

تسـاءل: "هـل سترسـلين إليّ بيانـات الاتصـال بمسـؤول التسـوية في شركـة التأمين؟".

- نعم.
- أريـدك أن تعـرفي يـا تيريـزا أن أول شيء يخطـر ببـالي كل يـوم هـو اكتشـاف مـا حـدث لإيثـان.. وسـأعرف.
- هل تعتقد أنه مات؟

سؤال لم تكن لتسأله قط لو كانت في وعيها.

سكت هاسلر هنيهة، مطرقًا ومحدقًا إلى البيرة ذات اللون الكهرماني.

أخيرًا قال: "إيثان... كان عميلًا عظيمًا، ربما الأفضل لديَّ، ليس هذا مجرد كلام".

- وتعتقد أننا كنا لنسمع من قبل الآن، وإلا...

- بالضبط، أنا آسف.

- لا، الأمر...

ناولها منديلًا بكت فيه لحظة قبل أن تمسح عينيها.

- عدم المعرفة... مسألة صعبة جدًّا، كنت أصلي كي يكون ما زال حيًّا، والآن أصلي فقط من أجل عودة جثمانه، شيء مادي يقدِّم لي إجابات، ويدعني أمضي في الحياة. هل يمكنني أن أطلب منك شيئًا يا آدم؟

- طبعًا.

- ماذا تعتقد **أنت** أنه حدث؟

- ربما الآن ليس بالوقت المناسب...

- من فضلك.

أنهى هاسلر كوب البيرة.

مضى نحو البرميل، وأعاد ملء كوبه، وعاد.

- دعينا نتعامل فقط مع ما نعرفه كنقطة بداية، تمام؟ وصل إيثان إلى بويسي في رحلة طيران مباشرة من سياتل في الساعة الثامنة والنصف صباحًا يوم الرابع والعشرين من سبتمبر في العام الماضي. مضى إلى المكتب الميداني بوسط المدينة في مبنى

يـو إس بنـك وقابـل العميـل سـتولينجز وفريقـه. عقـدوا اجتماعًـا مدتــه ســاعتان ونصــف، وبعــد ذلــك غــادر إيثــان وســتولينجز بويــسي في نحــو الســاعة الحاديــة عـشرة صباحًــا.

- وكانا متجهين إلى وايوارد باينز للتحقيق في...
- اختفـاء العميلـين بيـل إيفانـز وكيـت هيوسـون مـن ضمـن أشـياء أخـرى.

مجرد نطق اسمها كان أشبه بسكين تنزلق بين ضلوع تيريزا.

فجأة رغبت في كأس أخرى.

تابـع هاسـلر: "تحدثـتِ مـع إيثـان في مكالمـة عـلى الهاتـف الخلـوي لآخـر مـرة في السـاعة الواحـدة والثلـث مسـاء مـن لوومـان، آيداهـو، حيـث توقفـا لمـلء السـيارة بالبنزيـن".

- كان الاتصال سيئًا لأنهم كانوا في الجبال.
- عند هذه النقطة، كانا على مبعدة ساعة من وايوارد باينز.
- آخـر مـا قالـه لي: "سـأتصل بـك الليلـة مـن الفنـدق يـا حبيبتـي"، وحاولـت أن أقـول لـه وداعًـا وأني أحبـه، لكـن المكالمـة انقطعـت.
- وكان اتصالـك آخـر اتصـال مـن جانـب أي شـخص بزوجـك، عـلى الأقـل أي شـخص مـا زال حيًـا، طبعًـا... أنـت تعرفـين الباقـي.

نعم، وليست في حاجة إلى أن تسمعه مرة أخرى.

في الثالثـة وسـبع دقائـق مسـاء، عنـد مفـترق طـرق في وايـوارد باينـز، انحـرف سـتولينجز أمـام شـاحنة مـن طـراز مـاك. قُتِـل عـلى الفـور، وبسـبب عنـف التصـادم والدمـار الـذي لحـق بجانـب الراكـب إلى جـوار السـائق، كان لا بـد مـن أخـذ السـيارة إلى موقـع آخـر لاسـتخراج جثـة

إيثـان، غـير أنهـم بمجـرد أن شـقُّوا البـاب وأزالـوا مـن السـقف مـا يكفـي للدخـول، وجـدوا المقصـورة فارغـة.

- السبب الآخـر مـن قدومـي يـا تيريـزا أن أشـاركك خـبراً صغـيراً، كما تعرفـين، لم نكـن راضـين بالفحـص الأوَّلي الـذي أجرينـاه لسـيارة سـتولينجز اللنكولـن تـاون.

- صحيح.

- لـذا اتصلـت طالبًـا خدمـة مـن فريـق التحليـل العلمـي التابـع لمكتـب التحقيـق الفيـدرالي. هـم يقومـون بعمـلٍ رائـعٍ، أفضـل عمـل، وقـد انتهـوْا للتـوِّ مـن فحـص السـيارة لمـدة أسـبوع.

- و...

- يمكننـي أن أرسـل إليـك تقريرهـم غـدًا بالبريـد الإلكـتروني، لكـن باختصـار هـم لم يجـدوا شـيئًا.

- ماذا تقصد؟

- أقصـد أنهـم لم يجـدوا أي شيء. لا أثـر لخلايا بشرة أو دم أو شـعر أو حتـى بقايـا عـرق، ولا حتـى مـا يسـمُّونه الحمـض النـووي المختزل. لـو ركـب إيثـان في تلـك السـيارة لمـدة ثـلاث سـاعات في الرحلـة مـن بويـسي إلى وايـوارد بايـنز، لوجـد هـذا الفريـق عـلى الأقـل أثـرًا جزيئيًّـا مـا لـه.

- كيف يمكن هذا؟

- لا أعرف حتى الآن.

أمسكت تيريزا بالدرابزين، وجاهدت كي تقف على قدميها.

أخذت طريقها إلى البار المؤقت في الحوض الجاف.

لم تعبأ حتى بأن تصبَّ لنفسها كأسًا أخرى من الجن، فقط غرفت بعض الثلج في كأس ويسكي كبيرة وملأتها بفودكا خالصة.

أخذت رشفة طويلة، وعادت مترنحة إلى السلم.

قالت: "لا أعرف كيف أتعامل مع هذا يا آدم..." ومع الرشفة التالية، عرفت أن هذه هي الكأس التي ستدفعها بثباتٍ من فوق الحافة.

- ولا أنا أعرف، سألتِني عن رأيي فيما حدث؟
- نعم؟
- ليست لديَّ أي إجابات لك. ليس بعد. بيني وبينك تمامًا، نحن نقوم بفحصٍ آخر مدقق للعميل ستولينجز، فحص مدقق لكل شخص وصل إلى موقع الحادث قبل وصولي، لكن حتى الآن، لم نصل إلى شيء. وكما تعرفين، حدث هذا منذ أكثر من عام.

قالت: "هناك شيء غير مضبوط...".

حدَّق هاسلر إليها، وبدا الانزعاج في عينيه الصارمتين.

قال: "كفى هراء...".

***

أوصلته تيريزا إلى سيارته، ووقفت في الشارع المبتلّ والمطر يسقط عليها بينما تراقب أضواء السيارة الخلفية تصغر وتصغر قبل أن تختفي فوق قمة التل.

أمامها وخلفها في الشارع، كان بمقدورها أن ترى أضواء أشجار الكريسماس داخل منازل جيرانهم، لم تنصب هي وبِن شجرة بعدُ،

وتشـك في أنهـما سـيجدان وقتًـا لهـا هـذا العـام، سـتبدو هـذه العلامـة أقـرب إلى قبـول هـذا الكابـوس، التسـليم الأخـير بأنـه لـن يعـود أبـدًا إلى البيـت.

***

في وقـتٍ لاحـقٍ، وبعـد أن اسـتقلَّ الجميـع سـيارات الأجـرة وعـادوا إلى بيوتهـم، تمـدَّدت عـلى الأريكـة في الطابـق الأرضي في أعقـاب الحفـل، وهـي تقـاوم الـدوار.

لم تستطع النوم، لم تستطع أن تغيب عن الوعي.

كلـما فتحـت عينيهـا، يتركـز بصرهـا عـلى سـاعة الحائـط بينـما يـدور عقـرب الدقائـق متثاقـلًا بـين الثانيـة والثالثـة صباحًـا.

في الثانيـة وخمـس وأربعـين دقيقـة، بعـد أن لم تعـد قـادرة عـلى تحمُّـل الغثيـان والـدوار لحظـة أخـرى، تدحرجـت مـن فـوق الأريكـة، ونهضـت عـلى قدميهـا، وتحركـت مترنحـة إلى داخـل المطبـخ.

أخرجـت أحـد الأكـواب النظيفـة القليلـة الباقيـة مـن الخزانـة وملأتـه بالمـاء مـن الصنبـور.

شربت وأعادت ملأه مرتين قبل أن يرتوي عطشها.

كان المطبخ في حالة كارثية.

خفَّفــت إضــاءة خــط المصابيــح الأفقــي، وبــدأت تشــحن غســالة الأطبــاق، وهــي تحــس بــشيء مــن الرضــا لمرآهــا تمتلــئ. بــدأت دورة الغسـيل ثـم طافـت بالبيـت حاملـة كيسًـا بلاسـتيكيًا، وهـي تجمـع أكـواب البـيرة والأطبـاق الورقيـة والمناديـل الملقـاة.

قبـل الرابعـة صباحـًا، كان المنـزل في هيئـة أفضـل، ولم تعـد تشـعر بنفـس القـدر مـن السُّـكْر، رغـم أن نبضًـا طاحنًـا صـار ملحوظًـا خلـف عينيهـا؛ المـؤشر الأول للصـداع الوشـيك.

ابتلعـت ثـلاث حبـات مـن مُسـكن أدفيـل، ووقفـت عنـد حـوض المطبـخ في هـدأة السَّـحَر، تنصـت لصـوت المطـر وهـو يهطـل عـلى المنصـة الخشـبية في الخـارج.

مـلأت الحـوض بالمـاء السـاخن ورشَّـت فيـه الصابـون المنظِّـف للأطباق، وراقبـت الفقاقيـع وهـي تبـدأ في مـلء السـطح.

غمست يديها تحت الماء.

تركتهما هناك حتى لم تعد الحرارة محتمَلة.

كانـت واقفـة في هـذه البقعـة تحديـدًا عندمـا عـاد إيثـان إلى البيـت متأخـرًا مـن العمـل في تلـك الليلـة الأخـيرة.

لم تسمع الباب الأمامي وهو ينغلق.

لم تسمع خطواته.

كانـت تدعـك مقـلاة عندمـا أحسَّـت بيديـه تطوقـان خصرهـا، وأنفاسـه عـلى مؤخـرة عنقهـا.

- **آسف يا تي.**

تسـتمر في الدعـك وتقـول: "السـاعة السـابعة، الثامنـة، هـذا وقـت متأخـر. لكـن السـاعة العـاشرة والنصـف يـا إيثـان، لا أعـرف حتـى بمـا أسـمي هـذا".

- **كيف حال رجلنا الصغير؟**

- **سـقط نائمًـا في غرفـة المعيشـة، منتظـرًا أن يريـك الـكأس التـي فـاز بهـا.**

تكـره الطريقــة التــي يمكــن لمجــرد وجــود يديــه عــلى جســدها أن تبطــل مــن فاعليــة غضبهــا في جــزء مــن الثانيــة، لقــد شــعرت بانجــذاب أعمــى نحــوه مــن أول مــرة لمحتــه فيهــا أمــام البــار في تينــي بيجــز. امتيــاز غــير عــادل.

يقول في أذنها: "عليّ أن أطير إلى بويسي في الصباح قبل أي شيء".

- عيــد ميــلاده يــوم الســبت يــا إيثــان، ســيكمل السادســة مــرة واحــدة في حياتــه يــا إيثــان.

- أعرف، وأكره هذا، لكن عليّ أن أذهب.

- تعــرف مــا ســيفعله بــه عــدم وجــودك هنــا؟ كــم مــرة سيســألني لمــاذا لســتَ...

- أعــي هــذا يــا تيريــزا، تمــام؟ أتظنــين أن هــذا يؤلمــك أكــثر مــما يؤلمنــي؟

تزيح يديه عن خاصرتها وتستدير لتواجهه.

تسأله: "هل لهذه المهمة أي علاقة بمحاولة العثور عليها؟".

- لــن أتــورط في هــذا الآن يــا تيريــزا.. يجــب أن أســتيقظ بعــد خمس ســاعات لألحــق طائــرتي.. لم أحــزم حقيبتــي حتى.

يقطــع نصــف الطريــق خارجًــا مــن المطبــخ قبــل أن يتوقــف ويســتدير إلى الــوراء.

للحظــة، يتبــادلان النظــرات فقــط، وبينهــما مائــدة الإفطــار وعليهــا طبــق الطعــام البــارد الــذي ســيكون الوجبــة الأخــيرة التــي يتناولهــا إيثــان تحــت هــذا الســقف.

يقــول: "تعرفــين، لقــد انتهــى الأمــر. لقــد مضينــا في حياتنــا. لكنــك لا تتصرفــين كأن أي شيء قــد...".

- لقد تعبت فقط من الأمر يا إيثان.

- مِم؟

- عملك، وعملك، وعملك، وماذا يتبقى لنا؟ البقايا.

لا يرد، لكنها تستطيع أن ترى عضلات فكه ترتجف.

حتى في هذا الوقت المتأخر من الليل، بعد يوم عمل استغرق خمس عشرة ساعة، يبدو رائعًا، واقفًا تحت خط المصابيح الأفقي في تلك البدلة السوداء التي لا تَمَلُّ أبدًا من رؤيته يرتديها.

غضبها ينحسر بالفعل.

جزء منها في حاجة إلى الذهاب إليه، إلى أن يكون معه.

لديه سيطرة كبيرة عليها.

نوع ما من السحر فيه.

5

تتحـرك نحـوه عـبر المطبـخ، ويحيطهـا بذراعيـه، ويدفـن أنفـه في شـعرها. كثـيراً مـا يفعـل هـذا، محـاولًا في الآونـة الأخـيرة أن يسـتحضر تلـك الرائحـة الأولى؛ خليطًـا مـن العطـر والبلسـم والرائحـة الأصليـة، ذلـك الخليـط الـذي جعـل قلبـه ذات مـرة ينشـقلب في صـدره. لكنـه إمـا تغـير الآن، وإمـا ضـاع، وإمـا أصبـح جـزءًا لا يتجـزأ منـه شـخصيًا بحيـث لم يعـد في مقـدوره أن يحـدد الرائحـة التـي كانـت تحملـه دائمًـا -عندمـا يسـتطيع- لتعيـده إلى تلـك الأيـام الأولى. شيء يميزهـا أكـثر حتـى مـن شـعرها الأشـقر القصـير وعينيهـا الخضراويـن. إحسـاس بالجـدة. تحـوُّل جديـد. مثـل أصيـل أكتوبـري رقيـق والسـماء زرقـاء وصافيـة وجبـال كاسـكيد وأوليمبيكـس تحتفـظ بجليـد جديـد والأشـجار في المدينـة بادئـة للتـوِّ في التحـول.

يحتضنها.

وخـز وخـزي كل مـا جعلهـا تعانيـه، مـا زالا حيـين، لا يمكنـه أن يجـزم بهـذا، لكنـه يشـك في أنهـا لـو كانـت قـد فعلـت الأمـر نفسـه معـه، لتركهـا بالفعـل. يتعجَّـب مـن حبهـا لـه، إخلاصهـا. إلى هـذا الحـد يتجـاوزان أي شيء يسـتحقه، وهـو مـا يجعـل الخـزي أكـثر حـدة.

يهمس إيثان: "سألقي نظرة عليه..".

- حسنًا.

- عندما أعود، ستجلسين معي وأنا آكل؟

- طبعًا.

يضـع معطفـه عـلى الدرابزيـن، ويخلـع بخفـة حـذاءه الأسـود، ويصعد السـلم دون صـوت، قافـزًا فـوق الدرجـة الخامسـة التـي تصـدر صريرًا.

لا توجـد ألـواح أرضيـة سـيئة في بقيـة الطريـق، وسرعـان مـا يقـف على عتبـة غرفـة النـوم، ويفتـح البـاب بنعومـة إلى أن يشـقّ خيـط مـن الضـوء طريقـه عـبر الحيـز بـين البـاب وهيكلـه.

في عيـد ميـلاد بِـن الخامـس، دهنـوا الجـدران كي تعكـس الفضاء: سـواد. نجـوم. دوامـة المجـرات البعيـدة. كواكـب. قمـر صناعـي أو صـاروخ عابـر في الفضـاء السـحيق. رائـد فضـاء يسـبح في انعـدام الجاذبية.

ينـام ابنـه وسـط كومـة مـن الأغطيـة، ويـداه متشـبثتان بـكأس تذكاريـة صغـيرة: ولـد مـن البلاسـتيك الذهبـي يـركل كـرة قـدم.

يتحـرك إيثـان بهـدوء في الغرفـة، متفاديًـا مكعبـات الليجـو الضالـة وسـيارات السـباق الصغـيرة.

يجثو بجوار السرير.

تأقلمـت عينـاه مـع الظـلام بدرجـة كافيـة لأن تتبيَّنـا تفاصيـل وجـه بنجامـين.

النعومة.

الصفاء.

عيناه مغلقتان، لكنه يملك عيني أمه اللوزيتين.

وفم إيثان.

ثمة وجع ملموس، وهو جاثٍ هنا في الظلام قرب سرير ابنه الذي سيكمل السادسة من عمره قريبًا في أعقاب يوم آخر فاته تمامًا.

ابنه هو أكمل وأجمل شيء رأته عيناه، وهو يشعر شعورًا حادًّا بالمرور الحتمي لألف لحظة على هذا المخلوق الصغير الذي سيصبح رجلًا بأسرع مما يمكنه أن يتخيل.

يلمس وجنة بِن بظهر يده.

يميل إلى الأمام ويُقبّل جبهة الصبي.

يعيد خصلة من شعره خلف أذنه.

يهمس: "أنا فخور جدًّا بك، لا يمكنك حتى أن تتخيل".

في العام الماضي، صبيحة اليوم الذي مات فيه أبوه في دار للمسنين، بعد أن أهلكته الشيخوخة والالتهاب الرئوي، سأله بصوت أجش: "هل تقضي وقتًا مع ولدك يا إيثان؟".

أجابه: "بقدر ما أستطيع..." لكنَّ أباه لمح الكذب في عينيه.

- أنت الخاسر يا إيثان؛ سيأتي يوم تجده قد كبر وفات الأوان، يوم كنت لتضحي فيه بمملكة مقابل أن ترجع وتقضي ساعة واحدة مع ابنك صبيًّا، مقابل أن تحتضنه، تقرأ له كتابًا، تتقاذف كرة مع شخص ينظر إليك باعتبارك لا يمكن أن ترتكب خطأ، لا يرى عيوبك بعد، ينظر إليك بحبٍّ خالصٍ ولن يدوم، لذا استمتع به وهو موجود.

يتذكر إيثان هذه المحادثة كثيراً، في الأغلب وهو صاحٍ متمدد في الفراش ليلًا والجميع نيام، وحياته تمرُّ أمامه بسرعة الضوء: ثقل الفواتير والمستقبل وإخفاقاته السابقة، وكل هذه اللحظات التي يفتقدها -كل البهجة الضائعة- جاثمة كجلمود صخر على صدره.

- هل يمكنك أن تسمعني يا إيثان؟

أحيانًا يشعر كأنه لا يستطيع التنفس.

أحيانًا تأتيه أفكاره بسرعة حتى إنه لا بد أن يجد ذكرى واحدة مثالية.

يتشبَّث بها.

طوق نجاة.

- إيثان، أريدك أن تمسك بصوتي كأنه حبل وتتركه يقودك إلى سطح الوعي.

يستعيدها مرة بعد مرة إلى أن ينحسر القلق ويشعر بالإنهاك ويمكنه أخيراً أن ينزلق تحته.

- أعرف أن الموضوع صعب، لكن عليك أن تحاول.

إلى الجزء الوحيد من عمره الذي يكفل له السلام...

- إيثان.

الأحلام.

تنفتح عيناه فجأة.

ضوء موجه نحو وجهه.. نقطة صغيرة مركزة من الزرقة المتوهجة التي تغشي البصر.

قلم ضوئي.

رمـش بعينيـه، اختفـى الضـوء، وعندمـا فتـح عينيـه مـرة أخـرى، انحنـى رجـل محدقًـا إليـه عـبر نظـارة ذهبيـة الإطـار، عـلى مبعـدة أقـل مـن قـدم مــن وجهه.

عينان صغيرتان سوداوان.

رأس محلوق تمامًا.

لحيــة فضيــة باهتــة هــي مــؤشر العمــر الوحيــد، عــدا ذلــك كانــت بشرتــه ناعمــة وصافيــة.

ابتسم.. أسنان صغيرة وبيضاء مثالية.

- تستطيع أن تسمعني الآن، أليس كذلك؟

ثمة رسمية في نبرة الرجل، أدب مضمر.

أومأ إيثان برأسه.

- هل تعرف أين أنت؟

كان على إيثان أن يفكر لحظة.. كان يحلم بسياتل، بتيريزا وبِن.

سأله الرجل: "دعنا نبدأ بشيء آخر، هل تعرف اسمك؟".

- إيثان بيرك.

- جيد جدًا، ومرة أخرى، هل تعرف أين أنت يا إيثان؟

بمقـدوره أن يحــس بالإجابــة عــلى أعتــاب الذاكــرة، لكــن هنــاك حــيرة أيضًـا، عـدة أشـكال مـن الواقـع في حالـة تنافـس.

في أحدها كان في سياتل.

في واقع آخر، مستشفى.

في واقـع ثالـث، في بلـدة جبليـة شـاعرية اسـمها... ثمـة فجـوة في المـكان الـذي يجـب أن يكـون اسـمها فيـه.

- إيثان.

- نعم؟

- لو أخبرتك أنك في مستشفى بوايوارد باينز، هل سيثير هذا أي شيء لديك؟

لم يثِرِ فقط شيئًا، بل أعاد كل شيء دفعة واحدة مثل ضربة قاسية مفاجئة من ظهير في مباراة بيسبول، تصادمت ذكرى أيامه الأربعة الأخيرة بأوامر العمل بسلسلة من الأحداث التي شعر بالثقة بقدرته على الاعتماد عليها.

قال إيثان: "حسنًا، حسنًا.. أتذكر".

- كل شيء.

- أعتقد ذلك.

- ما هي ذكراك الأخيرة؟

استغرق الأمر لحظة كي يستعيدها، كي يزيح أنسجة العنكبوت عن المشابك العصبية، لكنه استطاع أن يجدها.

- شعرت بصداعٍ فظيعٍ، كنت جالسًا على الرصيف في الشارع الرئيسي، و...

- فقدتَ وعيك.

- بالضبط.

- هل ما زلت تعاني ذلك الصداع.

- لا، لقد اختفى.

- اسمي دكتور جنكينز.

صافح الرجل إيثان، ثم جلس على مقعدٍ إلى جوار سريره.

تساءل إيثان: "ما هو تخصصك يا دكتور؟".

- طبيب نفسي يا إيثان.. أريدك أن تجيبني عن بعض الأسئلة، إذا كان هذا مناسبًا. قلتَ بعض الأشياء المثيرة للاهتمام لدكتور مايتر وممرضته عندما أدخلوك أول مرة، هل تعرف ما أشير إليه؟

- لا.

- كنت تتحدث عن جثة في أحد المنازل هنا في البلدة، وأنك لم تتمكَّن من التواصل مع أسرتك.

- لا أتذكر الحديث مع الممرضة أو الطبيب.

- كنت تهذي وقتها، هل لديك تاريخ من المرض العقلي يا إيثان؟

كان إيثان ممددًا تمامًا على السرير.

لكنه الآن جاهد كي يجلس معتدلًا.

تسللت خيوط من ضوء ساطع عبر الستائر المسدلة.

النهار في الخارج.

على مستوى أوَّلي، شعر بالسعادة إزاء هذه الحقيقة.

تساءل إيثان: "أي سؤال هذا؟".

- السؤال الذي أتلقى راتبي على طرحه، لقد أتيتَ إلى هنا ليلة الأمس بلا محفظة ولا بطاقة هوية...

- لقد أُخرجت من حادث سيارة منذ عدة أيام، وإما المأمور وإما فريق المسعفين لم يقوموا بعملهم اللعين، وها أنا الآن ملقى هنا بلا هاتفٍ ولا مالٍ ولا بطاقة هوية، أنا لم أضيع محفظتي.

- اهدأ يا إيثان، لم يقل أحد إنك ارتكبت جرمًا، مرة أخرى، أريدك أن تجيب أسئلتي. هل لديك تاريخ من المرض العقلي؟

- لا.

- هل هناك تاريخ من المرض العقلي في أسرتك؟

- لا.

- هل لديك تاريخ من اضطرابات ما بعد الصدمة؟

- لا.

- لكنك خدمتَ في حرب الخليج الثانية.

- وكيف لك أن تعرف هذا؟

أشار جنكينز إلى رقبته.

أحنى إيثان رقبته ونظر إلى صدره، ورأى قلادة هويته معلقة في سلسلة من الخرز المعدني.. غريبة! كان يحتفظ بها دائمًا في درج الطاولة الجانبية للفراش، ولم يستطع أن يتذكر آخر مرة ارتداها فيها. لم يعتقد أنه أحضرها معه في هذه الرحلة، وبالتأكيد لم يتذكر أنه وضعها في أمتعته أو اتخذ قرارًا بارتدائها.

تفحَّص اسمه ورتبته ورقم تأمينه الاجتماعي وفصيلة دمه ومعتقده الديني ("لا يوجد معتقد ديني مفضَّل") كبيانات منقوشة على الفولاذ المقاوم للصدأ.

ضابط صف كبير إيثان بيرك.

- إيثان؟

- ماذا؟

- خدمتَ في حرب الخليج الثانية؟

- نعم، قدتُ يو إتش60-.
- وما تلك؟
- طائرة مروحية بلاك هوك.
- أظن أنك شهدت القتال؟
- نعم.
- بشكلٍ مكثفٍ؟
- يمكنك أن تقول هذا.
- هل أُصبت؟
- لا أفهم ما علاقة هذا بأي...
- فقط أجب عن أسئلتي من فضلك.
- أُسقطتُ في معركة الفالوجة الثانية شتاء عام 2004. كانت مهمة إخلاء طبي، وكنا قد حملنا للتوِّ بعض جنود البحرية المصابين.
- هل قُتِل أحد؟

أخذ إيثان نفَسًا عميقًا.

وزفره.

لو كان صادقًا، فقد أدهشه السؤال، ووجد نفسه الآن في مواجهة عرض لشرائح صور قضى الكثير من الجلسات العلاجية محاولًا أن يتصالح معها.

موجة الصدمة عندما انفجر الآر بي جي خلفه.

الذيل والمروحة الممزقان وهما يسقطان من ارتفاع مائة وخمسين قدمًا إلى الشارع تحته.

قوة التسارع المفاجئة بينما المروحية تدور حول نفسها.

أجهزة الإنذار يجن جنونها.

التصلب المستحيل لعصا القيادة.

الصدمة التي لم تكن تقريبًا بالسوء الذي يخشاه.

الوعي المفقود لنصف دقيقة فقط.

حزام الأمان المعقود، وعدم استطاعته أن يصل إلى سكينه القتالي.

- إيثان، هل قُتل أحد؟

نار ثائرة تنشب بالفعل في الجزء الآخر من الحطام، أحدهم يخرج حاملًا مدفع كلاشنكوف.

عبر الزجاج الأمامي المشقوق، يلمح مسعفين يعرجان مبتعدين عن المروحية.

في حالة صدمة.

- إيثان...

مباشرة إلى المروحة ذات النصال الأربعة التي ما زالت تدور بسرعة كافية...

هناك.

راحوا.

الدماء تغطي الزجاج الأمامي.

المزيد من الرصاص.

يأتي المتمردون.

- إيثان؟

قال إيثان: "قُتل الجميع إلاي".

- كنتَ الناجي الوحيد؟

- صحيح، أُسرت.

خطَّ جنكينز شيئًا في سجل ملاحظات في غلاف جلدي. قال: "أحتاج إلى سؤالك بعض الأسئلة الأخرى يا إيثان. كلما كنت أكثر صدقًا، كانت لديَّ فرصة أفضل لمساعدتك، وهو كل ما أريد أن أفعله. هل كنت تسمع أي أصوات طوال الفترة الماضية؟".

حاول إيثان أن يكبح غضبه.

- هل تمزح؟

- لو أمكنك فقط أن تجيب...

- لا.

خطَّ جنكينز في دفتره شيئًا بسرعة.

- هل واجهتك أي صعوبة في الكلام؟ مثلًا، ربما تشوَّه كلامك أو اختلط؟

- لا، لست مريضًا بالوهم، ولا تأتيني هلاوس ولا...

- حسنًا، لن تعرف حقًّا إن كانت تأتيك الهلاوس، أليس كذلك؟ ستعتقد أن الأشياء التي تراها وتسمعها حقيقية. أقصد إذا كنت تهلوس بي وبوجودك في هذه الحجرة بالمستشفى وهذه المحادثة كلها التي نُجريها، لن يبدو هناك أي اختلاف، أليس كذلك؟

أنزل إيثان ساقيه من فوق جانب السرير وأراح قدميه على الأرضية.

تساءل جنكينز: "ماذا تفعل؟".

نهض إيثان متحركًا نحو الخزانة.

ضعيف، غير مستقر على ساقيه.

- لستَ في حالة تسمح لك بالمغادرة يا إيثان. ما زالوا يُقيِّمون أشعة الرنين المغناطيسي الخاصة بك. لعلَّك تعاني نزيفًا داخليًّا في الرأس ونحن لا نعلم مدى شدته، نحن في حاجة لاستكمال تقييمنا...

- سأقوم بالفحص والتقييم.. فقط ليس هنا، ليس في هذه المدينة.

فتح إيثان باب الخزانة، وأنزل بدلته من المشجب.

- لقد دخلتَ مكتب المأمور من دون قميص، هل هذا صحيح؟

أدخل إيثان ذراعيه في قميصه الأبيض، الذي يبدو أنه غُسل بعد أن ارتداه في المرة الأخيرة، حلَّت رائحة منظِّف الغسيل محل نتن التعفن البشري.

قال إيثان: "كان يفوح برائحة كريهة، كانت رائحته تشبه الرجل الميت الذي رأيته للتوِّ..".

- تقصد الرجل الموجود في المنزل المهجور الذي تقول إنك وجدته.

- لم أقل إني وجدته، لقد وجدته.

- وذهبتَ إلى مسكن ماك وجين سكوزي، اللذين لم ترهما من قبل، وضايقتَ مستر سكوزي لفظيًّا في شرفة بيته الأمامية. هل هذا وصف عادل؟

بـدأ إيثـان يغلـق أزراره، بأصابـع مرتجفـة، مجاهـدًا كي يضبطهـا في عرواتهـا الصحيحـة. لم يضعهـا في ترتيبهـا الصحيـح، لكنـه لم يكـترث. ارتـدِ ملابسـك. اخـرج مـن هنـا. ارحـل عـن هـذه البلـدة.

قـال جنكينـز: "إن الخـروج إلى العـالم مـع إصابـة محتملـة في المخ ليـس مـن قائمـة الأشـياء الذكيـة التـي يمكـن أن يفعلهـا المـرء" كان قـد نهـض مـن مقعـده.

قال إيثان: "ثمة شيء خاطئ هنا".

- أعرف، وهذا ما كنت أحاول أن...

- لا، هـذه البلـدة، أهلهـا، أنـت.. ثمـة شيء غريـب وإذا كنـت تعتقـد أني سـأجلس هنـا وأدعـك تعبـث بي لحظـة واحـدة أخـرى...

- أنـا لا أعبـث بـك يـا إيثـان، لا أحـد هنـا يعبـث بـك، هـل لديـك أي فكـرة عـن قـدر البارانويـا التـي يبـدو عليهـا هـذا الـكلام؟ أنـا فقط أحـاول أن أحـدد إن كنـت تعـاني حالـة ذهانيـة.

- حسنًا، لا أعاني ذلك.

جذب إيثان بنطاله على ساقيه وأغلق أزراره وانحنى نحو حذائه.

- سـامحني إذا لا لم آخـذ بكلامـك حـول هـذا. "حالـة غـير طبيعيـة للذهـن، تتسـم في العمـوم بفقـد الاتصـال بالواقـع" هـذا هـو تعريـف الكتـب للذهـان. لعـلَّ السـبب في ذلـك حـادث السـيارة. أو رؤيتـك لزميلـك يمـوت، أو صدمـة مدفونـة مـن وقـت الحـرب تعـاود الخـروج عـلى السـطح.

قال إيثان: "اخرج من حجرتي..".

- يا إيثان، يمكن أن تكون حياتك...

نظـر إيثـان إلى جنكينـز مـن الناحيـة الأخـرى في الحجـرة، ولا بـد أن شـيئًا مـا في نظرتـه، في لغـة جسـده، قـد أشـار إلى تهديـد حقيقـي بالعنـف؛ لأن عينــي الطبيــب النفــسي اتســعتا، ولأول مــرة.. خــرس.

***

رفعت الممرضة بام عينيها عن أوراقها خلف المكتب في غرفة التمريض.

- مسـتر بـيرك، مـاذا تفعـل باللـه عليـك مرتديًـا ثيابـك وخارجًـا مـن سريـرك؟

- سأغادر.

- تغادر؟

قالتها كأنها لم تفهم الكلمة. "المستشفى؟".

- وايوارد باينز.

- لست في حالة تسمح لك حتى بالخروج من...

- أريـد متعلقـاتي الشـخصية الآن فـورًا، أبلغنـي المأمـور أن مسـعفي الطـوارئ ربمـا أخرجوهـا مـن السـيارة.

- ظننت أنها مع المأمور.

- لا.

- هل أنت واثق بهذا؟

- نعم.

- حسنًا، يمكنني أن أرتدي قبعة المحققة نانسي درو الخاصة بي و...

- كفي عن إضاعة وقتي، هل تعرفين أين هي؟

- لا.

استدار إيثان مبتعدًا عنها، وبدأ يسير.

نادته الممرضة بام.

توقف عند المصعد، وضغط زر السهم النازل.

كانـت قادمـة الآن، اسـتطاع أن يسـمع وقـع خطواتهـا السريعـة عـلى البـلاط المكسـو بالمشـمع.

التفت وراقبها وهي تقترب في ذلك الزي العتيق الجميل للممرضات.

توقفت على مبعدة بضع أقدام.

كان أطول منها بأربع أو خمس بوصات، وأكبر منها ببضع سنوات كذلك.

قالـت: "لا يمكننـي أن أسـمح لـك بالمغـادرة يـا إيثـان، ليـس قبـل أن نعـرف مـا هـي مشـكلتك".

صرَّت أبواب المصعد وهي تنفتح.

تراجع إيثان مبتعدًا عن الممرضة ودخل الكابينة.

"أشـكرك عـلى مسـاعدتك، وقلقـك.." قالهـا وهـو يضغـط زر الطابـق الأرضي ثـلاث مـرات إلى أن أضـاء الـزر "لكنـي أعتقـد أني عرفتهـا".

- ماذا؟

- المشكلة هي هذه البلدة.

مدَّت بام قدمها على العتبة، ومنعت الأبواب من الانغلاق.

- إيثان، من فضلك، أنت لا تفكر بصفاء.

- ابعدي قدمك.

- أنا قلقة عليك.. الجميع هنا قلقون.

كان مستندًا بظهره إلى الحائط، والآن انتفض من مكانه وتقدم إلى الأمام، متوقفًا على مبعدة بوصات من بام، محدقًا إليها عبر حيز البوصات الأربع بين الأبواب.

أطرق برأسه، ودق على طرف حذائها الأبيض بطرف حذائه الأسود.

للحظة طويلة، تمسكت بموقفها، وبدأ إيثان يتساءل في نفسه إن كان سيضطر إلى إزاحتها ماديًا من كابينة المصعد.

في النهاية، سحبت قدمها.

***

في وقفته على الرصيف، فكر إيثان أن البلدة تبدو هادئة بالنسبة إلى وقت الأصيل، لم يسمع محرك سيارة واحدة. لا شيء في الحقيقة إلا صوت الطيور تزقزق والريح تندفع عبر هامات أشجار الصنوبر الشاهقة الثلاث التي أطلّت على مرج المستشفى الأمامي.

سار إلى منتصف الشارع.

وقف هناك يشاهد وينصت.

أحس بالشمس طيبة ودافئة على وجهه.

حمل النسيم برودة محببة.

رفع ناظريه إلى السماء .. زرقاء داكنة صافية.

بلا غيوم.

لا تشوبها شائبة.

لا جدال أن هذا المكان جميل، لكن للوهلة الأولى، غرست هذه الأسوار الجبلية المحيطة بهذا الوادي شيئًا فيه غير الروعة. لم يستطع

أن يفسر السبب، لكنها ملأته بالخوف، فزع لم يستطع أن يضع إصبعه عليه بدقة.

شعر... بالغرابة.

ربما عانى من إصابة، لكن ربما لا.

ربما الانفصال عن العالم الخارجي المستمر الآن لخمسة أيام بدأ يتضح أثره.

لا آيفون، لا إنترنت، لا فيسبوك.

بدا من المستحيل عندما فكر في الأمر.. ألا يكون لديه أي اتصال بأسرته، بهاسلر، بأي شخص خارج وايوارد باينز.

بدأ سيره نحو مكتب المأمور.

من الأفضل أن يرحل هكذا. ينضم من جديد إلى السرب، يعيد تقييم الموقف من الجانب الآخر لتلك الأسوار الصخرية.

من ملاذ بلدة عادية.

لأن شيئًا ما هنا بالقطع غير عادي.

***

- هل المأمور بوب هنا؟

رفعت بليندا موران ناظريها عن شوطها في لعبة سوليتير.

قالت: "أهلًا، كيف يمكنني مساعدتك؟"

سألها إيثان بصوتٍ أعلى قليلًا هذه المرة: "هل المأمور هنا؟".

- لا، خرج لحظة.

- إذن، هل سيعود بعد قليل؟

- لا أعرف متي يجب أن يعود.
- لكنك قلتِ "لحظة" لذا تصورت...
- إنه مجرد مجاز أيها الشاب.
- هل تذكرينني؟ العميل بيرك من جهاز الخدمة السرية؟
- نعم، وأنت ترتدي قميصك هذه المرة، تعجبني هذه الهيئة أكثر بكثيرٍ.
- هل جاءت أي مكالمات لي؟

ضيَّقت عينيها وأمالت رأسها: "ولماذا تكون هناك مكالمات لك؟".

- لأني أخبرت بعض الأشخاص أن في إمكانهم الوصول إليَّ هنا.

هزَّت بليندا رأسها، وقالت: "لم يتصل بك أحد".

- لا زوجتي تيريزا، ولا العميل آدم هاسلر؟
- لم يتصل بك أحد يا مستر بيرك، ولا ينبغي لك أن تطلب منهم الاتصال بك هنا.
- أحتاج إلى أن أستخدم الهاتف في حجرة اجتماعاتكم مرة أخرى.

عبست بليندا وقالت: "لا أعتقد أن هذه فكرة جيدة".

- لماذا؟

لم تكن لديها إجابة عن هذا السؤال، فقط حافظت على عبوسها.

***

"تيريزا، إنه أنا. أحاول فقط الوصول إليكِ. كنت في المستشفى مرة أخرى. لا أعرف إن كنتِ قد اتصلتِ بمكتب المأمور أو الفندق، لكني لم أتلقَّ أي رسائل. ما زلت في وايوارد باينز، لم أتمكَّن من العثور على

هاتفـي أو محفظتـي، لكنـي سـئمت مـن هـذا المـكان. سأسـتعير سـيارة سـفاري مـن مكتـب المأمـور، سـأتصل بـك الليلـة مـن بويـسي، أفتقـدك، وأحبـك".

مـال إلى الأمـام في مقعـده، سـمع نغمـة اتصـال جديـدة، وعندئـذٍ أغلـق عينيـه وحـاول أن يتذكره.

كان الرقم موجودًا.

أداره وأنصـت إلى أربـع رنـات، وبعـد ذلـك أجابـه نفـس الصـوت الـذي سـمعه في المـرة الماضيـة: "جهـاز الخدمـة السريـة".

- معك إيثان بيرك أتصل مرة أخرى من أجل آدم هاسلر.

- ليس متاحًا حاليًا، هل هناك شيء يمكنني مساعدتك فيه؟

- هل معي مارسي؟

- نعم.

- هل تذكرين محادثتنا الهاتفية من الأمس؟

- أنـت تعـرف يـا سـيدي أننـا نتلقَّـى مكالمـات كثـيرة هنـا كل يـوم، ولا يمكننـي أن أتابـع كل...

- قلتِ لي إنك ستبلغين العميل هاسلر رسالة.

- حول ماذا؟

أغلـق إيثـان عينيـه، وأخـذ نفَسًـا عميقًـا. لـو أهانهـا الآن، سـتكتفي بإنهـاء المكالمـة. ولـو انتظـر إلى أن يعـود إلى سـياتل، قـد يتمكَّـن مـن انتـزاع أحشـائها أمـام الجميـع، وجعلهـا تُفصـل عـلى الفـور.

- مـارسي، كانـت تتعلـق بعميـل خدمـة سريـة ميـت في وايـوارد باينـز، آيداهـو.

- إمممم. حسنًا، لو قلتُ إني سأبلغه الرسالة، فأنا واثقة بأني أنجزت هذا.

- لكني لم أسمع ردًا منه، ألا تجدين هذا غريبًا؟ أن عميلًا من مكتب هاسلر الميداني -أنا- يجد عميلًا آخر مقتولًا، عميلًا أُرسلتُ إلى هنا كي أجده، والآن مرَّت أربع وعشرون ساعة ولم يقم هاسلر حتى بالرد على مكالمتي؟

وقفة صمت قصيرة، وبعد ذلك: "هل هناك أي شيء أستطيع أنا أن أساعدك به؟".

- نعم، أريد الحديث إلى العميل هاسلر حالًا.

- أوه، آسفة، هو ليس متاحًا حاليًّا. هل هناك أي شيء...

- أين هو؟

- هو ليس متاحًا.

- أين.. هو..

- ليس متاحًا حاليًّا، لكني متأكدة أنه سيتصل بك في أقرب فرصة تواتيه. كان فقط غارقًا في المشاغل.

- من تكونين يا مارسي؟

أحس إيثان بالهاتف يُنتزع من قبضته.

خبط بوب السماعة بقوة وهو يعيدها فوق القرص، وعينا المأمور تخترقان إيثان كجمرتين مشتعلتين.

- من سمح لك بالدخول إلى هنا واستخدام هاتفي؟

- لا أحد، أنا فقط...

- هذا صحيح، لا أحد، انهض.

- عذرًا؟

- قلت انهض. يمكنك أن تخرج من هنا وحدك، أو يمكنني أن أجرك عبر البهو بنفسي.

نهض إيثان ببطء، وواجه المأمور من وراء المنضدة.

- أنت تتكلم مع عميل فيدرالي يا سيدي.

- لست مقتنعًا.

- ماذا يعني هذا بحق الجحيم؟

- تأتي إلى هنا بلا بطاقة هوية ولا هاتف، لا شيء...

- لقد أوضحت موقفي، هل قمت بمشوار إلى 604 الجادة الأولى، ورأيت جثة العميل إيفانز؟

- فعلت.

- و...؟

- تحت التحقيق.

- هل اتصلت بمتخصصي فحص مسرح الجريمة كي يتعاملوا مع...

- الأمر كله قيد التعامل.

- وماذا يعني هذا حتى؟

اكتفى بوب بالتحديق إليه، وإيثان يفكر: **إنه شخص مختل وأنت بلا دعم في هذه البلدة، احصل فقط على سيارة، اخرج من هنا. اطحنه عندما تعود مع المدد. سيفقد شارته، ويواجه الملاحقة القضائية لإعاقته تحقيقًا فيدراليًا.**

قال إيثان مسترضيًا إياه: "أريد أن أطلب منك معروفًا..".

- ماذا؟

- أود أن أستعير إحدى سياراتك.

ضحك المأمور: "لماذا؟".

- حسنًا، من الواضح أني منذ الحادث لا أملك سيارة.

- هذا ليس أحد فروع شركة هيرتز لتأجير السيارات.

- أحتاج إلى وسيلة انتقال يا آرنولد.

- هذا ليس ممكنًا.

- أليس هذا مكتب مأموريتك؟ يمكنك أن تفعل ما تشاء، صحيح؟

غمز المأمور بعينه، وقال: "لا أملك واحدة أعيرها لك"، وبدأ بوب يسير بمحاذاة منضدة الاجتماعات.. "هيا نذهب يا مستر بيرك".

توقف بوب عند الباب المفتوح وانتظر إيثان.

عندما اقترب إيثان منه، قبض بوب على ذراعه وجذبه إليه، ويده الكبيرة القوية تطحن عضلة عضده.

قال المأمور: "قد تكون لديَّ أسئلة لك في القريب العاجل..".

- حول ماذا؟

اكتفى بوب بالابتسام وقال: "لا تفكر حتى في مغادرة البلدة".

***

عندما سار إيثان مبتعدًا عن مكتب المأمور، ألقى نظرة من فوق كتفه، ورأى بوب يراقبه عبر شقٍّ في ستائر غرفة الاجتماعات.

كانت الشمس قد غابت خلف الجبال.

ربضت البلدة صامتة.

تجاوز مربعًا سكنيًا بينه وبين مكتب بوب، وجلس على رصيف شارع هادئ.

همس: "هذا ليس حقيقيًا.." وظل يهمس بها.

شعر بالضعف والجوع.

حاول أن يستعرض كل شيء، كل ما حدث منذ جاء إلى وايوارد باينز. جاهد كي يستجمع لمحة من الصورة الكلية، مفكرًا أنه لو تمكن من رؤيتها كلها مرة واحدة، قد يتمكَّن من تجميع هذه المواجهات العجيبة معًا في إطار مشكلة يمكن حلُّها، أو على الأقل مشكلة لها منطق، لكن كلما حاول بقوة أكبر، شعر كأنه يفكر داخل سحابة.

إلهام مفاجئ: الجلوس هنا لن يغير من الأمر شيئًا.

نهض واقفًا، وانطلق نحو الشارع الرئيسي.

اذهب إلى الفندق.. ربما هناك رسالة تنتظرك من تيريزا أو هاسلر.

أمل كاذب، عرف ذلك، لن تكون هناك أي رسائل، لا شيء إلا العداوة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أنا لست مجنونًا.

أنا لست مجنونًا.

تلا اسمه، رقم تأمينه الاجتماعي، عنوانه في سياتل، اسم تيريزا قبل الزواج، تاريخ ميلاد ابنه، بدا كل شيء حقيقيًا، كأنها قصاصات معلومات شكَّلت هويته.

وجد راحة في الأسماء والأرقام.

لفت انتباهه صوت جلجلة معدنية في المربع السكني التالي.

كانت هناك قطعة أرض خلاء أمام الشارع امتدت بها عدة موائد طعام خلوي وبضع شوايات ومساحة للعبة رمي حدوات الخيل.

اجتمعت بعض العائلات في حفل، وقفت مجموعة من النساء يتكلمن قرب زوج من المُبرِّدات الحمراء. قلَّب رجلان قطع البرجر والهوت دوج على شواية، وارتفعت دوائر زرقاء من الدخان في هواء المساء الساكن.. رائحة طهي اللحم جعلت معدة إيثان توجعه، وأدرك أنه أكثر جوعًا حتى مما اعتقد.

هدف جديد: الأكل.

عبر الشارع إلى صرير صراصير الليل وطقطقة رشاشات المرجْ من بعيدٍ.

تساءل: هل هي أصوات حقيقية؟

طارد الأطفال بعضهم بعضًا وسط العشب، وهم يصرخون ويضحكون ويزعقون.

يلعبون المسَّاكة.

كانت الجلجلة المعدنية آتية من لعبة رمي حدوات الخيل. وقفت مجموعتان من الرجال في مواجهة إحداهما الأخرى وسط حفرتين رمليتين متقابلتين، ودخان السيجار يتحلق حول أياديهم مثل هالات متفجرة.

كان إيثان قد وصل تقريبًا إلى قطعة الأرض الخلاء، مفكرًا أن أفضل طريقة هي الاقتراب من النساء، فليمارس السحر. بدا هؤلاء الناس أشخاصًا طيبين يعيشون لحظة مثالية من الحلم الأمريكي.

عدل سترته عندما انتقل من الرصيف إلى العشب، وهو يفرد الكسرات، ويضبط ياقته.

خمس نساء، واحدة في أوائل العشرينيات من عمرها، وثلاث ما بين الثلاثين والأربعين، وواحدة بشعر فضي ما بين منتصف إلى أواخر الخمسينيات.

كُنَّ يشربـن عصـير الليمـون مـن أكـوابٍ بلاسـتيكية شـفافة، ويتناقشـن حـول موضـوع مـا مـن ثرثـرات الجـيران.

لم يكن أحد قد لاحظه بعد.

عـلى مبعـدة عـشرة أقـدام، وبينـما كان يحـاول اخـتراع طريقـة مـا غـير متطفلـة لاقتحـام حديثهـن، تطلعـت امـرأة في سـنِّه إليـه وابتسـمت.

قالت: "أهلًا بك..".

كانـت ترتـدي تنـورة انسـدلت لتغطـي ركبتيهـا، وحـذاء أحمـر واطئًـا، وبلـوزة ذات نقـوش مربعـة. كان شـعرها قصـيرًا في قَصَّـة كلاسـيكية، كأنهـا تمثِّـل في مسلسـل كوميـدي مـن الخمسـينيات.

قال إيثان: "أهلًا..".

- جئت لتقتحم حفل مربعنا السكني الصغير؟

- يجـب أن أعـترف أن رائحـة مـا تطهونـه أيًّـا كان عـلى تلـك الشـواية قـد جذبنـي دون إرادة مني.

- أنا نانسي.

وانفصلت عن مجموعتها، ومدَّت يدها.

صافحها إيثان.

- إيثان.

سألته: "هل أنت جديد هنا؟".

- وصلت إلى البلدة منذ بضعة أيام فقط.

- وإلى أي حد تستمتع بقريتنا الصغيرة؟

- لديكم بلدة جميلة، دافئة ومرحبة جدًّا.

- آها! ربما سنطعمك في النهاية.

وضحكت.

سألها إيثان: أتعيشين بالقرب من هنا؟

- نعيش جميعًا في بضع مربعات سكنية. يحاول الجيران التجمُّع معًا للطهي بالخارج مرة واحدة على الأقل في الأسبوع.

- يا له من مجتمع لطيف متعاون!

احمرَّ وجه المرأة بشدة، وتساءلت: "إذن، ماذا تفعل في وايوارد باينز يا إيثان؟"

- أنا هنا كسائح فقط.

- لا بد أن هذا لطيف، لا يمكنني حتى أن أتذكر آخر إجازة حصلت عليها.

قال إيثان وهو يشير إلى الجبال المحيطة: "عندما تعيشين في مكان كهذا، لماذا قد تفكرين في الرحيل أصلًا؟"

سألته نانسي: "هل تود كوبًا من الليموناده؟ إنه صناعة منزلية ولذيذ."

- طبعًا.

لمست ذراعه، وقالت: "سأعود فورًا، ثم سأقدمك إلى الجميع."

عندما توجهت نانسي إلى المُبردين، ألقى إيثان نظرة نحو النسوة الأخريات، باحثًا عن منفذ لاقتحام الحديث.

كانت أكبر المجموعة سنًّا -امرأة ذات شعر أبيض تمامًا- تضحك على شيء ما، وعندما خطر بباله أنه سمع هذه الضحكة من قبل، أعادت شعرها المنسدل حتى كتفيها إلى وراء أذنيها.

الوحمة التي في حجم عملة الخمس سنتات على وجهها أوقفت قلبه.

لا يمكن أن تكون هي، لكن...

الطول المضبوط.

البنية المضبوطة.

كانت تتحدث الآن، صوتها يكاد يكون مألوفًا بدرجة لا تقبل الشك. انسحبت من مجموعة النساء، وهي تشير إلى أصغرهن وتبتسم ابتسامة متكلفة خبيثة.

قالت: "سوف أحرص على أن تفي بكلامك هذا يا كريستين."

راقبها إيثان وهي تستدير وتسير إلى أبعد حفرة في ملعب رمي الحدوات، حيث شبكت أصابعها في أصابع رجل طويل عريض المنكبين لديه شعر طويل فضي مموج.

- هيا يا هارولد، سيفوتنا عرضنا.

حاولت أن تجذبه بعيدًا.

قال محتجًا: "سأرمي واحدة أخرى."

أطلقت سراحه، ووقف إيثان عاجزا عن النطق بينما رفع هارولد حدوة حصان من الرمل، وصوَّب بحرصٍ، وألقى بها.

طارت الحدوة في قوس فوق العشب وتحلقت حول الوتد المعدني.

تصايح فريق هارولد الذي قام بعدة انحناءات مسرحية وترك المرأة ذات الشعر الثلجي تسحبه بعيدًا عن الحفل.

تمنى لهم أصدقاؤهم ليلة سعيدة.

- إيثان، تفضَّل عصير الليمون.

قدمت له نانسي الكوب.

- آسف، يجب أن أذهب.

استدار وسار عائدًا إلى الشارع.

هتفت نانسي وراءه: "ألا تريد أن تبقى وتأكل؟"

عندمـا انعطـف إيثـان حـول الناصيـة، كان الزوجـان المسـنان عـلى مبعـدة مربـع سـكني أمامـه.

أسرع خطاه.

تبعهـما عـدة مربعـات سـكنية وهـما يسـيران الهوينـى أمامـه بإيقـاع شـخصين لا يحمـلان هـمًّا في العـالم، متعانقـي الكفَّـين، يرتفـع صوتاهـما وضحكهـما ليغيـب في أشـجار الصنوبـر.

انعطفا في شارع واختفيا.

هرول إيثان إلى التقاطع التالي.

اصطفَّت على جانبي الشارع منازل جذابة فيكتورية الطراز.

لم يرهما في أي مكان.

تـردَّد صـدى صـوت بـاب يُغلـق في مـكان مـا مـن المربـع السـكني. حـدد المنـزل الـذي أتى منـه، أخـضر لـه إطـار أبيـض. شرفـة أماميـة بهـا أرجوحـة. البيـت الثالـث عـلى اليسـار.

عبر الشارع، والتزم السير على الرصيف إلى أن وقف أمامه.

بقعـة صغـيرة مـن العشـب الأخـضر المثـالي، الشرفـة الأماميـة تحـت ظـل شـجرة صنوبـر عجـوز. عـلى صنـدوق البريـد، اسـم عائـلي لم يميـزه. وضـع يديـه عـلى السـياج الخشـبي. حـلَّ الغسـق. بـدأت الأنـوار تضـاء للتـوِّ في المنـازل مـن حولـه. ونتفـة عارضـة مـن حديـث تتـسرب عـبر نافـذة مرفوعـة.

الـوادي صامـت وهـواؤه بـارد منعـش والـذرى الأعـلى للجبـال المحيطـة تتشـبَّث بالرمـق الأخـير مـن ضـوء النهـار.

رفع مزلاج البوابة، ودفعها ليفتحها.

سار على ممشًى حجري قديم إلى الشرفة الأمامية.

أنَّت الدرجات تحت ثقله.

ثم توقف عند الباب الأمامي.

بمقدوره أن يسمع أصواتًا في الناحية الأخرى.

وقع خطوات.

شيء بداخله لم يُرِده أن يطرق الباب.

دقَّ بمفصلات أصابعه على زجاج الباب الخارجي، وتراجع خطوة إلى الوراء.

انتظر دقيقة كاملة، لكن أحدًا لم يأتِ.

دقَّ بقوة أكبر في المرة الثانية.

اقتربت الخطوات. سمع قفلًا يدار، وانفتح الباب الخشبي.

تطلع إليه ذلك الرجل عريض المنكبين عبر الزجاج.

- هل يمكنني مساعدتك؟

كان إيثان في حاجة فقط إلى أن يراها عن قرب، تحت ضوء الشرفة الأمامية. يتأكد أنها ليست هي، أنه لم يُجن. يتابع مشكلاته الأخرى التي لا تُعد ولا تُحصى في هذه البلدة.

- أبحث عن كيت.

للحظة اكتفى الرجل بالتحديق إليه.

أخيرًا فتح الباب الزجاجي.

- من أنت؟

- إيثان.

- من تكون؟

- صديق قديم.

تراجـع الرجـل إلى داخـل المنـزل، وأدار رأسـه قائـلًا: "حبيبتـي، هـل يمكـن أن تـأتي إلى البـاب دقيقـة واحـدة؟"

أجابتـه بـشيء لم يتمكَّـن إيثـان مـن تبينـه، وقـال الرجـل: "لا فكـرة لـديَّ."

ثـم ظهـرت، ظِـلٌّ عنـد نهايـة رواق يـؤدي إلى المطبـخ. مـرَّت للحظـة عـبر إضـاءة مصبـاح معلـق في السـقف، وخطـت بخفـة حافيـة القدمـين عـبر غرفـة المعيشـة إلى البـاب.

تنحى الرجل جانبًا وأخذت هي مكانه.

حدَّق إيثان إليها عبر الباب الزجاجي.

أغلـق عينيـه وفتحهـما مـرة أخـرى، كان مـا زال واقفًـا عـلى هـذه الشرفـة الأماميـة، وكانـت مـا زالـت -عـلى نحـو مسـتحيل- خلـف الزجـاج.

قالت: نعم؟

تلك العينان.

لا يمكن أن يخطئهما.

- كيت؟

- نعم؟

- هيوسون؟

- كان هذا اسم عائلتي قبل الزواج.

- أوه يا إلهي!

- آسفة... هل أعرفك؟

لم يستطع إيثان أن يرفع عينيه عنها.

قال: "إنه أنا.. إيثان. جئت هنا لأبحث عنك يا كيت."

- أعتقد أنك تخلط بيني وبين شخص آخر.

- كنت لأعرفك في أي مكان، في أي سنٍّ.

ألقت نظرة من فوق كتفها، وقالت: "لا بأس يا هارولد.. سأعود خلال لحظة."

فتحت كيت الباب، وخطت على بساط الاستقبال الصغير أمام الباب. كانت ترتدي بنطالًا بلون القشدة وفانلة ضيقة زرقاء حال لونها.

خاتم زواج.

فاحت منها رائحة كيت التي يعرفها.

لكنها كانت عجوزًا.

تساءل إيثان: "ماذا يحدث؟"

سحبته من يده، وقادته إلى الأرجوحة عند آخر الشرفة الأمامية.

جلسا.

نهض منزلها على مرتفعٍ صغيرٍ يطل على الوادي والبلدة. أنيرت أضواء البيوت في كل مكان الآن وبرزت في السماء ثلاث نجمات.

تعالى صوت صرصور ليلي، أو تسجيل لصرصور ليلي، في إحدى الشجيرات.

- كيت...

وضعت يدها على ساقه وضغطت، ومالت مقتربة:

- إنهم يراقبوننا.

- من؟

- ششش!

أشـارت نحـو السـقف، إشـارة خفيفـة إلى أعـلى بإصبعهـا، وهمسـت: "ويتنصتـون."

تساءل إيثان: "ماذا حدث لك يا كيت؟"

- ألا تعتقد أني ما زلت جميلة؟

تلـك النـبرة السـاخرة اللاذعـة هـي كيـت تمامًـا. أطرقـت محدقـة إلى حِجرهـا لمـدة دقيقـة، وعندمـا رفعـت رأسـها مـرة أخـرى، كانـت عيناهـا تلتمعـان: "عندمـا أقـف أمـام المـرآة وأمشـط شـعري في الليـل، أتذكـر مـا زلـت يديـك عـلى جسـدي، لم يعـد كـما كان."

- كم عمرك يا كيت؟

- لم أعد أعرف. من الصعب الاستمرار في العدِّ.

- جئـت للبحـث عنـك منـذ أربعـة أيـام. فقـدوا الاتصـال بـك أنـت وإيفـان وأرسـلوني إلى هنـا للبحـث عنكـما.. إيفـان مـات.

بدا أن عبارته الأخيرة لم تُحدث أثرًا كبيرًا.

- ماذا كنتِ تفعلين أنت وإيفان هنا؟

اكتفت بهزٍّ رأسها.

- ماذا يحدث هنا يا كيت؟

- لا أعرف.

- لكنك تعيشين هنا.

- نعم.

- منذ متى؟

- سنوات.

- مستحيل.

نهض إيثان والأفكار تحتشد في رأسه.

- لا إجابات لديَّ من أجلك يا إيثان.

- أحتاج إلى هاتف وسيارة ومسدس لو كان لديك...

- لا أستطيع يا إيثان.

ونهضت.

- ينبغي لك أن تمضي.

- كيت...

- حالًا.

أمسك بيديها. "كنتِ أنت من ساعدتني عندما فقدت الوعي في الشارع ليلة أمس". حدَّق إلى وجهها .. خطوط الضحك، تجاعيد حول العينين، وما زال جميلًا جدًّا.

- هل تعرفين ما يحدث لي؟

- توقف.

وحاولت أن تبتعد.

قال: "أنا في مشكلة."

- أعرف.

- قولي لي ماذا...

- إيثان، أنت الآن تعرِّض حياتي للخطر.. وحياة هارولد.

- ممن؟

ابتعـدت عنـه، وانطلقـت نحـو البـاب. عندمـا وصلتـه، نظـرت إلى الـوراء، وللحظـة بـدت في وقفتهـا خـارج بـؤرة الضـوء كأنهـا عـادت إلى عمـر السادسـة والثلاثـين مـرة أخـرى.

ـ كان يمكنك أن تكون سعيدًا يا إيثان.

ـ عم تتحدثين؟

ـ كان يمكنك أن تحيا حياة رائعة هنا.

ـ كيت.

دفعت الباب لتفتحه، وخطت إلى الداخل.

ـ كيت.

ـ ماذا؟

ـ هل أنا مجنون؟

ـ لا، على الإطلاق.

انغلـق البـاب وراءهـا، ثـم سـمع المـزلاج ينزلـق. سـار إلى البـاب وحـدّق في انعكاسـه عـلى الزجـاج، متوقعًـا أن يـرى رجـلًا في السـتين مـن عمـره، لكنـه كان كـما هـو دون تغيـير.

لم يعد جائعًا.

لم يعد متعَبًا.

هبـط الدرجـات، وسـار عـلى الممـشى الحجـري، وصعـد إلى الرصيـف، وهـو لا يشـعر إلا بذلـك الضيـق في مركـز صـدره، شـعور مألـوف كان ينتابه دائمًـا قبـل أي مهمـة .. وهـو سـائر إلى الطائـرة المروحيـة بينـما الطاقـم الأرضي يُحمِّـل بندقيـة الجاتلينـج عيـار خمسـين وصواريـخ هيلفايـر.

الخوف.

***

لم يرَ أي سيارة حتى بلغ المربع السكني التالي، سيارة بويك لاسابر موديل منتصف الثمانينيات، تغطى زجاجها الأمامي بأوراق الصنوبر الجافة واستقرت على أربعة إطارات في حاجة إلى ملئها بالهواء قليلًا.

كانت أبوابها مغلقة بالمفتاح.

تسلل إيثان إلى الشرفة الأمامية لأقرب منزل ورفع تمثال ملاك حجري صغير من قاعدته تحت نافذة. من خلال الستائر الخفيفة، رأى ولدًا صغيراً بالداخل، جالسًا إلى بيانو مسنود إلى الحائط، يعزف مقطوعة موسيقية رائعة، والنغمات تنساب إلى الشرفة الأمامية عبر شقٍّ طوله أربع بوصات حيث ارتفعت النافذة عن حافتها.

جلست امرأة إلى جواره، تقلب صفحات النوتة الموسيقية.

رغم أن طوله كان قدمًا واحدًا فقط، فإن تمثال الملاك الصغير كان من الأسمنت الصلب وزاد وزنه عن ثلاثين رطلًا.

رفعه إيثان وعاد به إلى الشارع.

لم تكن هناك طريقة لفعل هذا بهدوء.

رفع التمثال وهوى به على نافذة المقعد الخلفي خلف مقعد السائق، واخترق الملاك زجاجها بسهولة. فتح قفل الباب، وجذبه ليفتحه، وصعد إلى الداخل من فوق الزجاج المكسور، من فوق المقاعد، وجلس خلف عجلة القيادة. أطاحت الصدمة برأس الملاك التي رفعها إيثان من فوق المقعد الخلفي.

ضربتان كانتا كافيتين لشق الغطاء البلاستيكي تحت عمود التوجيه وكشف أسطوانة الإشعال.

كانت الإضاءة داخل السيارة سيئة.

عمل معتمدًا على التحسس فقط، وأصابعه تجذب أسلاك الطاقة والتشغيل.

كان عـزف البيانـو داخـل البيـت قـد توقـف. ألقـى نظـرة نحـو الشرفـة الأماميـة، ورأى ظلّـين واقفـين الآن خلـف السـتائر.

أخــرج إيثــان الســكين الســويسري مــن ســترته، وفتــح النصــل الأكــبر فيهـا، وقطـع السـلكين الأبيضـين اللذيـن راهـن عـلى أنهـما يغذيان السـيارة بالطاقـة. ثـم أزال القـشرة البلاسـتيكية عـن طرفيهـما وثناهـما معًـا.

أضاءت لوحة العداد.

انفتـح بـاب المنـزل الأمامـي عـلى مصراعيـه عندما وجد سـلك التشـغيل ذا اللـون الأغمق.

صوت ولد: "انظري إلى نافذة السيارة."

أزال إيثــان بعــض البلاســتيك عــن طــرف ســلك التشــغيل ليكشــف خيــوط النحــاس.

قالت المرأة: "انتظر هنا يا إليوت."

من فضلك، من فضلك، من فضلك.

لامـس إيثـان سـلك التشـغيل بسـلك الطاقـة، وطقطقـت شرارة زرقـاء في الظـلام.

سعل المحرك.

كانت المرأة تتحرك نحوه عبر الفناء الأمامي.

قال إيثان: هيا...

لامس الأسلاك ببعضها مرة أخرى، وزأر المحرك.

مرة.

مرتين.

ثلاث مرات.

في الرابعة، سعل المحرك وتناثر رذاذ عودته إلى الحياة.

سرَّع عـدد الـدورات في الدقيقـة، ونقـل السرعـة إلى وضـع القيـادة، وضغـط زرَّ إضـاءة المصابيـح الأماميـة عندمـا وصلـت المـرأة إلى بـاب الراكـب الأمامـي وهـي تصيـح عـبر الزجـاج.

انطلق إيثان في سرعة عبر الشارع.

عنـد التقاطـع الأول، انعطـف يسـارًا ورفـع قدمـه عـن دواسـة البنزيـن، مقلـلًا سرعتـه إلى نطـاقٍ معقـولٍ، إلى معـدل لا يلفـت الانتبـاه، كأنـه شـخص خـرج في نزهـة مسـائية لطيفـة بالسـيارة.

أظهـر عـدَّاد البنزيـن أن المتبقـي ربـع الخـزان. لم يظهـر ضـوء خـزان الاحتياطـي بعـد. ليسـت مشـكلة. يوجـد مـا يكفـي مـن الوقـود للخـروج مـن وايـوارد باينـز. مـا إن يعتـلي الطريـق السريـع، سـيجد بلـدة يمكـن التوقـف عندهـا عـلى مبعـدة نحـو أربعـين ميـلًا جنوبـًا. لوومـان، آيداهـو. عـلى الطريـق السريـع مبـاشرةً. كانـا قـد توقفـا هنـاك لمـلء السـيارة بالبنزيـن في رحلـة القـدوم. مـا زال في إمكانـه تخيُّـل سـتولينجز إلى جـوار مضخـة البنزيـن في بدلتـه السـوداء، يملأ الخزان. كان إيثـان قـد تمشَّى إلى حافـة الطريـق السريـع الخـالي، وحـدَّق إلى الأبنيـة المهجـورة عـلى الناحيـة الأخـرى مـن الطريـق؛ نُـزُل محطـم ومتجـر عمومـي، وحافلـة طعـام مـا زالـت عـلى قيـد الحيـاة لكنهـا عديمـة الجاذبيـة، وقـد فاحـت رائحـة الشـحم في الدخـان الـذي تصاعـد مـن فتحـة في السـقف.

كان قـد اتصـل بتيريـزا مـن تلـك البقعـة ولم تكـن هنـاك إلا شَرطـة واحـدة في شـبكة الاتصـال.

بالكاد يتذكر محادثتهما، كان ذهنه شاردًا.

آخر مرة تحدث فيها لزوجته.

تمنى لو كان قد أخبرها أنه يحبها.

صرخـت الفرامـل عندمـا أوقـف السـيارة البويـك تمامًـا، وإشـارة الانعطـاف يسـارًا تطلـق صفيرهـا المتقطـع. باسـتثناء حفنـة أشـخاص عـلى الأرصفـة، كان وسـط البلـدة ميتًـا والشـارع الرئيـسي خاليًـا عـلى مـدى بـصره.

اعتـدل إيثـان عـلى الطريـق بعـد انعطافـة متمهلـة إلى اليسـار وسرَّع قيادتـه تدريجيًـا، متوجهًـا إلى الجنـوب.

مرَّ بالحانة، والفندق، والمقهى.

بعد سبعة مربعات سكنية، المستشفى.

لم تكن هناك أي ضواحٍ.

انتهت البنايات ببساطة.

زاد سرعته.

يـا إلهـي! شـعر بإحسـاسٍ طيـبٍ لكونـه راحـلًا، أخـيرًا سـيخرج، ارتفـع ثقـل محسـوس عـن كاهليـه مـع كل دورة للعمـود المرفقـي؛ كان ينبغـي لـه أن يفعـل هـذا منـذ يومـين.

لم تكـن هنـاك أي علامـات عـلى السـكنى هنـا، يمـضي الطريـق في مسـارٍ مباشرٍ عـبر غابـة مـن أشـجار الصنوبـر بـدت عملاقـة للغايـة حتـى لكأنهـا نمـت في أول الخلـق.

الهواء المندفع إلى داخل السيارة كان باردًا وعبقًا.

حام ضباب خفيف بين الأشجار، وعبر الطريق في بعض الأماكن.

سطعت المصابيح الأمامية عبره، مع انخفاض مستوى الرؤية.

أضاء نور خزان الاحتياطي.

اللعنة!

كان الطريـق الخـارج مـن البلـدة جنوبًـا ينحـدر ويلتـف لعـدة آلاف مـن الأقـدام المؤديـة إلى المعبر، وفي أي لحظـة الآن يمكـن أن يبـدأ الصعـود. سـيحرق هـذا مـا تبقـى مـن بنزيـن قليـلٍ. ينبغـي لـه أن يسـتدير عائـدًا الآن، ويتوجـه إلى البلـدة، ويمـلأ الخـزان بمـا يكفـي مـن الوقـود للوصـول إلى لوومـان.

ضغط إيثان على الفرامل كي يقوم بالتفافة طويلة حادة.

كان الضبـاب كثيفًـا في وسـط المنعطـف، وبـدا لونـه الأبيـض حاجبًـا للرؤيـة في الإضـاءة العاليـة للمصابيـح الأماميـة، قلَّـل إيثـان السرعـة إلى درجـة الزحـف وهـو لا يجـد مـا يرشـده إلا فواصـل الطريـق الصفـراء المزدوجـة.

استقام الطريق، وانطلق خارجًا من الضباب، خارجًا من الأشجار.

على البُعد لاحت لافتة.

كان مـا زال عـلى مبعـدة ثُمـن ميـل منهـا، وكل مـا اسـتطاع أن يميـزه أربعـة شـخوص مرسـومة متشـابكة الأذرع.

ابتسامات واسعة بأسنان بيضاء.

ولد يرتدي شورتًا وقميصًا مخططًا.

أم وابنة يرتديان فستانين.

الأب يرتدي بدلة، وقبعة فيدورا، ويلوِّح.

بحروف كبيرة بارزة، تحت صورة الأسرة المثالية المبتسمة:

مرحبًا في وايوارد باينز

حيث الفردوس هو الوطن

زاد إيثـان مـن سرعتـه متجـاوزًا اللافتـة، وقـد امتـد الطريـق موازيًـا لسـياج مـن قضيبـين ممتديـن، ومـرَّت أضـواء المصابيـح الأماميـة عـلى مرعـى وقطيـع مـن الماشـية.

أضواء من بعيد.

انحسر المرعى خلفه.

سرعان ما كان يمرُّ بالمنازل مرة أخرى.

اتسع الطريق، واختفت الفواصل الصفراء المزدوجة.

تحوَّل إلى الجادة الأولى.

عاد إلى البلدة.

توقـف إيثـان عنـد الرصيـف، وحـدَّق أمامـه عـبر الزجـاج الأمامـي، محـاولًا أن يكبـح شـعوره بالهلـع. ثمـة تفسـير بسـيط: لقـد فاتـه الطريـق الجانبـي المفـضي إلى المعـبر، لقـد تجـاوزه مندفعًـا في تلـك البقعـة مـن الضبـاب الكثيـف.

دار بالسـيارة في عنـفٍ وعـاد إلى الطريـق مسرعًـا، متجـاوزًا السـتين ميـلًا في السـاعة قبـل أن يبلـغ المرعـى.

عـاد إلى الضبـاب وأشـجار الصنوبـر الشـاهقة، وبحـث عـن لافتـة، عـن أي إشـارة للمـكان الـذي ينحـرف فيـه الطريـق نحـو المعـبر، لكـن لم يكـن هنـاك شيء.

في القسم الأكثر حدة من المنعطف، توقف إلى جانب الطريق.

ترك السيارة دائرة، وخطا خارجًا في الليل.

عبر إلى الناحية الأخرى وبدأ يسير بمحاذاة حافة الطريق.

بعد مائة قدم، بلغ الضباب درجة كافية لإخفاء سيارته تمامًا، كان ما زال في مقدوره أن يسمعها وهي تدور في مكانها، لكن الصوت ازداد خفوتًا مع كل خطوة.

سار مائتي ياردة قبل أن يتوقف.

لقد وصل إلى الجانب الآخر من المنعطف، حيث يستقيم الطريق مرة أخرى ويمتد عائدًا إلى البلدة.

وكانت كركرة المحرك قد تلاشت تمامًا.

لم تكن هناك ريح ووقفت الأشجار شاهقة وصامتة.

انساب الضباب من حوله، وبدا كأنه يحمل شحنة كهربية، لكنه علم أن هذا الطنين لم يكن إلا بعض الضوضاء المجهرية داخله، في رأسه هو، انكشفت فقط في غياب الصوت التام.

مستحيل.

لا يجب أن يدور الطريق هنا.

يجب أن يمتد عبر أشجار الصنوبر تلك نصف ميل آخر، وبعد ذلك تبدأ السلسلة الطويلة من الانحناءات الصاعدة لذلك الجبل إلى الجنوب.

خطا بحذرٍ من حافة الطريق إلى داخل الأشجار.

كان السير على أرضية الغابة المفروشة بأوراق الصنوبر أشبه بالسير على وسائد.

الهواء رطب وقارص البرودة.

تلك الأشجار .. لم يرَ قطُّ أشجار صنوبر بهذا الطول، ومع قلة الحشائش النامية أسفلها التي يمكن أن تنافسها، كان التحرك بين

الجذوع الهائلة سهلًا -غابة بها حيز ومتنفَّس- يمكنك أن تتوه قبل أن تدرك ذلك.

خرج من الضباب، وعندما رفع رأسه الآن، لمح نقاطًا ثلجية من ضوء النجوم ما بين قمم الأشجار.

بعد خمسين ياردة أخرى، توقف. ينبغي له أن يعود الآن. بالتأكيد هناك طرق أخرى للخروج من البلدة، وكان قد بدأ بالفعل يشعر بالارتباك يتسلَّل داخله. ألقى نظرة وراءه، واعتقد أنه رأى المسار العام الذي اتخذه للوصول إلى هذه البقعة، لكن لا يمكنك أن تتأكد. بدا كل شيء متشابهًا.

خارج الغابة أمامه: صرخة.

جمد في مكانه تمامًا.

لم يكن هناك إلا خفق قلبه.

لا يمكن مقارنة هذه الصرخة إلا بعذاب أو ذعر إنساني. مثل صرخة الضبع أو البانشي[1]. مثل ذئاب البراري في أكثر حالاتها جنونًا. مثل صيحة الثورة[2] الأسطورية. عالية وحادة. هشَّة. رهيبة. وعلى مستوى ما، كان هناك وعي خافت -يطنُّ تحت السطح مثل كابلات كهربائية مدفونة- بأن هذه ليست المرة الأولى التي يسمعها فيها.

مرة أخرى، الصرخة.

أقرب.

---

(1) البانشي تعني بالأيرلندية المرأة الجنيَّة، هي روح مؤنثة في الأساطير الأيرلندية تُنذِر بوفاة أحد أفراد الأسرة عادة عن طريق الصراخ أو النواح. (المترجم)

(2) صيحة الثورة أو صرخة المتمردين هي صيحة الحرب التي استخدمها الجنود الكونفيدراليون خلال الحرب الأهلية الأمريكية عند الهجوم على أعدائهم لإخافتهم وإظهار روحهم المعنوية العالية. (المترجم)

جهاز إنذار ينطلق بين عينيه، وفي رأس معدته: اترك هذا المكان حالًا، لا تفكر في الأمر، فقط، اذهب.

بعد ذلك كان يجري عبر الأشجار، لاهثًا بعد عشرين خطوة، عائدًا إلى الضباب والبرد.

انحدرت الأرض أمامه صاعدة، وتسلق على يديه وركبتيه إلى أن عاد متعثرًا إلى الطريق. رغم البرد، كان متعرقًا، وعيناه تحرقانه من الماء المالح. هرول بمحاذاة الخط الأصفر المزدوج، راجعًا من خلال المنعطف، إلى أن رأى عموديْ الضوء من بعيدٍ، يشقَّان الضباب.

أبطأ سرعته إلى أن عاد يمشي، وسمع هدير السيارة المسروقة يعلو على ضوضاء مجهوده.

وصلها، وفتح باب مقعد السائق. دخل خلف عجلة القيادة، ووضع قدمه على الفرامل، ومدَّ يده نحو ذراع نقل السرعات، متلهفًا على مغادرة هذا المكان.

لمح حركة من طرف عينه اليسرى، ظِلٌّ في المرآة الجانبية، تحوَّلت عيناه إلى مرآة الرؤية الخلفية أعلى لوحة العدادات، وفي الوهج الأحمر للمصابيح الخلفية، رأى ما فاته: سيارة الدفع الرباعي واقفة خلف ممتص الصدمات الخلفي لسيارته بثلاثين قدمًا، يكاد يخفيها الضباب تمامًا.

عندما نظر إلى الوراء عبر نافذة مقعده، وجد ماسورة بندقية أمامه، على مبعدة بضع بوصات فقط. سطع ضوء كشَّاف في الداخل، مضيئًا داخل السيارة بوهجٍ قاسٍ انعكس من فوق الكروم والزجاج.

- لا بد أنك فقدت عقلك اللعين.

المأمور بوب.

أتى الانزعاج الغاضب في صوته مكتومًا بعض الشيء من خلال الزجاج.

كانت يد إيثان ما زالت على ذراع نقل السرعات، وهو يسأل نفسه إن قام بدفعه إلى وضع القيادة والضغط على دواسة البنزين، هل سيطلق بوب النار عليه؟ من هذه المسافة مع سلاح عيار 12، نحن نتكلم عن الإطاحة بالرأس.

قال بوب: "ببطء شديدٍ ضع كلتا يديك على عجلة القيادة واستخدم يمناك لإيقاف محرك السيارة".

قال إيثان عبر الزجاج: "أنت تعرف من أكون، ويجب أن تعرف بدلًا من أن تتدخل، أنا سأترك هذه البلدة".

- فلتذهب إلى الجحيم.
- أنا عميل لحكومة الولايات المتحدة، ولديَّ كامل...
- لا، أنت شخص بلا بطاقة هوية ولا شارة، سرق للتوِّ سيارة، وربما قتل عميلًا فيدراليًّا.
- عم تتحدث؟
- لن أخبرك مرة أخرى يا زميل.

شيء ما حثَّ إيثان على الانصياع، همس له بأن دَفْع هذا الرجل يمكن أن يكون خطرًا. بل وقاتلًا.

قال إيثان: "لا بأس، فقط أعطني لحظة؛ السيارة دائرة بوصل الأسلاك؛ عليَّ أن أفصل الأسلاك كي أوقف المحرك".

ضغط إيثان بسرعة زرَّ إضاءة السيارة من الداخل، وأدخل يديه تحت عمود التوجيه، وفصل الأسلاك البيضاء.

انطفأت الأضواء.

سكت المحرك.

لا شيء إلا الوهج المؤلم من كشاف بوب.

- اخرج!

وجـد إيثـان مقبـض البـاب، وكان عليـه أن يدفـع بكتفـه البـاب كي ينفتـح. خطـا إلى الخـارج. تدفـق الضبـاب عـبر شـعاع الضـوء. كان بـوب ظِـلًا غاضبًـا خلـف الكشـاف والبندقيـة، وقـد تـوارت عينـاه تحـت حافـة قبعـة راعـي البقـر التـي يرتديهـا.

شـمَّ إيثـان زيـت البندقيـة، وتصـوَّر بـوب رجـلًا مكرسًـا للرعايـة المحبـة الحانيـة لترسـانته مـن الأسـلحة.

دمدم بوب: "أتذكُر عندما أخبرتك ألا تغادر البلدة؟".

كان إيثـان لـيرد، لكـن شـعاع الضـوء انحـرف ضاربًـا الأرض، وأدرك إيثـان قبـل جـزء مـن الثانيـة مـن اصطدامـه بـه أن الظـل المتحـرك نحـو رأسـه هـو كعـب البندقيـة.

***

انغلقـت عـين إيثـان اليـسرى مـن الضربـة؛ أحـس بهـا سـاخنة ومتضخمـة وتخفـق بنبضـه. مـن خـلال اليمنـى، رأى غرفـة التحقيـق.. خانقـة وجدبـاء. حوائـط بيضـاء مـن قوالـب الطـوب الخرسـانية، أرضيـة خرسـانية، منضـدة خشـبية عاريـة، جلـس عـلى طرفهـا الآخـر بـوب، دون قبعتـه وسـترته، وكُـمَّا قميصـه الأخـضر الداكـن مُشـمرَّان ليكشـفا سـاعديه السـميكين والمنمشـين والمفتـولي العضـلات.

مسـح إيثـان خيـط الـدم الجديـد المنسـال عـلى جانـب وجهـه، والـذي ينـزُّ مـن جـرح عميـق أعـلى حاجبـه الأيـسر.

حدَّق إلى الأرضية، وقال: "هل يمكن أن أحصل على منشفة؟".

- لا، يمكنك أن تجلس هنا وتنزف وتجيب عن أسئلتي.

- فيما بعد، عندما ينتهي كل هذا، وتخرج من السجن، سوف أدعوك إلى بيتي لترى شارتك، ستكون معروضة خلف الزجاج، في إطار، معلقة فوق رف مدفأتي.

اتسعت ابتسامة بوب وهو يقول: "أتظن هذا، هه؟".

- لقد اعتديتَ على عميل فيدرالي، سينهي هذا مسيرتك المهنية.

- قل لي مرة أخرى يا إيثان، كيف تأتَّى لك بالضبط أن تعرف أمر الجثة في البيت رقم 604؟ ولا تقل لي شيئًا من هذا الهراء عن النادلة المختفية.

- عمَّ تتحدث؟

- الحقيقة.

- ما أخبرتك به هو الحقيقة.

- حقًّا؟ أتريد الاستمرار في هذا الطريق؟ لأني ذهبت إلى الحانة.

ودقَّ بوب بأصابعه على سطح المنضدة.

- لا يوجد لديهم حتى نادلة أنثى في فريق عملهم، ولم يرك أحد هناك منذ أربع ليالٍ.

- أحدهم يكذب.

- إذن ما أتساءل عنه هو... لماذا جئتَ **حقًّا** إلى وايوارد باينز؟

- أخبرتك.

- الـ (وصنع بإصبعيه قوسي تنصيص) تحقيق؟

أخذ إيثان نفَسًا عميقًا، وشعر بالغضب يتحشرج في صدره مثلما تُصفِّر الرمال في جمجمة حال لونها. عاوده الألم القاتل في رأسه، وعرف

أنـه في جانـب منـه بسـبب الصدمـة التـي تعـرض لهـا وجهـه بفضـل بـوب. لكنـه أحـس بـه أيضًـا مثـل ذلـك الطَـرق القديـم المألـوف في قـرارة جمجمتـه والـذي ابتُـلي بـه منـذ اسـتيقظ قـرب النهـر غـير عـارف مَـن أو أيـن كان، وهنـاك شيء آخـر، هـذا الشـعور المقلـق بأنـه مـرَّ بهـذا التحقيـق مـن قبـل.

قـال إيثـان: "ثمـة شيء خاطـئ في هـذا المـكان" وقـد تجمعـت المشـاعر مثـل غيـوم سـوداء في صـدره، تراكُـم لمـا يسـاوي أربعـة أيـام مـن الألم والحـيرة والعزلـة. "رأيـت زميلتـي القديمـة هـذا المسـاء".

- من؟

- كيـت هيوسـون، أخبرتـك عنهـا. غـير أنهـا كانـت أكـبر سـنًّا، أكـبر عـلى الأقـل بعشريـن سـنة مـما ينبغـي لهـا أن تكـون، كيـف يمكـن هـذا؟ قـل لي.

- ليس ممكنًا.

- وكيـف لا يمكننـي أن أتصـل بـأي شـخص خـارج هـذه البلـدة؟ كيـف لا يوجـد أي طريـق للخـروج مـن هـذه البلـدة؟ هـل هـذه تجربـة مـن نـوعٍ مـا؟

- بالطبـع هنـاك طريـق للخـروج مـن البلـدة، هـل لديـك أي فكـرة عـن قـدر الجنـون اللعـين الـذي تبـدو عليـه؟

- ثمة شيء خاطئ في هذا المكان.

- لا، ثمة شيء خاطئ فيك.. لديَّ فكرة.

- ماذا؟

- مـاذا لـو أعطيتـك ورقـة، وسـمحت لـك ببعـض الوقـت كي تكتـب كل شيء تريـد أن تخـبرني بـه، ربمـا أمنحـك سـاعة كي تفعـل هـذا.

أصاب هذا العرض إيثان بالقشعريرة.

تابع بوب: "أو ربما ستجيب عن أسئلتي بطريقة أسرع لو كنت أرتدي لثامًا أسود؟ أو لو علقتك من رسغيك وقمت بتقطيعك؟ هل يعجبك التقطيع يا إيثان؟" ودسَّ بوب يده في جيبه، ثم ألقى لإيثان شيئًا عبر المنضدة.

قال إيثان: "هل حصلتَ عليها؟" ورفع المحفظة، وفتحها، بطاقة الخدمة السرية في الجيب البلاستيكي الشفاف، لكنها ليست بطاقته.

كانت الشارة صادرة باسم وليام ف. إيفانز.

تساءل إيثان: "أين بطاقتي؟".

- نعم، أين؟ وليام إيفانز، عميل خاص، الخدمة السرية، مكتب بويسي الميداني. قل لي مرة أخرى كيف عرفت أنه الموجود في المنزل المهجور؟

- قلت لك، أُرسلت إلى هنا للبحث عنه هو وكيت هيوسون.

- أوه، صحيح. أنسى باستمرارٍ، لقد اتصلت بعميلك هاسلر في سياتل، بالمناسبة، وهو لم يسمع بك قط.

مسح إيثان مزيدًا من الدماء عن وجهه، ومال إلى الأمام في مقعده.

- لا أعرف ماذا تحاول أن تفعل، أي لعبة...

- نظريتي أن العميل إيفانز كان يتعقبك، ولحقك أخيرًا هنا في وايوارد باينز. لذا قتلته وخطفتَ زميله، العميل ستولينجز، منتويًا الفرار من البلدة في سيارتهما. غير أنه في طريق الهروب، يلاحقك القليل من الحظ السيئ، وتتعرض لحادث سيارة. يُقتل ستولينجز، وتتلقى صدمة شديدة في الرأس. ربما

أدت إلى إصابتك بالجنون، وعندما استيقظت، بدأت بالفعل تؤمن أنك هذا العميل في جهاز الخدمة السرية.

- أعرف من أكون.
- حقًّا؟ ألا تجد من الغريب أن أحدًا لا يستطيع أن يحدد هويتك؟
- نعم، لأنها تتعرض عمدًا لـ..
- صحيح، نحن جميعًا متورطون في مؤامرة ما كبيرة.

وضحك بوب.

- ألا ترى أنه ربما لا يستطيع أحد العثور على شارة إيثان بيرك لأنها غير موجودة؟ لأنك غير موجود؟
- أنت مجنون.
- أعتقد أنك ربما تقوم بعملية إسقاط يا زميل. أنت قتلت العميل إيفانز، أليس كذلك أيها...
- لا.
- ... أيها المريض، المجنون السيكوباتي.. بمَ ضربته حتى الموت؟
- اللعنة عليك!
- أين سلاح الجريمة يا إيثان؟
- اللعنة عليك!

كان بمقدور إيثان أن يشعر بالغضب يتفجر داخله، غضب صافٍ ملتهب.

قال بوب: "اسمع، لا أعرف إن كنت مجرد كاذب لعين، أو إن كنت تصدق بالفعل هذه الكذبة المتقنة التي ألّفتها".

نهض إيثان.

غير مستقر على قدميه.

شعور عميق بالغثيان ينتشر في قرارة معدته.

سال الدم على وجهه، متقطرًا من ذقنه في بركة صغيرة على الأرضية الخرسانية.

قال إيثان: "سأرحل.." وهو يتحرك نحو الباب خلف المأمور. "افتحه".

لم يتحرك بوب. قال: "اذهب واجلس مكانك الآن قبل أن تؤذي نفسك حقًّا" قالها بثقة رجل فعل مرات كثيرة ذلك الشيء الذي يهدد به، ويسعده أن يفعله مرة أخرى.

دار إيثان حول المنضدة، متجاوزًا المأمور إلى الباب.

جذب المقبض.

مغلق بالقفل.

- عُد وضع مؤخرتك على المقعد.. لم نبدأ حتى بعد.

- افتح الباب.

نهض بوب ببطء، واستدار، وتقدم مقتربًا من إيثان. اقترب بما يكفي لأن يشم رائحة القهوة في أنفاسه، أن يرى البقع على أسنانه. كان أطول من إيثان بأربع بوصات وأثقل ربما بأربعين رطلًا.

- هل تعتقد أني لا أستطيع أن أجعلك تجلس يا إيثان؟ أنَّ فعل هذا يتجاوز قدرتي؟

- هذا احتجاز غير قانوني.

ابتسم بوب وقال: "أنت تفكر بطريقة خاطئة تمامًا يا فتى. لا يوجد شيء اسمه القانون أو الحكومة في هذه الغرفة، فقط أنا وأنت، أنا السلطة الواحدة والوحيدة في عالمك الصغير، الذي تتكوَّن حدوده من هذه الحوائط، يمكنني أن أقتلك الآن فورًا لو أردت".

ترك إيثان تقلصات التوتر في كتفيه تسترخي، رافعًا كلتا يديه براحتين مفتوحتين، فيما أمل أن يظنه بوب خطأً علامة استسلام وهزيمة.

تراجع برأسه إلى الوراء، وخفض ذقنه وقال: "لا بأس، أنت على حقٍّ؛ يجب أن نستمر في الحديث...".

وقفز دافعًا جسده بكعبي قدميه كما لو أنهما محملان على زنبركين معدنيين، موجهًا عرض جبهته إلى أنف بوب مباشرةً.

تحطم غضروف الأنف، وأحسَّ إيثان بالدماء تسيل على شعره بينما يطوق فخذي بوب الهائلتين، ويرفعه من ساقيه، والمأمور يجاهد كي يمسك رقبة إيثان بين عضلة ذراعه وساعده، لكن بعد فوات الأوان.

انزلق كعبا حذاء بوب تحته، بعد أن وطأ بعض الدماء التي جعلت الأرضية ملساء، وأحس إيثان بالوزن الكبير للرجل يحمله الهواء.

دفع كتفه في معدة الرجل وأسقطه بعنفٍ على الأرض الخرسانية.

انفجرت دفعة من الهواء من رئتي بوب، واعتدل إيثان في جلسته، معتليًا المأمور وهو يميل بذراعه اليسرى إلى الوراء ليناوله ضربة مخلب براحته.

رفع بوب وركيه بقوة ودفع وجه إيثان نحو ساق المنضدة الخشبية بسرعة كافية لشق وجنته.

جاهـد إيثـان كي ينهـض وسـط ذرات ضـوء موجع رصَّـع رؤيتـه بالنجوم، لكـن عندمـا ضبـط سـاقيه تحتـه وكافـح كي يقـف، أدرك أنـه اعتـدل بعـد فـوات الأوان بثانيـة واحـدة فقـط.

لعـلَّ إيثـان كان يمكـن لـه أن يتفـادى هـذه اللكمـة لـو كانـت رأسـه صافيـة، وردود أفعالـه متأهبـة، لكـن في وضعـه الحـالي، كانـت ردود أفعالـه تـأتي في نصـف سرعتهـا.

قـوة اللكمـة جعلـت رأس إيثـان تـدور إلى حـد أن يشـعر بفرقعـة عمـوده الفقـري الصـدري.

وجـد نفسـه دائخًـا ومائـلًا عـلى سـطح تلـك المنضـدة الخشـبية، متطلعًـا عـبر عينـه الوحيـدة السـليمة إلى المأمـور المهـووس وهـو يهـوي بلكمـة أخـرى، وأنفـه المكسـور منفـوش في وجهـه كأنـه انفجـر.

رفـع إيثـان ذراعيـه في محاولـة لحمايـة وجهـه، لكـن قبضـة المأمـور شـقَّت طريقهـا بسـهولة عـبر يديـه وحطَّمـت أنـف إيثـان.

تدفقت الدموع من عينيه، وملأ الدم فمه.

زأر المأمور: **من تكون؟**

لم يكـن بمقـدور إيثـان أن يجيـب حتـى لـو أراد؛ كان وعيـه ينزلـق منـه، وبـدأ مـا اسـتطاع أن يـراه مـن غرفـة التحقيـق يـدور حـول نفسـه، وتتخللـه لقطـات مـن مـكان آخـر...

يعـود إلى تلـك الحجـرة ذات الجـدران البُنيـة والأرضيـة الترابيـة في عشـوائيات الجـولان، مراقبًـا مصباحًـا كهربائيًـا عاريًـا يتأرجـح فـوق رأسـه بينمـا يحـدِّق إليـه آصـف مـن وراء لثـام أسـود لا يكشـف إلا عـن عينـين بُنيتـين تضمـران الـشر وفـم مبتسـم يكشـف عـن أسـنان أكـثر بياضًـا وكـمالًا مـن أن تكـون نتاجًـا لأي هـوة شرق أوسـطية لعينـة تنتمـي إلى العـالم الرابـع.

يتدلى إيثان من رسغيه المربوطين في سلسلة مثبتة في السقف، وقدماه قريبتان من الأرضية بما يكفي لتخفيف الضغط المدمر للدورة الدموية بالوقوف على أطراف إصبعي قدميه الكبيرتين. لكنه لا يستطيع أن يقوم بهذا إلا لثوان كل مرة قبل أن تنهار عظام أصابعه تحت ثقله. عندما تنكسر في النهاية، لن تكون لديه وسيلة لإيقاف فقد الدم المتدفق إلى يديه.

يقف آصف على مبعدة بوصات من وجه إيثان، وأنفاهما متلامسان تقريبًا.

"فلنجرب سؤالًا لا يجب أن تكون لديك مشكلة في إجابته... من أي جزء من أمريكا أنت يا ضابط الصف الكبير إيثان بيرك؟" يسأله الرجل بإنجليزية ممتازة مصبوغة بلكنة بريطانية.

- واشنطن.
- عاصمتكم؟
- لا، الولاية.
- آه. لديك أطفال؟
- لا.
- لكن متزوج.
- نعم.
- ما اسم زوجتك؟

لا يجيب إيثان، فقط يتأهب للكمة أخرى.

يبتسم آصف. "استرح، لا مزيد من اللكمات حاليًا. هل مقولة /الموت من ألف جرح/ مألوفة بالنسبة إليك؟" يرفع آصف شفرة حلاقة تلتمع تحت المصباح. "أصلها وسيلة تعذيب صينية، أُلغيت

عـام *1905*، واسـمها لينجـشي، يترجمونهـا أيضًـا إلى *[التقطيـع البطـيء]* أو *[المـوت البطـيء]*".

يتحـرك آصـف نحـو حقيبـة الأوراق المفتوحـة عـلى طاولـة قريبـة، مبطنـة بطبقـة سـوداء صلبـة مـن الفـوم وتسـتقر عليهـا مجموعـة مخيفة مـن السـكاكين كان إيثـان يحـاول تجاهلهـا طـوال السـاعتين الماضيتـين.

وجَّـه بـوب ضربـة أخـرى إلى إيثـان، وإلى جانـب رائحـة دمـه نفسـها، أطلقـت اللكمـة ذكـرى رائحـة دمـاء قديمـة متعفنـة عـلى أرضيـة بيـت التعذيـب ذاك في الفالوجـة...

يقـول آصـف: "سـتؤخذ الآن إلى حجـرة، وتُعطـى قلـمًا، وقطعـة ورق، وسـاعة مـن الزمـن. تعـرف مـا أريـده..".

- لا أعرف.

يوجِّه آصف لكمة إلى بطن إيثان.

وجَّه بوب لكمة إلى وجه إيثان.

- تعبـتُ مـن ضربـك، تعـرف مـا أريـد، كيـف لا يمكنـك أن تعـرف؟ لقـد سـألتك عشريـن مـرة حتـى الآن، قـل لي إنـك تعـرف، فقـط قـل لي ذلـك.

زعق بوب: من تكون؟

يشهق إيثان: أعرف..

- أمامك ساعة، وإذا لم يسعدني ما ستكتبه، ستموت باللينجشي.

يُخرج آصف صورة ملتقطة بكاميرا فورية من دشداشته السوداء.

يغلـق إيثـان عينيـه لكنـه يفتحهـما مـرة أخـرى عندمـا يقـول آصـف: "انظـر إليهـا وإلا سـأُقلّم جفونـك".

هي صورة لرجل في نفس الحجرة، معلق أيضًا من رسغيه إلى السقف.

أمريكي، ربما يكون جنديًا، رغم أنه من المستحيل معرفة ذلك.

مرَّت ثلاثة شهور من القتال، ومع ذلك لم يرَ إيثان قط بترًا وتشويهًا يقارب هذا.

"ابن بلدك حي في هذه الصورة.." يقولها معذبه، ولمحة من الفخر تتسلل إلى صوته.

حاول إيثان أن يفتح عينيه ليرى بوب. أحس أنه على وشك أن يفقد وعيه، ورغب في ذلك بشدة سواء لتخفيف ألمه الحالي، أو لإعاقة الصورة الواضحة التي استحضرها ذهنه لآصف، لحجرة التعذيب تلك.

يقول آصف: "الشخص التالي الذي سيتدلى من هذا السقف سيرى صورة شبيهة لك، هل تفهم؟ لديَّ اسمك، ولديَّ أيضًا موقع إلكتروني، سأضع عليه صورًا لما سأفعله بك حتى يراها العالم، ربما ستراها زوجتك أيضًا، اكتب كل ما أريد أن أعرفه، والذي تحتفظ به داخلك حتى الآن".

تساءل بوب: من تكون؟

ترك إيثان ذراعيه تسقطان إلى جانبه.

- من تكون؟

لم يعد حتى يحاول الدفاع عن نفسه، مفكرًا: ثمة جزء فيَّ لم يغادر قط تلك الحجرة في الفالوجة التي فاحت برائحة الدم الزنخ.

استعد لرصاصة الرحمة من بوب التي ستطيح بوعيه، وتقتل الذكريات القديمة، وتقتل وجعه الحالي.

بعد ثانيتين، جاءت.. لكمة ارتطمت بذقنه وتبعها انفجار من ضوء أبيض ساخن مثل انفجار مصباح كهربائي عارٍ.

6

كانـت غسـالة الأطبـاق مـلأى وتـئنُّ طـوال دورة غسـيلها، ووقفـت تيريـزا -بعـد أن تجـاوزت بمسـافة نقطـة الإنهـاك الكامـل- عنـد الحـوض تجفِّـف آخـر طبـق تقديـم. أعادتـه إلى الخزانـة، وعلَّقـت المنشـفة عـلى بـاب الثلاجـة، وأطفـأت النـور.

وبينـما كانـت تتحـرك عـبر غرفـة المعيشـة المظلمـة نحـو السـلم، أحسَّـت بـشيء يسـتولي عليهـا أسـوأ بكثـيرٍ مـن التداعـي العاطفـي لهـذا اليـوم الطويـل، الطويـل.

خواء يبتلعها.

خـلال بضـع سـاعات قصـيرة، سـتشرق الشـمس، ومـن نـواحٍ عديـدة، سـيكون هـذا أول صبـاح مـن بقيـة حياتهـا مـن دونـه. دار هـذا اليـوم الماضي حـول الـوداع، حـول اسـتجماع أي قـدرٍ ضئيـلٍ مـن السـلام يمكنهـا

أن تجـده في عـالم مـن دون إيثـان. أقـام أصدقاؤهـما الحـداد عليـه، وبالتأكيـد سـيفتقدونه دائمًـا، لكنهـم سـيتابعون حياتهـم -كانـوا بالفعـل يتابعونهـا- وسينسـون حتـمًا.

لم تسـتطع أن تتخلّـص مـن الشـعور بأنـه بدايـةً مـن الغـد، سـتكون وحيـدة.

في حزنها.

حبِّها.

خسارتها.

كان هنـاك شيء مـا مقبضًـا للغايـة في هـذه الفكـرة حتـى إنهـا اضطـرَّت إلى التوقـف عنـد أسـفل السـلم، ووضعـت يدهـا عـلى الدرابزيـن، والتقطت أنفاسها.

أفزعها الطَّرْق على الباب، ورفع نبض قلبها إلى أعلى درجة.

التفتــت تيريــزا وحدَّقــت إلى البــاب، ومــرَّ بخاطرهــا أنهــا تخيلــت الصــوت.

الساعة الرابعة وخمسون دقيقة صباحًا.

ماذا يمكن لأحد أن يريد...

طرقة أخرى.. أشد من الأولى.

عـبرت الردهـة حافيـة القدمـين ووقفـت عـلى أطـراف أصابعهـا لتنظـر مـن خـلال العـين السـحرية.

تحـت ضـوء مصبـاح الشرفـة الأماميـة، رأت رجـلًا واقفًـا عـلى مدخـل الشرفـة ممسـكًا بمظلـة.

كان قصـيرًا، أصلـع تمامًـا، وجهـه ظِـلٌّ بـلا تعبـيرٍ تحـت قـماش المظلـة الـذي يقطـر مـاءً. يرتـدي بدلـة سـوداء جعلت شـيئًا مـا ينقبـض في صدرها؛

أهـو عميـل فيـدرالي يحمـل خـبراً عـن إيثـان؟ أي سـبب آخـر يمكـن أن يدعـو أحـدًا للطـرق عـلى بابهـا الأمامـي في هـذه السـاعة؟

لكن ربطة العنق كانت مخالفة تمامًا.

مخططـة باللونـين الأزرق والأصفـر، مـن طـراز ودرجـة مبالـغ فيهـما بالنسـبة إلى عميـل فيـدرالي.

مـن خـلال العـين السـحرية، راقبـت يـد الرجـل وهـي تمتـد وتطـرق البـاب مـرة أخـرى.

قـال: "مسـز بـيرك، أعـرف أني لـن أوقظـك. رأيتـك عنـد حـوض المطبـخ منـذ بضـع دقائـق فقـط".

قالت من وراء الباب: "ماذا تريد؟"

- أحتاج إلى الحديث معك.

- عمَّ؟

- زوجك.

أغلقت عينيها، وفتحتهما مرة أخرى.

كان الرجل ما زال موجودًا، وكانت في كامل وعيها الآن.

تساءلت: "ماذا عنه؟"

- سـيكون الأمـر أبسـط لـو اسـتطعنا فقـط أن نجلـس ونتحـدث وجهًـا لوجـه.

- نحـن في منتصـف الليـل ولا فكـرة لـديَّ عمـن تكـون، مسـتحيل أن أسـمح لـك بدخـول المنـزل.

- سترغبين في سماع ما يجب أن أقوله.

- قل لي من وراء الباب.

- لا أستطيع.

- إذن عُد في الصباح. سأتحدث إليك ساعتها.

- لـو غـادرتُ يـا مسـز بـيرك، لـن تريـنـي مـرة أخـرى أبـدًا، وثقـي بي، سـتكون هـذه مأسـاة لـك ولـبِن، أقسـم لـك... لا أنـوي بـك شرًا.

- ابتعد عن بيتي وإلا سأتصل بالشرطة.

مدَّ الرجل يده داخل معطفه، وأخرج صورة ملتقطة فوريًا.

عندما رفعها أمام العين السحرية، أحسَّت تيريزا بشيء ينكسر داخلها.

كانـت صـورة لإيثـان ممـددًا عـلى طاولـة عمليـات فولاذيـة، عاريًـا تحـت ضـوء العمليـات الأزرق. بـدا الجانـب الأيـسر مـن وجهـه مصابًـا بكدمـة عميقـة، ولم تسـتطع أن تحـدد إن كان حيًّـا أم ميتًـا، قبـل أن تـدرك مـا تفعلـه، كانـت يدهـا تمتـد إلى السلسـلة وتسـحب المـزلاج.

جذبـت تيريـزا البـاب لتفتحـه بينـما أغلـق الرجـل مظلَّتـه وأسـندها إلى الجـدار الحجـري. خلفـه، بسـط مطـرٌ ثابـت بـارد تيـارًا خفيًـا مـن ضجـة ثابتـة عـلى المدينـة النائمـة. وكانـت سـيارة مرسـيدس سـبرينتر داكنـة اللـون مصفوفـة عـلى مسـافة بضـع منـازل. ليسـت ملمحًـا ثابتًـا مـن ملامـح شـارعها، تسـاءلت إن كانـت هـذه السـيارة ملكـه.

قال الرجل وهو يمد يده: "ديفيد بيلتشر."

تساءلت تيريزا دون أن تمد يدها له: "ماذا فعلت به؟ هل مات؟"

- هل يمكن أن أدخل؟

تراجعـت بينـما خطـا بيلتـشر فـوق العتبـة، وحـذاؤه المدبـب الأسـود يلتمـع بحبـات المطـر.

قال مشيرًا إلى حذائه: "يمكنني أن أخلع هذا.."

- لا تقلق بشأنه.

قادتـه إلى غرفـة المعيشـة، وجلسـا أحدهـما في مواجهـة الآخـر، تيريـزا عـلى الأريكـة، وبيلتـشر عـلى مقعـد خشـبي مسـتقيم الظهـر سـحبته لـه مـن مائـدة الطعـام.

تساءل: "كنتِ تقيمين حفلًا هنا الليلة؟"

- احتفالًا بحياة زوجي.

- يبدو هذا جميلًا.

أحسَّـت فجـأة بتعـبٍ شـديدٍ، وبـدا المصبـاح المعلـق أعـلى رأسـها أشـد مـن أن تتحمَّلـه شـبكيتها.

- لماذا تحمل صورة لزوجي يا مستر بيلتشر؟

- لا يهم.

- يهم بالنسبة إليَّ.

- ماذا إذا كنت سأخبرك أن زوجك حي؟

لمدة عشر ثوان، لم تتنفس تيريزا.

كانـت هنـاك ضجـة غسـالة الأطبـاق، والمطـر السـاقط عـلى السـقف، وقلبهـا النابـض، ولا شيء آخـر.

تساءلت: "من تكون؟"

- لا يهم.

- إذن كيف يمكنني أن أثق...

رفع يدًا، وتجعدت عيناه السوداوان. "من الأفضل أن تسمعي الآن".

- هل أنت مع الحكومة؟

- لا، لكـن مـرة أخـرى، ليـس مهـمًّا مـن أكـون، المهـم مـا لـديَّ لأقدمـه لـك.

- إيثان حي؟

- نعم.

ضاق حلقها، لكنها تمالكت نفسها.

لم تستطع إلا أن تهمس: "أين هو؟"

هـزَّ بيلتـشر رأسـه، وقـال: "يمكننـي أن أجلـس هنـا وأخـبرك بـكل شيء، لكـن لـن تصدقينـي."

- كيف لك أن تعرف؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

- الخبرة.

- لن تخبرني أين زوجي؟

- لا، ولـو سـألِتني مـرة ثانيـة، سـأنهض وأخـرج مـن ذلـك البـاب ولـن ترينـي مـرة أخـرى أبـدًا، وهـو مـا يعنـي أنـك لـن تـري إيثـان مـرة أخرى أبــدًا.

- هل هو مصاب؟

كان بمقدورهـا أن تحـس بكتلـة مضغوطـة مـن المشـاعر بادئـة في التفـكك خلـف ضلوعهـا.

- هو بخيرٍ.

- هل تريد مالًا؟ يمكنني...

- إيثان ليس مخطوفًا لتفتديه، لا علاقة لهذا بالمال يا تيريزا.

مـال بيلتـشر إلى الأمـام، وصـار الآن جالسًـا عـلى حافـة المقعـد يحـدِّق إليهـا بهاتـين العينـين السـوداوين الثاقبتـين اللتـين توحـي حدتهـما بـذكاء هائـل خلفهـما.

- أقدم لك ولابنك عرضًا لمرة واحدة.

مـدَّ بيلتـشر يـده في الجيـب الداخـلي لمعطفـه، وأخـرج بحـرص قنينتـين زجاجيتـين قطـر الواحـدة منهـما نصـف بوصـة وتحتـوي عـلى سـائل شـفاف، ووضعهـما عـلى طاولـة القهـوة. كانتـا مسـدودتين بقطعتـين صغيرتـين مـن الفلـين.

تساءلت تيريزا: ما هذا؟

- لم شمل.

- لم شمل؟

- بزوجك.

- هذه مزحة..

- لا، ليست كذلك.

- من تكون؟

- اسمي هو كل ما يمكنني أن أصرح لك به.

- حسـنًا، هـذا لا يعنـي شـيئًا لي. وأنـت تتوقـع منـي أن... مـاذا؟ أشرب هـذا، وأنتظـر لأرى مـا سـيحدث؟

- يمكنك الرفض على الرحب والسعة يا تيريزا.

- ماذا يوجد في القنينتين؟

- منوِّم قوي سريع المفعول.

- وعندما أستيقظ، سأكون بطريقة سحرية مع إيثان من جديدٍ؟

- الأمر أعقد قليلًا من ذلك، لكن بشكلٍ عامٍّ.. نعم.

أدار بيلتـشر رأسـه، وألقـى نظـرة نحـو النوافـذ الأماميـة، وبعـد ذلـك أعـاد تركيـز نظـره عـلى تيريـزا.

قال: "سيطلع النهار بعد قليل، أحتاج إلى ردِّك."

خلعت نظارتها ودعكت عينيها.

- لست في حالة تسمح لي باتخاذ قرار كهذا.

- لكن لا بد.

استندت تيريزا إلى ساقيها ونهضت واقفة ببطء.

قالت: "يمكن أن يكون هذا سُمًّا.." وهي تشير إلى الطاولة.

- ولم تعتقدين أني أريد أن أؤذيكِ؟

- لا فكرة لديَّ. ربما تورط إيثان في شيء ما.

- لو أردت أن أقتلك يا تيريزا...

توقف لحظة ثم تابع: "يُهيَّأ لي أنك شخص ماهر في قراءة الآخرين، بمَ يخبرك حدسك؟ أني أكذب؟"

سارت إلى رف المدفأة، ووقفت هناك ترنو إلى الصورة العائلية التي التقطوها في العام الماضي، إيثان وبِن يرتديان فانلتين بولو بيضاوين، وتيريزا ترتدي فستانًا صيفيًّا أبيض، وجرت معالجة بشرة الجميع بالفوتوشوب لتصل إلى درجة الكمال وتحددت الملامح تحت إضاءة الأستوديو. وقتها تضاحكوا حول كم بدا الأمر رخيصًا ومسرحيًّا، لكن الآن وهي واقفة هنا في هدأة السحر بغرفة معيشتها، وتُعرض عليها فرصة رؤيته مرة أخرى، أثارت هذه الصورة لثلاثتهم غصة في حلقها.

قالت: "ما تفعله.." وعيناها ما زالتا مثبتتين على زوجها "لو كان خداعًا... فهو أقسى من أن يوصف. أن تقدم لأرملة حزينة فرصة أن ترى زوجها مرة أخرى".

نظرت إلى بيلتشر.

تساءلت: "أهذا حقيقي؟"

- نعم.

- أريد أن أصدقك.

- أعرف.

- أريد هذا بشدة.

- أفهم أنها قفزة تتطلب الثقة والإيمان..

- جئتَ الليلة، من بين كل الليالي. وأنا متعبة وسكرانة وممتلئة بالتفكير فيه حد الانفجار، أظن أن هذا ليس من قبيل الصدفة.

مدَّ بيلتشر يده ورفع إحدى القنينتين.

قدمها لها.

أخذت نفَسًا وأخرجته.

ثم سارت قاطعة غرفة المعيشة نحو السلم.

تساءل بيلتشر: أين تذهبين؟

- لآتي بابني.

- ستفعلينها إذن؟ ستأتين معي؟

توقفت عند أول السلم والتفتت إلى بيلتشر عبر غرفة المعيشة وقالت: "لو فعلت هذا، هل سنستعيد حياتنا القديمة؟"

قال بيلتشر: "ماذا تقصدين بالحياة القديمة؟ هذا المنزل؟ هذه المدينة؟ أصدقاءكم؟"

أومأت تيريزا برأسها.

- لو اخترتِ أنت وبِن أن تجيئا معي، لن يكون أي شيء كما كان أبدًا، لن تريا هذا المنزل مرة أخرى. لذلك وبهذا المعنى، لا.

- لكني سأكون مع إيثان، ستكون أسرتنا معًا.

- نعم.

شرعت في صعود السلم لإيقاظ ابنها. ربما كان الإرهاق، وربما كانت العاطفة، لكن بدا الأمر بالنسبة إليها سيرياليًّا للغاية. بدا الهواء مكهربًا. جزء منها كان يصرخ في خلفية عقلها: يا لكِ من حمقاء! لا يوجد إنسان عاقل يفكر حتي في عرض مثل هذا. لكنها عندما وصلت الطابق الثاني وسارت في الردهة نحو غرفة بِن، اعترفت بأنها ليست عاقلة، ولا تعمل وفق المنطق أو العقل. كانت كسيرة ووحيدة، وأكثر من كل هذا.. كانت تفتقد زوجها بشدة إلى درجة أنه حتى الاحتمال غير المؤكد بوجود حياة معه -مع لم شمل أسرتهم- قد يساوي التنازل عن كل شيء آخر.

جلست تيريزا على سرير بِن وهزَّت كتفه.

تقلَّب الصبي.

قالت: "بِن، استيقظ."

تثاءب وفرك عينيه، ساعدته على الاعتدال في جلسته.

قال: "ما زلنا في الظلام."

- أعرف. لديَّ مفاجأة من أجلك.

- حقًّا؟

- يوجد رجل في الطابق الأرضي، اسمه مستر بيلتشر، سيصحبنا إلى بابا.

استطاعت أن ترى وجه بِن يتوهج في الإضاءة الناعمة للونَّاسة المضاءة بجوار سريره.

أتته كلماتها كلفحة من نور الشمس، بدَّدت سريعًا ضباب النوم، وتبلورت اليقظة في عينيه.

تساءل: "بابا حيٌّ؟"

لم تعرف حتى إن كانت تصدق تمام التصديق.

بمَ أسماها بيلتشر؟

قفزة تتطلب الثقة والإيمان.

- نعم، بابا حيٌّ، هيا، يجب أن أساعدك في ارتداء ملابسك.

***

جلست تيريزا وبِن أمام بيلتشر.

ابتسم الرجل للصبي الصغير، ومدَّ يده قائلًا: اسمي ديفيد، وأنت؟

- بِن.

تصافحا.

- كم عمرك يا بِن؟

- سبعة.

- أوه، عظيم. هل أوضحت لك والدتك لماذا أنا هنا؟

- قالت إنك ستصحبنا إلى بابا.

- هذا صحيح.

التقط بيلتشر القنينتين الصغيرتين وناولهما إلى تيريزا. قال: "حان الوقت. هيا افتحي السدادتين. لا شيء يستدعي الخوف، لأي منكما. سيستغرق الأمر خمسًا وأربعين ثانية بعد أن تبتلعاها، سيكون التأثير مفاجئًا لكن ليس مزعجًا. أعطي بِن القنينة التي تحتوي الجرعة الأصغر وبعد ذلك تناولي قنينتك."

قبضت على غطاء الفلين بين أظافرها وفتحت القنينتين.

فرّت إلى الهواء هبة قوية لرائحة مادية كيماوية غريبة.

عندما تشممت رائحتها صار الأمر واقعيًّا بطريقة ما، أيقظتها الرائحة من حالة الشرود التي سيطرت عليها طوال الساعات الماضية.

قالت: "مهلًا.."

تساءل بيلتشر: "ما الخطب؟"

فيمَ كانت تفكر بحق الجحيم؟ كان إيثان ليقتلها، لو توقف الأمر عليها فقط، ربما، لكن كيف يمكنها أن تعرض ابنها للخطر؟

- ما المشكلة يا ماما؟

- لن نفعل هذا..

قالتها وهي تعيد الغطاءين على القنينتين وتضعهما على طاولة القهوة.

حدَّق إليها بيلتشر من وراء الطاولة: "هل أنت واثقة تمامًا من هذا؟"

- نعم. أنا... أنا فقط لا أستطيع.

- أتفهَّم ذلك.

وتناول بيلتشر القنينتين.

عندما نهض، نظرت تيريزا إلى بِن، ورأت الدموع تلتمع في عينيْ الصبي. "اصعد إلى فراشك".

- لكني أريد أنا أرى بابا.

- سنتحدث عن هذا لاحقًا. هيا.

التفتت تيريزا إلى بيلتشر، وقالت: "أنا آسفة..."

كان بيلتشر قد وضع قناع أكسجين شفافًا على وجهه متصلًا بأنبوب إمداد رفيع يتلوى داخل سترته، في يده الأخرى أمسك بعبوة بخاخة صغيرة.

قالت: "لا، من فضلك..."

اندفعت لفحة من بخار دقيق من الفوهة.

حاولت تيريزا ألا تتنفس، لكن كان بمقدورها بالفعل أن تتذوقها على طرف لسانها، سائل معدني مشوب بالحلاوة. تعلَّق البخار ببشرتها. أحسَّت بمسامها تتشربها. كانت في فمها، أبرد بكثير من درجة حرارة الغرفة، كخيط من النتروجين السائل يزحف هابطًا حلقها.

لفَّت ذراعيها حول بِن وحاولت أن تنهض، لكنها لم تجد ساقيها.

كانت غسالة الأطباق قد توقفت وربض المنزل صامتًا تمامًا ما عدا نقرات المطر على السقف.

قال بيلتشر: "ستخدمان هدفًا أغلى مما يمكنكما أن تتخيلاه أصلًا."

حاولت تيريزا أن تسأله عما يقصد، لكن بدا أن فمها يتجمد.

غاضت كل الألوان من الغرفة؛ تحوَّل كل شيء إلى درجات مختلفة من الرمادي، وأحسَّت بثقلٍ لا يمكنها إيقافه يجذب جفونها إلى أسفل.

كان جسد بِن الصغير قد تراخى بالفعل، وسقط نصفه العلوي على حِجرها، ورفعت وجهها محدقة إلى بيلتشر، الذي كان يبتسم إليها الآن من وراء قناع الأكسجين ويخبو نحو الظلام مع كل شيء آخر.

أخرج بيلتشر جهازًا لاسلكيًا من معطفه وتحدث في السماعة:

- أرنولد، بام، أنا جاهز في انتظاركما.

7

- إيثان، أريدك أن تسترخي، هل تسمعني؟ توقف عن المقاومة.

عبر الضباب، ميَّز إيثان الصوت: الطبيب النفسي.

جاهد كي يفتح عينيه، لكن الجهد لم ينتج إلا شقوقًا من الضوء.

أطـل عليـه جنكينـز مـن وراء نظارتـه ذات الإطـار المعـدني، وحـاول إيثـان أن يحـرك ذراعيـه مـرة أخـرى، لكنهـما كانتـا إمـا مكسـورتين أو مقيدتـين.

قـال جنكينـز: "لقـد قُيِّـد معصـماك إلى حاجـز سريـرك. أوامـر المأمـور. لا تفـزع لكنـك تعـاني حالـة فصاميـة شـديدة."

فتـح إيثـان فمـه، وشـعر عـلى الفـور بجفـاف لسـانه وشـفتيه كأنهـا احترقـت مـن حـرارة الصحـراء.

تساءل إيثان: "ماذا يعني هذا؟"

- يعني أنك تعاني انهيارًا في الوعي بالذاكرة، بل والهوية. القلق الحقيقي هنا أن حادث السيارة تسبَّب في هذا، وأنك تعاني هذه الأعراض لأن مخَّك ينزف. هم يستعدون لإجراء جراحة لك. هل تفهم ما أقوله لك؟

- لا أوافق.

- عذرًا؟

- لا أوافق على الجراحة، أريد أن أُنقل إلى مستشفى في بويسي.

- هذه مجازفة أكبر مما يجب، يمكن أن تموت قبل أن تصل إلى هناك.

- أريد الخروج من هذه البلدة حالًا.

اختفى جنكينز.

تسلَّط ضوء مغشٍ على وجه إيثان من أعلى.

سمع صوت جنكينز: "أيتها الممرضة، هدئيه من فضلك."

- هذا؟

- لا، ذلك.

قال إيثان: "لست مجنونًا."

شعر بجنكينز يربت على يده.

- لا أحد يقول هذا، لقد تعطَّل عقلك فقط، وعلينا أن نصلحه.

مالت الممرضة بام على إيثان فدخلت مجال رؤيته.

جميلة، مبتسمة، وثمة شيء مريح في وجودها، وربما كانت الألفة الروتينية فقط، لكن إيثان تشبث بها رغم ذلك.

- يـا إلهـي! مسـتر بـيرك تبـدو في حالـة فظيعـة. فلـنرَ إن كان بمقدورنا أن نجعـل الأمـر مريحًـا بعـض الـشيء، تمام؟

كانــت الحقنــة عملاقــة، أكــبر حقنــة رآهــا إيثــان في حياتــه، وطرفهــا يقطــر بحبــات فضيــة مــن دواء مــا احتوتــه السرنجــة.

تساءل إيثان: "ماذا فيها؟"

- مجرد شيء بسيط لتثبيت هذه الأعصاب المضطربة.

- لا أريده.

- فلتبق ساكنًا الآن.

نقــرت عــلى الوريــد المرفقــي في الجانــب الســفلي مــن ذراعــه الأيمــن، وإيثــان يتلــوى بقــوة مقاومًــا الأســاور الفولاذيــة حتــى شــعر بأصابعــه تصــاب بالخــدر.

- لا أريده.

رفعــت الممرضــة بــام رأســها، ثــم مالــت إليــه مقتربــة بشــدة مــن وجهــه حتــى اســتطاع أن يشــعر بأهــداب عينيهــا تحتــك بأهدابــه عندمــا ترمــش. شــم رائحــة أحمــر شــفاهها، ومــن مســافة قريبــة، اســتطاع أن يــرى صفــاء عينيهــا الزمرديتــين.

- فلتبــقَ ســاكنًا يــا مســتر بــيرك -وابتســمتْ- وإلا ســأغرس بنــت العاهــرة تلــك في عظمــك مبــاشرة.

أصابتــه الكلــمات بالقشــعريرة، لكنــه تلــوَّى بقــوة أكــبر، وصلصلــت الأصفــاد في احتكاكهــا بحاجــز السريــر.

قال بصوتٍ مهتاجٍ: "إياكِ أن تلمسيني.."

تســاءلت الممرضــة: "أوه، إذن تريــد أن تلعبهــا بهــذه الطريقــة؟ لا بــأس" ودون أن تخبــو ابتســامتها قــط، غــيَّرت مــن مســكتها للحقنــة، وقبضــت

عليهـا الآن كأنهـا سـكين، وقبـل أن يـدرك إيثـان نيَّتهـا، غرسـت الإبـرة في جـدار عضلـة فخـذه، واندفنـت الإبـرة حتـى الحقنـة.

ظـلَّ الألم الطاعــن باقيًـا بينــما تمشــت الممرضــة عــبر الحجــرة إلى الطبيــب النفــسي.

تساءل جنكينز: "لم تصيبي وريدًا؟"

- كان يتحرك أكثر مما يجب.

إذن كم من الوقت أمامه قبل أن يغيب عن الوعي؟

- خمـس عـشرة دقيقـة بحـد أقـصى. هـل هـم جاهـزون لـه في غرفـة العمليات؟

- نعم، أخرجيه على السرير النقَّال.

ثــم وجَّــه جنكينــز تعليقــه الأخــير لإيثــان وهــو يتراجــع بظهــره نحــو البـاب: "سـأكون بالجـوار لأطـل عليـك بعـد أن ينتهـوا مـن القـص واللصـق. حـظ طيـب يـا إيثـان، سـنقوم بإصلاحـك تمامًـا".

- لا أوافق..

قالهـا إيثـان بأقـصى مـا يسـتطيع مـن قـوة، لكـن جنكينـز كان قـد غـادر الغرفـة بالفعـل.

مـن خـلال عينيـه المتورمتـين، تتبَّـع إيثـان حركـة الممرضـة بـام وهـي تـدور إلى رأس سريـره النقَّـال. قبضـت عـلى الحاجـز، وبـدأ السريـر يتحـرك، وإحـدى عجلاتـه الأماميـة تـصرُّ بينـما تتمايـل فـوق المشـمع.

تسـاءل إيثـان: "لمـاذا لا تحترمـون رغبـاتي؟" وهـو يجاهـد كي يتحكَّـم في صوتـه، محـاولًا أن يجـد مدخـلًا أنعـم.

لم تـرد، فقـط اسـتمرت في دفعـه خـارج الغرفـة إلى الممـر، الـذي بـدا خاليًـا وهادئًـا كالعـادة.

رفع إيثان رأسه، ورأى غرفة التمريض تقترب.

كل الأبـواب التـي مـرًا عليهـا كانـت مغلقـة، ولا بصيـص ضـوء تـسرَّب مـن تحـت أيٍّ منهـا.

تساءل إيثان: "لا يوجد أحد آخر في هذا الطابق، أليس كذلك؟"

صفَّرت الممرضة لحنًا على إيقاع صرير العجلة.

تسـاءل: "لمـاذا تفعلـين هـذا بي؟" وفي صوتـه كانـت هنـاك نغمـة يأس لا يدَّعيهـا، بـل نبعـت مباشرةً مـن ينبـوع الرعـب الـذي كان يفيـض بثبـاتٍ، لحظـة بعـد لحظـة، في قـرارة جوفـه.

تطلَّـع محدقًـا إليهـا - هـذه الملاك الغريـب مـن وَضْعِـه الممـدد عـلى السريـر النقـال الـذي أظهـر لـه الجانـب السـفلي مـن ذقنهـا وشـفتيها وأنفهـا، وألـواح السـقف، ومصابيـح الفلورسـنت الطويلـة وهـي تتـوالى عابـرة.

قال: بام، من فضلك.. تحدَّثي إليَّ، قولي لي ماذا يحدث.

لم تنظر إليه حتى.

في الناحيـة الأخـرى مـن غرفـة التمريـض، أفلتـت السريـر النقَّـال، وتركتـه يتدحـرج حتـى توقـف، وسـارت نحـو زوج مـن الأبـواب المزدوجـة عنـد نهايـة الممـر.

نظر إيثان إلى اللافتة أعلاهما:

الجراحة.

انفتـح أحـد البابـين، وخـرج رجـل يرتـدي رداء طبيًّـا أزرق، ويـداه يغطيهـما بالفعـل قفـازان مطاطيـان.

أخفـى قنـاع الوجـه كل شيء إلا زوجًـا مـن الأعـين الهادئـة الحـادة التـي تمـاشى لونهـا مـع لـون الـرداء بشـكلٍ مثـالي تقريبًـا.

قال للممرضة بصوتٍ هادئ ناعم: "لماذا ما زال مستيقظًا؟"

- كان يقاوم أكثر من اللازم، لم أستطع أن أصيب الوريد.

ألقى الجرَّاح نظرة نحو إيثان.

- لا بأس، أبقيه هنا حتى يغيب عن الوعي. كم بقي له من وقت في رأيك؟

- عشر دقائق.

أومأ برأسه على نحوٍ مقتضبٍ ثم توجَّه عائدًا نحو غرفة العمليات، دافعًا الباب بكتفيه في قوة، وبدت لغة جسده عدوانية وغاضبة.

ناداه إيثان: "أنت! أريد أن أتحدث إليك!"

في الثواني القليلة التي انفتحت فيها الأبواب، نظر إيثان إلى غرفة العمليات ملء عينيه...

منضدة عمليات في قلب الغرفة محاطة بمصابيح كبيرة ساطعة.

إلى جوارها، عربة معدنية على عجلات تحمل مجموعة من أدوات الجراحة.

كل شيء مرصوص في هيئة نظيفة ولامعة على قماشٍ معقمٍ.

مباضع من كل حجم.

مناشير عظام.

ملاقط.

أدوات لم يعرف إيثان أسماءها لكنها كانت تشبه أدوات التشغيل الكهربائية.

قبل لحظة من انغلاق الأبواب المتأرجحة، شاهد إيثان الجرَّاح يقف إلى جوار العربة ويُخرج مثقابًا من جرابه.

نظـر إلى إيثـان وهـو يضغـط عـلى الزنـاد عـدة مـرات، وصراخ المحـرك العـالي يمـلأ غرفـة العمليـات.

ارتفـع صـدر إيثـان تحـت رداء المستشـفى الـذي كان يرتديـه وشـعر بـدق طبلـة عميقـة في نبضـه المتسـارع. ألقـى نظـرة وراءه نحـو غرفـة التمريـض، ولمـح بـام تختفـي وراء الزاويـة.

للحظة، كان وحيدًا في الممر.

لا صـوت إلا قرقعـة المباضـع والمعـدات الجراحيـة عـلى الجانـب الآخـر مـن هـذه الأبـواب المزدوجـة، وطقطقـة خطـوات الممرضـة وهـي تخبـو مبتعـدة. وطنـين مصبـاح فلورسـنت فـوق رأسـه تمامًـا.

خطـرت لـه فكـرة مجنونـة: مـاذا لـو **كان** مجنونًـا بالفعـل؟ مـاذا لـو فتـح الجـرَّاح في تلـك الغرفـة رأسـه وأصلحـه فعـلًا؟ هـل سـيختفي كل هـذا؟ هـل سـيفقد ذاتـه؟ يصبـح رجـلًا آخـر في عـالم لا توجـد فيـه زوجتـه وابنـه؟

استطاع أن ينهض في جلسته.

رأسـه مشـوَّش ثقيـل، لكـن لعـلَّ هـذا مـن الـضرب الـذي تلقَّـاه عـلى يـد المأمـور بـوب.

أطـرق إيثـان محدقًـا إلى معصميـه، كلاهـما مقيـد إلى الحاجـز المعـدني للسريـر النقـال.

جـذب الأسـاور، فانشـدت السلاسـل، واسـتحالت يـداه إلى اللـون الأرجـواني.

ألم شديد.

خفَّـف الضغـط ثـم انتفـض إلى الـوراء بقـوة كافيـة لأن تنغـرس الحـواف الفولاذيـة للأسـاور في معصميـه. في يـسراه انكشـط الجلـد وتنـاثـر الـدم عـلى المـلاءة.

تحرَّرت ساقاه.

قفـز بسـاقه اليمنـى مـن فـوق جانـب الحاجـز، ومـدَّ جسـده ولـواه كي يصـل إلى الحائـط، لكنـه كان أبعـد عنـه بثـلاث بوصـات.

تمـدَّد إيثـان عـلى السريـر النقـال مـن جديـد، وألقـى نظـرة بـاردة قاسـية لأول مـرة عـلى حالـه البائـس حقًّـا وصدقًـا؛ مخـدَّر، مقيَّـد، وعـلى وشـك أن يُجـرَّ إلى داخـل غرفـة عمليـات سـيفعلون بـه فيهـا مـا لا يعلمـه إلا اللـه.

كان عليـه أن يعـترف بأنـه في المـرة الأخـيرة التـي أفـاق في المستشـفى وتحـدث إلى دكتـور جنكينـز شـعر بقليـلٍ مـن الشـك في الـذات، متسـائلًا، متخوفًـا إن كان ربمـا يعـاني مـن إصابـة مـا أثَّـرت عليـه عصبيًّـا.

أتلفت إدراكه للناس والمكان والزمان.

لأنه لا شيء في وايوارد باينز يبدو منطقيًّا.

لكـن هـذه اللحظـات القليلـة الماضيـة -سـلوك الممرضـة بـام العـدائي، رفضهـم لأن يولـوا اهتمامًـا لاعتراضاتـه عـلى الجراحـة، أكـدت الأمـر: لا عيـب فيـه يتجـاوز حقيقـة أن النـاس في هـذه البلـدة ينـوون بـه شرًّا.

لقـد عـانى بالفعـل كثـيرًا الخـوفَ والحنـين إلى الديـار وفقـد الأمـل منـذ وصولـه إلى وايـوارد باينـز، لكنـه الآن وصـل إلى قـاع اليـأس التـام.

عـلى حـد علمـه، ينتظـره المـوت عـلى الناحيـة الأخـرى مـن تلـك الأبـواب.

لن يرى تيريزا مرة أخرى أبدًا، لن يرى ابنه أبدًا.

مجـرد هـذا الاحتـمال كان كفيـلًا بـأن يجعل عينيـه تغرورقـان بالدموع، لأنـه خذلهـما، خذلهـما مـن نـواحٍ كثـيرة للغاية.

غيابه الجسدي، غيابه العاطفي.

لقد بلغ هذا المستوى من الرعب والندم مرة أخرى واحدة فقط في حياته: آصف وحي الجولان الفقير.

لينجشي.

بدأ الخوف الآن يستنفده تمامًا، ويثبط قدرته على التعامل مع المعلومات والقيام برد فعل مناسب.

أو لعلّه كان المخدر يتجاوز أخيرًا حاجز الدم/المخ ويتولى السيطرة.

يقول في عقله: **يا إلهي! لا تتداع الآن. لا بد أن تبقى مسيطرًا.**

سمع صرير احتكاك أبواب المصعد تنفتح وراءه بعشرة أقدام، وتبعها اقتراب خطوات سريعة ناعمة.

حاول إيثان أن يلوي عنقه ليرى من القادم، لكنه قبل أن يفعل هذا كان السرير النقال قد تحرك بالفعل، وأحدهم يسحبه نحو المصعد.

تطلع محدقًا إلى وجه جميل مألوف، وعظام الوجنتين البارزة تدفعه إلى تذكرها. في وضعه الحالي، استغرق الأمر منه خمس ثوان كي يميز أنها النادلة المفقودة في الحانة.

دفعته إلى داخل كابينة المصعد، منتبهةً كي تُدخل السرير النقال في يُسر.

ضغطت أحد الأزرار.

كان وجهها مخطوفًا وشاحبًا، وقد ارتدت معطف مطر أزرق يقطر ماء على الأرضية.

"هيا، هيا" ظلّت تضغط بإصبعها على الزر B المضاء.

قال إيثان: "أعرفك.." لكنه لم يستطع أن يتذكر اسمها مع ذلك.

- بيفرلي..

وابتسمت، لكن ابتسامة مليئة بالتوتر. "لم أحصل قط على ذلك البقشيش الكبير الذي وعدتني به، يا إلهي! تبدو في حالة فظيعة".

بدأت الأبواب تنغلق في صرير آخر طويل أسوأ من صرير الأظافر على السبورة.

سألها بينما البكرات تنجذب كي تُنزل الكابينة: "ماذا يحدث لي؟".

- يحاولون كسر عقلك.

- لماذا؟

رفعت معطف المطر، وسحبت مفتاح أغلال من الجيب الخلفي في بنطالها الجينز.

كانت أصابعها ترتعش.

تطلَّب الأمر منها ثلاث محاولات كي تُفلح أخيرًا في إيلاج المفتاح في القفل.

تساءل إيثان مرة أخرى: "لماذا؟".

- سنتحدث عندما نكون في أمان.

طقطقت الأسورة منفتحة.

اعتدل إيثان في جلسته، وتناول المفتاح من يدها، وشرع في فتح الأسورة الثانية.

هبط المصعد بسرعة زاحفة بين الطابقين الرابع والثالث.

قالت: "لو توقف ودخل أحدهم، سنقاتل. هل تفهمني؟"

أومأ إيثان برأسه.

- مهما حدث لا يمكنك أن تدعهم يعيدونك إلى غرفة العمليات تلك.

انفتحت الأسورة الثانية ونزل إيثان من فوق السرير النقال.

شعر باستقرار معقول على قدميه، ولا أثر لمفعول المخدر.

- هل ستستطيع الجري؟

- لقد خدَّروني للتوِّ، لن أستطيع أن أقطع مسافة كبيرة.

- اللعنة.

دقَّ جرس أعلى أبواب المصعد.

الطابق الثالث.

استمر في الهبوط.

تساءلت بيفرلي: "متى؟"

- منذ خمس دقائق، لكنه كان حقنًا عضليًّا، وليس في الوريد.

- ماذا كان المخدر؟

- لا أعرف، لكني سمعتهم يقولون إني سأفقد الوعي خلال عشر دقائق. حسنًا... نحو ثماني أو تسع دقائق الآن.

وصل المصعد إلى الرواق، واستمر في الهبوط.

قالت بيفرلي: "عندما تنفتح الأبواب، سنتوجه يسارًا، ونقطع الممر كله، هناك باب في نهايته سيؤدي بنا إلى الشارع."

اهتزَّ المصعد عندما توقف.

للحظة طويلة، لم تتحرك الأبواب.

نقل إيثان ثقله مستندًا إلى كعبيه، متأهبًا للانطلاق بسرعة في الممر لو كان هناك أشخاص ينتظرونهم، والأدرينالين يفيض داخله بتلك اليقظة المكهربة التي كانت تنتابه دائمًا قبل أي مهمة عندما تدور مراوح الهليكوبتر.

صرَّت الأبـواب منفتحـة بوصـة واحـدة، وتجمـدت عـشر ثـوان، ثـم أكملـت طريقهـا ببـطء في صريـرٍ طويـلٍ.

همسـت بيفـرلي: "انتظـر.." خطـت فـوق العتبـة، وأطلَّـت خارجًـا، "لا أحـد".

تبعها إيثان خارجًا إلى ممرٍّ طويلٍ خالٍ.

امتـدَّ بـلاط شـطرنجي مكسـو بالمشـمع مسـافة مائـة وخمسـين قدمًـا عـلى الأقـل حتـى بعـض الأبـواب في الطـرف البعيـد، وكل شيء نظيـف لا تشـوبه شـائبة ويلتمـع بهـدوء تحـت أضـواء الفلورسـنت القاسـية.

صفْقُ باب من بعيد أوقفهما في مكانهما.

صـارت الخطـوات مسـموعة، رغـم أنـه كان مـن المسـتحيل تحديـد عـدد الأشـخاص القادمـين.

همست بيفرلي: "إنهم يهبطون السلم، هيا."

اسـتدارت وجـرت في الاتجـاه المعاكـس، وتبعهـا إيثـان، محـاولًا أن يكتـم صفـع قدميـه الحافيتـين للأرضيـة المغطـاة بالمشـمع وهـو يـزوم مـن الألم الطاعـن لمـا لم يكـن بمقـدوره أن يفـترض إلا أنهـا ضلـوع مكدومـة.

وصـلا إلى غرفـة تمريـض خاليـة عندمـا انفتـح في جلبـة بـاب وراءهـما نحـو الطـرف الآخـر مـن الممـر.

زادت بيفـرلي مـن سرعتهـا، ثـم انعطفـت وجـرت في أحـد الممـرات المتقاطعـة، وإيثـان يجاهـد كي يلحقهـا، مغامـرًا بنظـرة سريعـة مـن فـوق كتفـه وهـو يجـري، لكنـه كان قـد دار حـول الزاويـة قبـل أن يـرى شـيئًا.

كان هذا الجناح خاليًا وأقصر بمقدار النصف.

في منتصف الممر، توقفت بيفرلي وفتحت بابًا على الجانب الأيسر.

حاولـت أن تدفـع إيثـان عـبره، لكنـه هـزَّ رأسـه، ومـال إليهـا، وهمـس في أذنهـا بـشيء مـا.

أومأت برأسها واندفعت داخل الحجرة، وجذبت الباب وراءها.

سار إيثان إلى الباب القائم على الناحية المقابلة من الردهة.

دار المقبض، وانسلَّ إلى الداخل.

كانـت حجـرة خاليـة، متسربلـة بالظـلام، وعـن طريـق الضـوء القليـل المتسـرب داخلهـا مـن الممـر، بـدا أن لهـا نفـس التخطيـط الـذي كان للحجـرة التـي أبقـوه فيهـا بالطابـق الرابـع.

أغلق الباب بأقصى ما استطاع من هدوء والتفت إلى الحمَّام.

تحسس في الظلام حتى وجدت إصبعه زر النور.

أضاء المصباح.

ثمـة منشـفة يـد معلقـة عـلى رف بجـوار الـدُّش. جذبهـا ولفَّهـا حـول يـده، وواجـه المـرآة.

مال بذراعه إلى الوراء.

أمامك ثلاثون ثانية، وربما أقل.

لكن انعكاسه في المرآة شتَّت انتباهه.

يـا إلهي! كان يعـرف أن الوضـع سـيئ، لكـن بـوب ضربـه ضربًـا مبرحًـا؛ كانـت شـفته العلويـة ضعـف حجمهـا، وأنفـه متورمًـا ومكدومًـا مثـل ثمـرة فراولـة متعفنـة، وثمـة جـرح عميـق بعـرض وجنتـه اليمنـى خاطـوه بمـا يقـارب عشريـن غـرزة، وعينـاه...

إنهـا لمعجـزة أن يسـتطيع الرؤيـة أصـلًا، كانـت عينـاه مصبوغتـين بالأسـود والأرجـواني ومحاطتـين بطبقـات مـن الجلـد المتـورم كأنـه يعـاني مـن حساسـية رمـد شـبه قاتلـة.

لا وقت لتأمُّل ذلك طويلًا.

لَكَمَ الركن الأيمن الأدنى من المرآة وأبقى قبضته الملفوفة بالمنشفة لتسند الزجاج المكسور حتى لا يسقط كله مرة واحدة.

كان قد وجَّه لكمة نموذجية، أقل قدرٍ من التدمير، وكسرات كبيرة. سرعان ما أزاح القطع بيده الخالية، ووضعها على الحوض، وانتقى أكبرها.

ثم فكَّ المنشفة من فوق يده، وأطفأ الأنوار، وتحسَّس طريقه عائدًا إلى غرفة النوم.

لم يكن هناك شيء يمكن رؤيته إلا خط رفيع كحد الموسى من الضوء أسفل الباب.

تقدم، وألصق أذنه بالباب.

كان الصوت خافتًا، لكنه استطاع سماع الضجة البعيدة لأبواب تنفتح وتنغلق.

كانوا يتأكدون من كل حجرة، وبدت الاصطفاقات بعيدة إلى درجة كافية حتى إنه اعتقد أنهم ربما ما زالوا في الممر الرئيسي.

تمنى لو لم يكن مخطئًا في ذلك.

تساءل إن كانت أبواب المصعد ما زالت مفتوحة. لو رأوا الكابينة هنا، لا شك أنهم سيظنون أنه فرَّ إلى القبو. كان ينبغي له هو وبيفرلي أن يعيدا المصعد إلى الطابق الرابع، لكن لا سبيل لتدارك سهوهما الآن.

مدَّ يده إلى أسفل، وجد مقبض الباب وقبض عليه.

عندما أداره ببطء، حاول أن يجعل تنفُّسه منتظمًا، أن يعيد ضغط دمه إلى معدل لا يجعله يحس أنه على وشك الإغماء.

عندما غادر المزلاج مقرَّه، جذب إيثان الباب أرق جذبة.

انفتح الباب بوصتين، ولبثت المفصلات صامتة بشكلٍ رحيم.

سـقط مثلـث طويـل مـن الضـوء عـبر الأرضيـة الشـطرنجية المكسـوة بالمشـمع تحـت قدميـه الحافيتـين.

صارت أصوات اصطفاقات الأبواب أعلى.

أمسـك بكـسرة المـرآة وأمالهـا بـين البـاب المفتـوح وعضادتـه، محـركًا إياهـا أبعـد وأبعـد، ملليمـترًا بعـد ملليمـتر، إلى أن أظهـرت انعـكاس الممـر خلفـه.

فارغ.

انصفق باب آخر منغلقًا.

فيـما بـين الاصطفاقـات، كان هنـاك وقـع حـذاء مطاطـي النعـل عـلى الأرضيـة ولا شيء آخـر. واحـد مـن مصابيـح الفلورسـنت القريبـة كان بـه خلـل، ترتعـش إضاءتـه بشـكل متقطـع ويلقـي بالممـر في نوبـات متحولـة مـن الظـلام والضـوء.

سـبق الظـل الشـخص -عتمـة خفيفـة عـبر الأرضيـة بالقـرب مـن غرفـة التمريـض- ثـم دخلـت الممرضـة بـام في مجـال الرؤيـة.

توقفـت عنـد تقاطـع الممـرات الأربعـة ووقفـت في سـكون تـام، تمسـك شـيئًا في يدهـا اليمنـى لم يسـتطع إيثـان تحديـده مـن هـذه المسـافة، رغـم أن طرفًـا منـه ألقـى بومضـات مـن ضـوء منعكـس.

مـرَّت ثلاثـون ثانيـة، وبعـد ذلـك اسـتدارت وبـدأت السـير في ممـر إيثـان، بحـرصٍ وعـزمٍ وخطـوات قصـيرة محكومـة وابتسـامة بـدت أوسـع مـن أن تلائـم وجههـا.

بعـد عـدة خطـوات، توقفـت، وضمَّـت ركبتيهـا، وجثـت لتفحـص شـيئًا عـلى المشـمع. بإصبـع مـن يدهـا الحـرة مسـحت الأرضيـة ورفعتـه، ليـدرك إيثـان في نوبـة مـن القلـق مـا كان، وكيـف عرفـت الممرضـة أي ممر تسـلك.

ماء من معطف مطر بيفرلي.

وسيقودها هذا مباشرةً إلى الباب المقابل في الردهة. إلى بيفرلي.

نهضت الممرضة بام.

بدأت تسير ببطء، متفحصة المشمع وهي تعبر البلاط.

رأى إيثان الشيء الذي كان في يدها: حقنة.

- مستر بيرك؟

لم يتوقع منها أن تتكلم، وبعث وقع صوتها الباسم الخبيث الذي تردد صداه في ممرات المستشفى الفارغة قشعريرة في عموده الفقري.

- أعرف أنك بالجوار. أعرف أنك تستطيع أن تسمعني.

كانت تقترب بشكلٍ مزعجٍ، وخشي إيثان أنها في أي لحظة الآن قد تلمح المرآة في يده.

سحب إيثان كسرة المرآة داخل الحجرة وأغلق الباب بهدوء وحرص ودقة أكبر.

تابعت الممرضة: "بما أنك مريضي الجديد المفضل، سأقدم لك عرضًا خاصًا."

لاحظ إيثان شيئًا ما في قرارة جمجمته: دفء بدأ يمتد إلى أسفل بطول عمودي الفقري، وعبر عظام ذراعيه وساقيه، وشعّت نقاط الحرارة في أطراف أصابع يديه وقدميه.

أحسّ به أيضًا خلف عينيه.

كان مفعول المخدر قد بدأ يسري.

- كن صاحب روح رياضية واخرج الآن، وسأمنحك هدية.

لم يستطع أن يسمع وقع خطواتها، لكن صوتها كان يغدو أعلى بشكلٍ مستمرٍّ كلما تحركت على نحوٍ أعمق داخل الممر.

- الهدية يا مستر بيرك هي تخدير من أجل جراحتك. آمل أن تفهم أنه إذا لم يكن قد أطاح بك بالفعل، إلا أن المخدر الذي أعطيتك إياه منذ عشر دقائق سيغيبك عن الوعي في أي لحظة الآن. وإذا اضطررت إلى قضاء ساعة في تفتيش كل حجرة كي أجدك، سيجعلني هذا غاضبة جدًّا جدًّا، وأنت لا تريد أن تراني وأنا غاضبة جدًّا جدًّا، لأنه هل تعرف ماذا سيحدث؟ عندما نجدك أخيرًا، لن ندفع بك إلى الجراحة على الفور. سنترك أثر المخدر الحالي الموجود في جسدك ينقضي. ستصحو على منضدة العمليات. بلا أحزمة ولا قيود، لكنك لن تتمكن من الحركة. لأني سأحقنك بجرعة هائلة من السوكسميثونيوم؛ وهو مخدر يصيب بالشلل التام. هل تساءلتَ أبدًا كيف يبدو الشعور بالجراحة؟ حسنًا يا مستر بيرك، ستنال عرضًا خاصًّا من أجلك. مكتبة سُر مَن قرأ

من الطريقة التي حمل الهواء بها صوتها، عرف إيثان أنها واقفة في منتصف الممر الآن، على مبعدة أقل من أربعة أقدام منه في الناحية الأخرى من الباب.

- الحركة الوحيدة التي ستكون قادرًا على أدائها هي أن ترمش. لن تتمكَّن حتى من الصراخ وأنت تشعر بالقطع والنشر والثقب. بأصابعنا داخلك. ستستغرق الجراحة ساعات، وستكون حيًّا، مستيقظًا، وواعيًا تمامًا بكل لحظة من العذاب فيها. تلك مادة روايات الرعب.

وضـع إيثـان يـده عـلى مقبـض البـاب، ودفقـة المخـدر تتصاعـد الآن، وتغلِّـف مخـه، وتتدفـق في أطـراف أذنيـه. تسـاءل كـم يمكنـه أن يتحمَّـل المزيـد مـن هـذا قبـل أن تخونـه سـاقاه.

أدِره ببطء يا إيثان. أدِره ببطء شديد، شديد.

أحكـم قبضتـه عـلى مقبـض البـاب، وانتظـر أن تتكلـم الممرضـة بـام مـرة أخـرى، وعندمـا فعلتهـا أخـيراً، بـدأ يديـر المقبـض.

- أعـرف أنـك تسـتطيع أن تسـمع صـوتي يـا مسـتر بـيرك، أنـا واقفـة خـارج الغرفـة التـي تختبـئ فيهـا تمامًـا. هـل أنـت في الحـمَّام؟ تحـت السريـر؟ ربمـا تقـف خلـف البـاب، عـلى أمـل أن أتجـاوزك متعاميـة؟

ضحكت.

ارتفع المزلاج.

أيقـن تمامًـا أنهـا واقفـة وظهرهـا لـه، في مواجهـة حجـرة بيفـرلي، لكـن مـاذا لـو لم تكـن؟

- أمامـك عـشر ثـوان كي تخـرج، وبعـد ذلـك سـينتهي عـرضي الكريـم بتخديـرك. عشرة...

أمسك الباب مانعًا إياه من الانفتاح.

- تسعة...

ثلاث بوصات.

- ثمانية...

صـار بمقـدوره أن يـرى داخـل الممـر مـن جديـد، وأول مـا لمحـه جانـب مـن شـعر الممرضـة بـام الكسـتنائي ينثـال عـلى ظهرهـا.

كانت واقفة أمامه مباشرةً.

- سبعة...

في مواجهة باب بيفرلي.

- ستة...

تمسك بالحقنة كسكينٍ في يدها اليمنى.

- خمسة...

استمر في جذب الباب، تاركًا إياه ينزلق في صمتٍ على مفصلاته.

- أربعة...

أوقفه قبل أن يرتطم بالحائط، وصار واقفًا الآن على العتبة.

- ثلاثة...

تفحص الأرضية كي يتأكد أنه لا يلقي ظلًّا، لكن حتى لو حدث هذا؛ سيداريه هذا المصباح الفلورسنت المرتعش.

- اثنان، وواحد، وأنا الآن غاضبة، غاضبة جدًّا جدًّا.

رفعت الممرضة شيئًا من جيبها وقالت: "أنا في القبو بالأسفل، الجناح الغربي، متأكدة تمامًا أنه هنا. سأنتظر حتى تصلوا، انتهى".

صدر وشيش عن جهاز لاسلكي وأجابه صوت رجل: "عُلم، في طريقنا".

كان المخدر يضرب إيثان بقوة الآن، حيث شعر بركبتيه تميعان، وبدأ نظره يخرج عن مساره في نوبات من التشوش وازدواج الرؤية.

سيكون هناك المزيد من الناس بعد قليلٍ.

عليه أن يفعل هذا الآن.

يقول لنفسه: هيا، هيا، هيا، لكنه غير واثق إن كانت لديه حتى القوة أو حضور الذهن.

تراجـع عـدة خطـوات داخـل الحجـرة ليطيـل مسـافة انطلاقـه، وأخـذ نفَسًـا طويـلًا عميقًـا وانطلـق.

قطع سبع خطوات في ثانيتين.

اصطـدم بظهـر الممرضـة بسرعتـه كاملـة، دافعًـا إياهـا عـبر الممـر ليرتطـم وجههـا بالحائـط الخرسـاني.

كانـت صدمـة قاسـية وهائلـة حتـى إنهـا باغتتهـا تمامًـا، وكذلـك باغتتـه سرعـة ودقـة رد فعلهـا؛ حيـث تأرجحـت ذراعهـا اليمنـى إلى الـوراء، وطعنتـه بالإبـرة في جانبـه.

ألم عميق نافذ مُغشٍ.

تراجع مترنحًا، مائلًا، غير قادر على الثبات واقفًا.

دارت الممرضـة حـول نفسـها، والـدم ينثـال عـلى جانـب وجههـا الأيمـن حيـث التقـى بالخرسـانة، والإبـرة مائلـة إلى الـوراء، وهاجمتـه.

كان بمقـدوره أن يدافـع عـن نفسـه لـو تمكَّـن مـن رؤيـة أي شيء، لكـن نظـره كان مفارقًـا للزمـن، يرسـم صـورًا عـبر مجـال رؤيتـه كأنـه في حالـة انتشـاء.

اندفعـت بـام إلى الأمـام، وحـاول هـو أن يتفاداهـا لكنـه أخطـأ تقديـر المسـافة، وطعنتـه الإبـرة في كتفـه اليـسرى.

دفعه الألم عندما طعنته من جديدٍ إلى السقوط على ركبتيه تقريبًا.

عاجلتـه الممرضـة بركلـة أماميـة اسـتقرَّت بشـكل نموذجـي في بطنـه وأصابـت الضفـيرة الحشـوية، ودفعتـه القـوة الخالصـة فيهـا إلى الاصطـدام بالحائـط لينفجـر الهـواء خارجًـا مـن رئتيـه. لم يـضرب امـرأة قـط في حياته، لكـن عندمـا تحركـت بـام مقتربـة مـن أجـل المزيـد، لم يسـتطع أن يتخلَّـص مـن فكـرة أنـه سيشـعر برضـا بالـغ لـو وجَّـه كوعـه الأيمـن إلى فـك هـذه العاهـرة.

ثبتت عيناه على الإبرة في يدها، مفكرًا: **لا مزيد من هذا، أرجوك يا إلهي.**

رفع ذراعيه ليحمي وجهه، لكنه أحس بهما جلمودين من صخر.. رخوين وثقيلين.

قالت الممرضة: "أراهن أنك تتمنى لو خرجت عندما طلبت ذلك منك بلطفٍ، هه؟".

أطلق لكمة خطافية واسعة القوس بطيئة تفادتها بسهولة، وردَّت عليه بلكمة في سرعة البرق كسرت أنفه من جديدٍ.

تساءلت: "أتريد الإبرة من جديد؟" وكان ليهاجمها ويحاول أن يطرحها أرضًا ويثبتها تحت ثقله، لكن القرب منها -في ضوء وجود الإبرة وحواسه المتضائلة- بدا فكرة سيئة.

ضحكت بام وقالت: "يمكنني القول إنك تفقد الوعي. هذا بالفعل مضحك نوعًا ما لو تعرف".

جاهد إيثان كي يبتعد مستندًا إلى الجدار، متنقلًا بقدميه كي يخرج من الحلبة، لكنها اقتفت حركته، وظلَّت أمامه وتأهبت لضربة أخرى.

قالت: "فلنلعب لعبة صغيرة، أوخزك بالإبرة وتحاول أن تمنعني."

اندفعت إلى الأمام، لكن لم يكن هناك ألم.

مجرد مناورة؛ كانت تتلاعب به.

- والآن ستكون التالية يا مستر بيرك...

ارتطم شيء ما بجانب رأسها محدثًا صوتًا قاسيًا.

سقطت بام على الأرض ولم تتحرك، ووقفت بيفرلي فوقها، والضوء المحموم يرتعش على وجهها. كانت ما زالت ممسكة بساقيّ المقعد

المعـدني الـذي أسـقطت بـه الممرضـة بـام، وتبـدو عليهـا صدمـة ليسـت بالقليلـة مـما فعلتـه تـوًّا.

قال إيثان: "المزيد من الأشخاص قادمون."

- هل تستطيع السير؟

- سنرى.

ألقـت بيفـرلي بالمقعـد جانبًـا وتركتـه يجلجـل عـلى الأرضيـة المغطـاة بالمشـمع فيـما اندفعـت نحـو إيثـان.

- تمسَّك بي في حالة فقدت توازنك.

- لقد فقدته بالفعل.

تشـبَّث بـذراع بيفـرلي وهـي تسـحبه عائديـن في الممـر. قبـل أن يصـلا إلى غرفـة التمريـض، كان إيثـان يجاهـد كي يضـع فقـط قدمًـا أمـام الأخـرى.

ألقـى نظـرة وراءه عندمـا انعطفـا حـول الزاويـة، ورأى الممرضـة بـام تجاهـد كي تعتـدل في جلسـتها.

قالت بيفرلي: "أسرع.."

كان الممر الرئيسي ما زال خاليًا، وكانا يهرولان الآن.

تعثَّر إيثان مرتين، لكن بيفرلي أمسكت به، وأبقته معتدلًا.

ازداد الثقـل في عينيـه، وهبـط الخـدر عليـه مثـل بطانيـة دافئـة ومبللة، وكل مـا أراد أن يفعلـه أن يجـد كـوة هادئـة يمكنـه أن يتكـوَّم فيهـا وينـام حتـى ينقـضي كل هـذا.

تساءلت بيفرلي: "أما زلت معي؟"

- على شعرة.

لاح الباب في نهاية الممر على مبعدة خمسين قدمًا أمامهما.

سرَّعت بيفرلي خطوتها، وقالت: "هيا، في إمكاني سماعهم يهبطون السلَّم."

سمعهم إيثان أيضًا: خليط من الأصوات ووقع خطوات عديدة خلف باب مرًّا به يؤدي إلى مجموعة من السلالم.

عند نهاية الممر، دفعت بيفرلي الباب ففتحته وجذبت إيثان عبر العتبة إلى سلَّم صعدت درجاته الست إلى باب آخر عند قمتها، توهجت فوقه لافتة: **خروج**.

توقفت بيفرلي قليلًا عندما تجاوزا الباب الأول، وتركته ينغلق وراءهما بنعومة.

سمع إيثان أصواتًا على الناحية الأخرى تملأ الممر، بدا كأن الخطوات تبتعد عنهما، لكنه لم يكن متأكدًا.

تساءل: هل رأونا؟

- لا أعرف.

تطلَّب صعود إيثان تلك الدرجات الأخيرة إلى المَخرج كل تركيزه، حيث دفعا الباب وخرجا متعثِّرين في الظلام، خاضت قدما إيثان في الرصيف المبتل بعد أن بدأ وابل المطر البارد على كتفيه يتسرب عبر نسيج ردائه النحيل كالورق.

بالكاد كان يستطيع البقاء واقفًا، وكانت بيفرلي تسحبه بالفعل نحو الرصيف.

تساءل إيثان: إلى أين نحن ذاهبان؟

- إلى المكان الوحيد الذي أعرفه، ولا يمكنهم أن يجدوك فيه.

تبعها إلى داخل الشارع المظلم.

لا سـيارات في الطريـق، فقـط القليـل مـن أعمـدة النـور وأضـواء البيـوت، كل شيء كابٍ ومشـوش بالمطـر.

التزمـا بالسـير عـلى رصيـف شـارع هـادئ، وبعـد المربـع السـكني الثـاني، توقـف إيثـان وحـاول أن يجلـس في العشـب، لكـن بيفـرلي لم تسـمح لـه بذلـك.

قالت: "ليس بعد."

- لا أستطيع أن أمضي أبعد من ذلك؛ لا أكاد أشعر بساقيَّ.

- مربـع سـكني آخـر فقـط، تمـام؟ يمكنـك أن تفعـل ذلـك، عليـك أن تفعـل ذلـك إذا كنـت تريـد أن تعيـش، أعـدك خـلال خمـس دقائـق سـتتمكن مـن الرقـاد وسـتنجو مـن هـذا.

اسـتقام إيثـان وتابـع السـير مترنحًـا، تبـع بيفـرلي مربعًـا سـكنيًّا واحـدًا، انتهـت بعـده المنـازل وأعمـدة النـور.

دخـلا مقـبرة ذات شـواهد متهدمـة تناثـرت وسـطها شـجيرات بلـوط وصنوبـر لم تحـظ بصيانـة منـذ زمـن، وارتفعـت الأعشـاب والحشـائش حتـى خـاصرة إيثـان.

- إلى أين تأخذيني؟

اندغمت كلماته، وبدت ثقيلة وخرقاء وهي تخرج متساقطة من فمه.

- إلى الأمام مباشرةً.

شـقَّا طريقهـما عـبر الشـواهد والنُّصـب التـي تـآكل أغلبهـا بشـدة حتـى إن إيثـان لم يتمكَّـن مـن تمييـز النقـوش.

كان بردانًا، وقد غرق رداؤه تمامًا، واكتست قدماه بالوحل.

- ها هو ذا.

أشارت بيفرلي إلى ضريحٍ حجري صغير قام وسط بستان من شجر الحور. جاهد إيثان عبر العشرين قدمًا الأخيرة ثم انهار عند المدخل بين أصيصين تحوّلا إلى أطلال.

احتاجت بيفرلي إلى أن تدفع الباب الحديدي ثلاث مرات بكتفها كي تفتحه عنوة، وأنّت مفصلاته بصوتٍ عالٍ كفيلٍ بإيقاظ الموتى.

قالت: "أريدك أن تكون بالداخل، هيا، كدتَ تصل، أربعة أقدام أخرى."

فتح إيثان عينيه، وحبا صاعدًا الدرجات عبر المدخل الضيق، بعيدًا عن المطر. جذبت بيفرلي الباب وأغلقته وراءهما، وللحظة، كان الظلام داخل السرداب تامًّا.

أضيء كشافٌ يدوي، وجاب شعاع ضوء المساحة الداخلية وكشف نافذة من الزجاج الملون محفورة في الجدار الخلفي.

كانت الصورة المرسومة على الزجاج عبارة عن أشعة من نور الشمس تخترق الغيم وتضيء شجرة وحيدة مُزهرة.

سقط إيثان على الحجر البارد بينما فتحت بيفرلي سحّاب حقيبة من قماش خشن كانت مخبّأة في الركن.

أخرجت بطانية وفردتها وغطّت بها إيثان.

قالت: "لديَّ أيضًا بعض الثياب من أجلك، لكن يمكنك أن ترتديها عندما تستيقظ من جديد".

ارتعد بعنفٍ، مقاومًا تيار السَّحب إلى أعماق اللاوعي، لأن ثمة أشياء لا بد أن يسألها، لا بد أن يعرفها، ولم يرغب في المخاطرة بألا تكون بيفرلي موجودة عندما يستيقظ من جديد.

تساءل: "ما هي وايوارد باينز؟"

جلست بيفرلي إلى جانبه وقالت: "عندما تستيقظ، سوف..."

- لا، قولي لي الآن. في اليومين الماضيين، رأيت أشياء مستحيلة، أشياء تجعلني أشك في سلامة عقلي.

- لستَ مجنونًا، هم فقط يحاولون أن يجعلوك تعتقد هذا.

- لماذا؟

- هذا ما لا أعرفه.

تساءل في نفسه إن كان بمقدوره تصديقها، وحسب أنه -مع وضع كل الأشياء في الاعتبار- ربما كان من الحكمة أن يلتزم جانب الشك.

قال: "لقد أنقذتِ حياتي، وأشكرك على هذا، لكن يجب أن أسأل... لماذا يا بيفرلي؟ لماذا أنت صديقتي الوحيدة في وايوارد باينز؟"

ابتسمت: "لأن كلينا يريد الشيء ذاته."

- وما هو؟

- الخروج.

- لا يوجد طريق للخروج من هذه المدينة، أليس كذلك؟

- لا.

- قدتُ سيارة هنا منذ عدة أيام، كيف يمكن هذا أصلًا؟

- إيثان، فقط دعَ المخدر يؤدي مهمته، وعندما تستيقظ، سأخبرك بكل ما أعرفه وكيف أعتقد أن في إمكاننا الخروج، أغلق عينيك.

لم يكن يريد ذلك، لكنه لم يستطع أن يمنعه من الحدوث.

قال: "لستُ مجنونًا.."

- أعرف ذلك.

بدأ ارتعاشه يخفُّ، وخلقت حرارة جسده جيبًا من الدفء تحت البطانية.

قال: "أخبريني بشيء واحد.. كيف انتهى بك الحال في وايوارد باينز؟"

- كنت مندوبة لشركة آي بي إم، جئت هنا بعد مكالمة ترويج مبيعات محاولةً أن أزود معمل كمبيوتر المدرسة المحلية بأنظمتنا تاندي 1000، لكن عندما وصلتُ البلدة بسيارتي، تعرَّضت لحادثة، ظهرت شاحنة من حيث لا أدري، واصطدمت بسيارتي.

كان صوتها يغدو أوهى وأبعد وأصعب في متابعته.

- أخبروني بأني عانيت من إصابة في الرأس وفقدان بسيط للذاكرة، وهذا هو السبب في أن ذكراي الأولى لهذه البلدة هي الاستيقاظ ذات أصيل قرب النهر.

أراد إيثان أن يخبرها بأن نفسي الشيء حدث له، لكنه لم يستطع أن يفتح فمه ليتكلم، كان المخدر يجتاح جسده كموجة عاتية تبتلعه.

غاب داخلها دقيقة.

ثم قال بصوتٍ أجش: "متى؟"

لم تسمعه، واضطرَّت إلى أن تميل مقتربة، وتضع أذنها على فمه، وكان عليه أن يبذل كل ما في طاقته كي يُخرج السؤال.

"متى... جئتِ... هنا؟" همس بها متشبثًا بكلماتها الآن كأنها طوق نجاة سيبقيه طافيًا، يبقيه صاحيًا، لكنه ما زال ينسحب تحت الموجة، ولم تبقَ لديه إلا ثوانٍ من الوعي.

قالت: لن أنسى أبدًا اليوم الذي وصلت فيه، لأنه من بعض الجوانب، أشبه باليوم الذي متُّ فيه. منذ وقتها، لم يعُد شيء كما

كان. كان صباحًا خريفيًّا جميلًا. السماء عميقة الزرقة، شجر الحور يبدِّل أوراقه. كان هذا في الثالث من أكتوبر عام 1985، في الحقيقة، الأسبوع التالي هو ذكراي السنوية، سأكمل عامًا كاملًا في وايوارد باينز.

8

لم تجرؤ على فتح الباب، وأطلَّت بدلًا من ذلك عبر أحد الألواح المفقودة في النافذة الزجاجية الملونة. لم تجد شيئًا تراه عبر وابل المطر في منتصف الليل ولا شيء تسمعه أعلى من صوت انهماره على العشب والشجر وسقف الضريح.

كان إيثان قد راح، غاب مع المخدر، ومن بعض النواحي.. كانت تحسده.

في النوم كانت تأتيها الأحلام.

عن حياتها السابقة.

عن رجل كانت بكل الاحتمالات ستتزوجه.

عن بيتها معه في بويسي.

عن الخطط التي كانا سيرسمانها معًا.

الأطفال الذين أملا أن يأتيا بهم إلى العالم يومًا ما، بل إنها أحيانًا كانت تحلم بوجوههم.

أما اليقظة فكانت وايوارد باينز.

هذا الجحيم الجميل.

عندما وصلت في البداية، ملأتها المرتفعات المحيطة بالرهبة والإعجاب، أما الآن، فهي تكرهها لحقيقتها، لما أصبحت عليه: قضبان سجن تحيط بهذه البلدة الجميلة التي لا يستطيع أحد مغادرتها، وتلك القلة التي حاولت...

ما زالت تنتابها كوابيس حول تلك الليالي.

رنين خمسمئة هاتف في وقتٍ واحدٍ.

الصراخ.

ليس الليلة... لن يحدث هذا الليلة.

خلعت بيفرلي معطف المطر ومضت إليه، وتكوَّمت جالسة تحت البطانية مستندة إلى الحائط. عندما هدأ تنفُّسه أخيراً وصار شهيقًا وزفيراً طويلين، زحفت نحو الحقيبة القماشية وأخرجت السكين من جيب خارجي.

كانت سكينًا مطوية، صدئة وثلمة، لكنها كل ما استطاعت أن تجده.

أزاحت البطانية ورفعت رداء المستشفى عن إيثان وتحسَّست بيدها جانب ساقه اليسرى حتى شعرت بالنتوء في ظهر فخذه.

تركـت يدهـا هنـاك وقتًـا أطـول قليـلا مـما ينبغـي لهـا، شـاعرة بالكراهيـة لنفسـها عـلى ذلـك، لكـن.. يـا إلهـي!.. لقـد مـضى زمـن طويـل منـذ أن لمسـت رجـلًا أو حتـى لمسـها رجـل.

كانـت قـد فكـرت في إخبـار إيثـان قبلهـا، لكـن حالتـه الضعيفـة منعتها، وربمـا كان هـذا أفضـل. بغـض النظـر عـن أي شيء، كان محظوظـًا؛ لم تحـظَ بامتيـاز التخديـر عندمـا فعلـت ذلك بنفسـها.

وضعـت بيفـرلي الكشَّـاف اليـدوي عـلى الأرضيـة الحجريـة بحيـث يـضيء الجانـب الخلفـي مـن فخـذه اليـسرى.

كان مغطًّى بالندوب.

لا يمكنـك أن تـرى النتـوء، فقـط تحـس بـه -وبالـكاد فقـط- إذا عرفـتَ أيـن تلمسـه بالضبـط.

فتحـت النصـل الـذي كانـت قـد عقَّمتـه منـذ سـاعتين بكـرات القطـن والكحـول، ومعدتهـا ترتعـش مـن التفكـير فيـما يجـب عليهـا أن تفعلـه، وهـي تصـلي كي لا يقطـع الألم تخديـره.

9

حلـم إيثـان أنـه مقيـدٌ وشيء مـا يـأكل سـاقه، ملتهـمًا قضـمات صغـيرة واخـزة تغـدو عميقـة مـن وقـتٍ إلى آخـر بمـا يكفـي لأن يـصرخ في نومـه.

***

صحا مفزوعًا.

يئنُّ.

الظـلام محيـط، وسـاقه اليـسرى -في أعـلى ظهـر فخـذه- تشـتعل بـألمٍ يعرفـه جيـدًا؛ أحدهـم يقطـع فيـه.

للحظـة رهيبـة، عـاد إلى غرفـة التعذيـب تلـك مـع آصـف ذي اللثـام الأسـود، معلقًـا في السـقف مـن معصميـه، وكاحـلاه مقيـدان بالسلاسـل إلى

الأرض، وجسده مشدود بحيث لا يستطيع المقاومة، بحيث لا يستطيع الحركة، مهما كان الألم فظيعًا.

هزّت يدان كتفيه.

نادى صوت امرأة باسمه.

- إيثان، أنت بخيرٍ، كل شيء انتهى.

- من فضلك توقفي، آه يا إلهي، من فضلك توقفي.

- أنت في أمانٍ، أخرجتها.

ميَّز دفقة من الضوء، رمش عدة مرات حتى اتضحت في بؤرة النظر.

شعاع كشاف يدوي سطع على الأرضية.

في الضوء غير المباشر، لمح حوائط حجرية، سردابين، نافذة من الزجاج الملون، وبعد ذلك عاد كل شيء بقوة.

سألته بيفرلي: أتعرف أين أنت؟

آلمته ساقه اليسرى بشدة حتى ظن أنه سيتقيًا.

- ساقي... ثمة شيء خاطئ...

- أعرف، كان عليَّ أن أُخرج شيئًا منها.

بدأت رأسه تصفو، واستعاد المستشفى والمأمور ومحاولته لمغادرة البلدة، ذكريات تحاول أن تتجمَّع من جديدٍ في تتابعٍ يحمل منطقًا، اعتقد أنه رأى كيت أيضًا، لكنه لم يكن متأكدًا، بدا ذلك الجزء أقرب إلى الحلم، أو الكابوس.

مع هذا الصفاء الذي وجده من جديد، كان الألم في ساقه يجعل من الصعب عليه أن يركز على أي شيء آخر.

تساءل: "عم تتحدثين؟"

رفعت بيفرلي الكشاف اليدوي وسلطته على يدها اليمنى، حيث أمسكت بين إبهامها وسبابتها شيئًا يشبه الرقاقة المجهرية، ما زالت نقاط الدم الجاف عالقة بشبه الموصل فيها.

تساءل: "ما هذا؟"

- الطريقة التي يراقبونك ويتعقبونك بها.
- أكانت هذه في ساقي؟
- إنها مزروعة في الجميع.
- أعطيها لي.
- لماذا؟
- حتى أحطمها قطعًا.
- لا، لا. لا يجب أن تفعل هذا. ساعتها سيعرفون أنك أزلتها. (وناولتها له) فقط اتركها في المقبرة عندما نغادر.
- ألن يجدونا هنا؟
- لقد اختبأت هنا مع الرقاقة من قبل. هذه الجدران الحجرية السميكة تشوِّش على الإرسال، لكن لا يمكننا البقاء هنا طويلًا، يمكنهم تعقُّب الرقاقة حتى مائة ياردة من مكان توقف الإرسال.

جاهد إيثان كي ينهض، أزاح البطانية لتكشف بركة صغيرة من الدماء تتلألأ على الحجر تحت شعاع الكشاف اليدوي. سال المزيد من الخيوط الحمراء من موضع القطع في ظهر ساقه. تساءل كم العمق الذي كان عليها أن تحفره. شعر بدوارٍ خفيفٍ، وآلمه جلده المتعرق من الحمى.

سألها: "هل لديك شيء في الحقيبة لإغلاق هذا الجرح؟"

هزَّت رأسها، وقالت: "شريط لاصق فقط."

- هاتيه، أفضل من لا شيء.

رفعت بيفرلي الحقيبة القماشية، ودسَّت يدها فيها.

قال إيثان: "هل حلمتُ بأنك أخبرتِني أنك جئتِ هنا عام 1985، أم أن هذا حدث بالفعل؟"

- حدث بالفعل.

أخرجت لفَّة من الشريط اللاصق، وقالت: "ماذا أفعل؟ لم أتلقَّ أي تدريب طبي."

- اربطيه فقط حول ساقي عدة مرات.

جذبت قطعة من الشريط، وبعد ذلك وضعتها على ساقه ولفَّت البكرة بحرصٍ حول فخذ إيثان.

- هل هذا مشدود أكثر مما يجب؟

- لا، هذا جيد؛ عليكِ أن توقفي النزيف.

قامت بخمس لفات ثم مزقت الشريط وساوته.

قال إيثان: "سأخبرك بشيء... شيء لن تصدقيه."

- جرِّبني.

- جئتُ هنا منذ خمسة أيام...

- أخبرتني ذلك بالفعل.

- كان التاريخ هو الرابع والعشرين من سبتمبر عام 2012.

للحظة اكتفت بالتحديق إليه.

سألها إيثان: "هل سمعتِ أبدًا بالآيفون؟"

هزَّت رأسها...

- الإنترنت؟ الفيسبوك؟ تويتر؟

... وظلَّت تهز رأسها.

قال إيثان: "اسم الرئيس هو..."

- رونالد ريجان.

- في عام 2008 انتخبت أمريكا أول رئيس أسود لها، باراك أوباما. لم تسمعي أبدًا بكارثة تشالينجر؟

لاحظ أن الكشاف بدأ يرتعش في يدها.

- لا.

- سقوط حائط برلين.

- لا، لا شيء من هذا.

- حربيْ الخليج؟ الحادي عشر من سبتمبر؟

- هل تلعب لعبة ذهنية ما معي؟

ضاقت عيناها، واحدة من الغضب، والثانية من الخوف.

- أوه يا إلهي! أنتَ معهم، أليس كذلك؟

- بالطبع لا، كم عمرك؟

- أربعة وثلاثون.

- وتاريخ ميلادك؟

- الأول من نوفمبر.

- أي عام؟

- ألف وتسعمائة وخمسين.
- يجب أن تكوني في الواحد والستين من عمرك يا بيفرلي.
- لا أفهم ما يعنيه هذا...
- هذا يجعلنا اثنين في نفس الفريق!
- الناس هنا... لا يتحدثون معًا حول أي شيء خارج وايوارد باينز، إنها إحدى القواعد.
- عم تتحدثين؟
- يسمونها "عِش في اللحظة"، غير مسموح الحديث عن السياسة. ممنوع الكلام عن حياتك السابقة، ممنوع المناقشات حول الثقافة الشائعة، الأفلام، الكتب، الموسيقى. على الأقل لا شيء من غير المتاح هنا في البلدة. لا أعرف إن لاحظت ذلك أم لا، لكن لا توجد تقريبًا أي علامة تجارية ذائعة هنا. حتى النقود غريبة. لم أدرك هذا إلا مؤخرًا، لكن العملات من الخمسينيات إلى الستينيات، لا شيء بعد ذلك. ولا توجد تقاويم ولا جرائد، الطريقة الوحيدة كي أعرف كم قضيت من الوقت هنا أني أحتفظ بدفتر يوميات.
- ولِمَ هذا؟
- لا أعرف، لكن عقوبة المخالفة قاسية.

أحسَّ إيثان بالنبض يخفق في ساقه بسبب ضغط الشريط اللاصق، لكن النزيف هدأ على الأقل. ترك ضغط الشريط على حاله الآن، لكنه سيضطر إلى تخفيفه بعد قليلٍ.

قالت بيفرلي: "لو اكتشفتُ أنك معهم..."

- لستُ معهم، أيًّا كانوا.

كانـت الدمـوع تتجمـع في عينيهـا. أشـاحت بوجههـا ومسـحت الخيـوط اللامعـة عـلى جانبـي وجههـا.

استند إيثان إلى الحائط.

كان الشعور بالبرد والألم يزداد سوءًا.

وكان مـا زال بمقـدوره سـماع المطـر يـدق عـلى السـقف الحجـري فوقهـما، والليـل مـا زال ماثـلًا وراء تلـك النافـذة الزجاجيـة الملونـة.

رفعت بيفرلي البطانية من الأرض وأحاطت بها كتفي إيثان.

قالت: "أنت محموم.."

- سألتك ما هذا المكان، لكنك لم تجيبيني حقًّا قط.

- لأني لا أعرف.

- تعرفين أكثر مني.

- كلما عرفتَ أكثر، كلما ازداد المكان غرابة.. وعرفتَ أقل.

- قضيتِ هنا عامًا. كيف نجوتِ؟

ضحكـت ضحكـة حزينـة ومذعنـة. "بفعـل مـا يفعلـه كل الآخريـن... تصديـق الكذبـة".

- أي كذبة؟

- أن كل شيء بخيرٍ، أننا جميعًا نعيش في بلدة صغيرة نموذجية.

- حيث الفردوس هو الوطن.

- ماذا؟

- حيـث الفـردوس هـو الوطـن. شيء رأيتـه عـلى لافتـة في ضواحـي البلـدة عندمـا كنـت أحـاول الخـروج مـن هنـا ليلـة أمـس.

- عندما صحوتُ لأول مرة هنا، كنت مشوشة وفي ألم كبير من حادث السيارة، صدقتهم عندما أخبروني أني أعيش هنا. بعد التوهان في الضباب طوال اليوم، وجدني المأمور بوب. رافقني إلى بيرجارتن؛ تلك الحانة التي التقينا فيها أول مرة. أخبرني أني نادلة هناك، رغم أني لم أعمل في حانة طوال عمري، ثم أخذني إلى منزل فيكتوري صغير لم أره من قبل، وأخبرني أنه بيتي.

- وصدقتِه هكذا؟

- لم تكن لديَّ أي ذكريات أخرى يا إيثان، لم أعرف إلا اسمي وقتها.

- لكن عادت الذكريات.

- نعم، وعرفت أن هناك شيئًا خاطئًا جدًّا في الأمر، لم أستطع أن أتصل بالعالم الخارجي، عرفت أن هذه ليست حياتي. لكن كان هناك شيء ما، لا أعرفه -منذر بالشر- في المأمور بوب. ألهمتني غريزتي بطريقة ما أنه من الأفضل ألا أسأله عن أي شيء. لم تكن لديَّ سيارة، فبدأت أقوم بتمشيات طويلة نحو ضواحي البلدة. لكن حدث شيء غريب. كل مرة أقترب فيها من حيث يستدير الطريق عائدًا، خمِّن من كان يظهر؟ خطر لي أن بوب لم يكن مأمورًا حقًّا. بل سجان على كل شخص يعيش هنا. أدركت أنه لا بد يتعقَّبني بطريقة ما، لذا طوال شهرين أبقيت رأسي محنية، وذهبت إلى العمل، وعدت إلى البيت، وعقدت صداقات قليلة...

- وهؤلاء الأصدقاء كانوا يصدقون كل هذا أيضًا؟

- لا أعرف، على السطح لم يطرف لهم جفن قط. لم يُبدوا أي مؤشر إلى أن الأمور غير عادية. بعد فترة، أدركت أنه لا بد أن

يكـون الخـوف هـو مـا يُبقـي الجميـع في الطابـور، لكـن لمـاذا؟ لا أعـرف. وبالطبـع لم أسـأل.

تذكـر إيثـان حفـل الجـيران الـذي تعـثَّر بـه -يـا إلهـي،أكان هـذا ليلـة الأمـس فقـط؟- وكـم بـدا طبيعيًـا، كـم كان عاديًـا تمامًـا. فكـر في كل المنـازل الفيكتوريـة الأنيقـة في وايـوارد باينـز وفي كل العائـلات التـي تعيـش داخلهـا. كـم عـدد السـكان -السـجناء- الذيـن يحافظـون عـلى مظهـر قـوي خـالي البـال خـلال النهـار، لكنهـم يرقـدون في الليـل مسـتيقظين، أرِقـين، تتسـارع أفكارهـم، مذعوريـن ويجاهـدون كي يفهمـوا لمـاذا هـم محبوسـون في هـذا السـجن الخـلاب المناظـر؟ تخيـل أنهـم أكـثر مـن أن يكونـوا قلـة. لكـن البـشر كائنـات قابلـة للتأقلـم أكـثر مـن أي شيء آخـر. تصـور أن كثـيراً منهـم قـد أقنعـوا أنفسـهم، وأقنعـوا أطفالهـم، بـأن الأمـور كـما يجـب أن تكـون تمامًـا. كـما كانـت دائمًـا. كـم منهـم يعيشـون يومًـا بيـوم، في اللحظـة، ويطـردون أي فكـرة أو ذكـرى مـن الحيـاة التـي كانـوا يعرفونهـا مـن قبـل؟ مـن الأسـهل قبـول مـا لا يمكـن تغيـيره بـدلًا مـن المخاطـرة بـكل شيء والسـعي وراء المجهـول. مـا يوجـد فيـما بعـد. غالبًـا مـا يقـوم السـجناء لمـدة طويلـة بالانتحـار أو ارتـكاب جريمـة أخـرى حـال مواجهتهـم بفكـرة الحيـاة خـارج أسـوار السـجن. أكان الأمـر مختلفًـا كثـيراً هنـا؟

تابعـت بيفـرلي: "ذات ليلـة في الحانـة، بعـد أشـهر قليلـة مـن وصـولي، مـرَّر لي هـذا الشـخص رسـالة قصـيرة. كانـت تقـول: ظهـر فخـذك اليـسرى. تلـك الليلـة في الحـمَّام، تحسَّسـته لأول مـرة -نتـوء صغـير، شيء مـا تحـت الجلـد- رغـم أني لم أعـرف مـاذا يُفـترض بي أن أفعـل حيالـه. في الليلـة التاليـة، عـاد الرجـل إلى الحانـة. خـطَّ رسـالة جديـدة، هـذه المـرة عـلى التذكـرة: أخرجيهـا، واحفظيهـا في مـكان آمـن، إنهـم يتعقبونـك عبرهـا.

في أول ثـلاث محـاولات، جَبُنـت. في الرابعة اسـترجلت وفعلتهـا. في النهار، كنـت أحتفـظ بالرقاقـة دائمًـا معـي. أحملهـا مثـل الجميـع. والغريـب أنـه

كانـت هنـاك لحظـات بـدا فيهـا الأمـر طبيعيًّـا تقريبًـا. أكـون في منـزل أحدهـم أتنـاول العشـاء، أو في حفـل جـيران المربـع السـكني، وألتقـط ذلـك الإحسـاس بأنـه ربمـا كان الأمـر هكـذا دائمًـا، وأن حيـاتي السـابقة كانـت هـي الحلـم. بـدأت أرى كيـف يتقبَّـل النـاس مـع الوقـت الحيـاة في وايـوارد باينـز.

في الليـل، بعـد أن تنتهـي نوبـة عمـلي في الحانـة، كنـت أعـود إلى البيت، أتـرك الرقاقـة في الفـراش حيـث مـن المفـترض أن أكـون، وأخـرج. كل ليلـة، في اتجـاه مختلـف. ظللـت أصطـدم بطـرقٍ مسـدودة. إلى الشـمال والـشرق والغـرب هـذه الأسـوار الصخريـة الشـاهقة، وكنـت أتمكَّـن مـن تسـلقها حتـى مائـة قـدم أو نحـو ذلـك، لكـن الحـواف تغـدو أنحـف عـلى نحـو حتمـي، ودائمًـا لا أجـد مـا تقبـض عليـه يـدي أو أصـل إلى نقطـة لا أملـك فيهـا الشـجاعة عـلى مواصلـة التسـلق. صادفـت أكـثر مـما يمكـن القـول إنهـا القليـل مـن الهيـاكل العظميـة عنـد سـفح هـذه المرتفعـات؛ عظـام قديمـة مكسـورة.. بشريـة؛ أنـاس حاولـوا التسـلق وسـقطوا.

في المـرة الرابعـة التـي غامـرت فيهـا بمحاولـة الخـروج، ذهبـت جنوبًـا عـبر الطريـق الرئيـسي، الطريـق الـذي جئـت عـبره إلى وايـوارد باينـز بالسـيارة. وجـدتُ مـا وجدتَـه: طريـق يـدور عائـدًا إلى البلـدة، ملتـف حـول نفسـه في دائـرة لا نهائيـة. لكنـي تابعـت التوجـه جنوبًـا داخـل الغابـة. ولا بـد أني قطعـت نصـف ميـل قبـل أن أصـل أخـيرًا إلى السـور".

- سور؟

كان الخفـق في سـاق إيثـان قـد صـار غـير محتمـل، أسـوأ مـن الألم النـاتج عـن الشـق الـذي أحدثتـه بيفـرلي. فخفَّـف مـن ضغـط الشريـط اللاصـق.

- سـور بارتفـاع عشريـن قدمًـا امتـدَّ عـبر الغابـة في كلا الاتجاهـين بقـدر مـا اسـتطعت أن أرى. أعـلاه سـلك شـائك يُصـدر طنينًـا كـما

لـو كان مكهربًـا. وثمـة لافتـة معلقـة عـلى السـور كل خمسـين قدمًـا تقـول: "عُـد إلى وايـوارد بايـنز، بعـد هـذه النقطـة سـتموت".

أعاد إيثان ربط ساقه.

كان الخفق قد ذوى، لكن الألم ما زال موجودًا، غير أنه بدا باهتًا.

- هل وجدتِ طريقًا عبره؟

- لا، كان الوقـت قـرب الفجـر، وفكـرت أن الأفضـل أن أعـود إلى البلـدة. لكـن عندمـا اسـتدرت لأرحـل، وجـدت رجـلًا واقفًـا أمامي، كـدت أمـوت خوفًـا إلى أن تبينـت مـن هـو.

- الرجل الذي أخبرك بأمر الرقاقة؟

- بالضبط، قال إنه كان يتبعني، في كل ليلة أخرج فيها.

- من كان؟

سـألها إيثـان، ولم يكـن بمقـدوره أن يتأكـد في الضـوء الـكابي، لكـن بـدا كـما لـو أن ظـلًا عـبر وجـه بيفـرلي.

- بيل.

شقَّ جسد إيثان شعورٌ واخز، مثل تيار كهربي منخفض الجهد.

سألها: "ماذا كان اسم بيل الأخير؟".

- إيفانز.

- يا إلهي!

- ماذا؟

- كان إيفانـز هـو الرجـل الميـت في المنـزل، المنـزل الـذي دفعتِنـي نحـوه.

- صحيح، أردتك أن تفهم على الفور إلى أي حدٍّ تصل خطورة هذا المكان.

- وصلت الرسالة. كان إيفانز واحدًا من العميلين في جهاز الخدمة السرية اللذين أُرسلتُ إلى وايواردباينز للعثور عليهما.

- لم أعرف أن بيل في الخدمة السرية، لم يخبرني بأي شيء عمَّا نسميه "حياتنا السابقة".

- كيف مات؟

رفعت بيفرلي الكشاف اليدوي عن الأرض، حيث بدأت إضاءة مصباحه تضعف.

أطفأته.

ظلام دامس.

همس المطر ولا شيء غيره.

- حدث هذا في الليلة التي حاولنا فيها الهرب. ما زلت لا أعرف بالضبط كيف اكتشفوا أمرنا، لأننا تركنا رقاقتينا في سريرينا كما فعلنا مرات كثيرة من قبل. التقينا أنا وبيل في بقعتنا التي حددناها مسبقًا ومعنا الإمدادات والمؤن... لكننا لم نحظَ بفرصة قط.

كان بمقدور إيثان أن يسمع الأسى يشق صوتها.

قالت: "كان علينا أن نمضي في طريقين منفصلين. عدت إلى منزلي، لكنهم أمسكوه، مزَّقوه".

- من الذين مزَّقوه؟

- الجميع.

- من الجمـ.

- البلدة بأكملها يا إيثان. كان بمقدوري... سماعه يصرخ من منزلي، لكن لم يكن هناك شيء أستطيع أن أفعله، في النهاية فهمت. أدركت ما الذي يُبقي الجميع هنا.

لم ينطق أحدهما بكلمة لما بدا دهرًا.

أخيرًا قال إيثان: "لم أصل قط إلى السور، لكني قطعت شوطًا في الغابة بعد المنعطف في الطريق عند الطرف الجنوبي من البلدة. كان هذا ليلة أمس. ويمكنني أن أقسم إني سمعت شيئًا".

- ماذا؟

- صرخة، أو بكاء. ربما شيء ما بين بين. والغريب كان شعوري بأني سمعتها من قبل. في حلم. أو في حياة أخرى. ملأتني برعبٍ حتى النخاع، كأنها عواء ذئب. شيء راسخ عميق. وكان رد فعلي الوحيد هو الجري. والآن تحكين لي عن هذا السور المكهرب، وأتساءل: لماذا يوجد هناك؟ هل هو لإبقائنا في هذه البلدة؟ أم لإبقاء شيء ما خارجها؟

في البداية، اعتقد إيثان أن الصوت قادم من داخل رأسه: بعد الآثار اللاحقة للمخدر الذي حقنته به الممرضة بام، أو صدمة ضرب بوب له وكل ما عاناه من ساعتها.

لكن الضجة زادت بسرعة.

شيء ما يرن.

لا.

أشياء كثيرة ترن.

مئات ومئات منها.

تساءل إيثان وهو يجاهد كي يقف على قدميه: ما هذا؟

كانـت بيفـرلي عنـد البـاب بالفعـل، تناضـل كي تجذبـه لينفتـح، والمفصلات تـئن، وبعـد ذلـك اجتاحـت الـسرداب لفحـة مـن هـواء أبـرد وعلـت الضجـة فجـأة.

أدرك إيثان ما كان.

صـوت خمسـمئة هاتـف مـن ذوات القـرص الـدوار ينطلـق في وقـتٍ واحـدٍ، ليمـلأ الـوادي برنـين زاعـق غريـب.

قالت بيفرلي: أوه يا إلهي!

- ماذا يحدث؟

- هكذا بدأ الأمر ليلة مقتل بيل.

- لا أفهم.

- كل هاتـف في كل منـزل في وايـوارد باينـز يـرن الآن. يبلغـون النـاس بالعثـور عليـك وقتلـك.

تأهَّـب إيثـان لأثـر هـذه المعلومـة عليـه، لكنـه فقـط كان واعيًـا عـلى نحـوٍ غامـضٍ بأنـه يجـب أن يكـون خائفًـا للغايـة، شيء كان يعرفـه لكنـه لم يشـعر بـه، كان عقلـه يقيـم سـياجًا حـول نفسـه بالفعـل، منزلقًـا إلى تلـك الحالـة فاقـدة الحـس المليئـة بالأدرينالـين التـي يتميـز بهـا السـعي الآلي للبقـاء والتـي تذوقهـا في تلـك المـرات القليلـة مـن حياتـه عندمـا دفعـه سـوء الحـظ إلى النظـر في عينـي المـوت مبـاشرةً. لا مـكان لفكـرة أو شـعور عارضـين مهدريـن. كل الطاقـة تتحـوَّل وتتوجـه بحيـث يمكنهـا أن تضاعـف الـشيء الوحيـد الـذي يمكـن أن يبقيـه حيًـا: الإدراك الحـسي.

قال: "سأتخلص من الرقاقة وأختبئ هنا، انتظريهم في الخارج."

- هنـاك أكـثر مـن خمسـمئة شـخص يعيشـون في وايـوارد باينـز، وسـيبحث كل واحـد منهـم عنـك، أعتقـد أن أحدهـم في النهايـة

سيدخل من هذا الباب، ولن ترغب في أن تكون هنا عندما يحدث هذا.

جذب إيثان الكشاف من يدها وأضاءه، وعرج نحو الحقيبة القماشية.

سألها وهو يجثو على ركبتيه بجوار الحقيبة: "ماذا يوجد هنا؟"

- ملابس لك، حذاء، اضطررت إلى تخمين مقاساتك.

- أسلحة؟

- آسفة؛ لم أستطع أن أصل إلى شيء منها.

بدأ إيثان في إخراج الأشياء من الحقيبة: تيشيرت أسود طويل الكمين، جينز أسود، حذاء أسود، دستتان من زجاجات المياه.

همست إليه بيفرلي في صوت كالفحيح: "أطفئ الكشاف!"

أطفأه إيثان.

قالت: "عليك أن تمضي حالًا؛ إنهم قادمون."

- فقط دعيني أرتدي ملابسي و...

- هم في المقبرة بالفعل، يمكنني أن أرى ضوء كشافاتهم.

ترك إيثان كل شيء متناثرًا على الأرض وسار مترنحًا إلى الباب الحديدي، لمح في الظلام خارجًا أربع نقاط من الضوء تتلاقى عبر الشواهد الحجرية.

بدا أنهم على مبعدة بضع مئات من الأقدام، رغم أن تحديد المسافة كان تحديًا في هذا الطقس.

كانت الهواتف قد سكنت.

همست بيفرلي في أذن إيثان: "عليك أن تعثر على النهر في الطرف الجنوبي الغربي من البلدة. هذا هو السبيل الذي خططنا أنا وبيل لأن نسلكه. إنه الاتجاه الوحيد الذي لم أستكشفه كله. قطع بيل شوطًا صغيراً فيه واعتقدَ أنه يبدو واعدًا."

- أين سنلتقي؟
- فقط اعثر على النهر وسِر عكس التيار، سأجدك.

جذبت بيفرلي قلنسوة معطفها فوق رأسها، وخطت خارجة من الضريح، وهرولت بخطى واسعة في الليل، وأنصت إيثان بينما وقع خطواتها يتلاشى وسرعان ما ضاع وسط صوت المطر الثابت.

لبث عند العتبة، محولًا انتباهه بين الأضواء المقتربة والظلام الدامس في السرداب، متساءلًا إن كانت لديه دقيقتان ينفقهما في ارتداء الملابس وتجميع المؤن أم إن كان عليه أن يمضي فقط.

اقتربت أشعة الضوء الأربعة، وكلها تتحرك في الاتجاه العام للضريح وتجلب معها أصواتًا.

اتخِذ قرارًا، اللعنة!

كان يضيع ثواني ثمينة.

لو وصلوا إليك وأنت في السرداب، فأنت ميت. لا مفرّ، ويمكنهم أن يكونوا هنا في وقت أقل مما ستستغرقه في ارتداء الثياب.

جرى.

لم يكن يرتدي شيئًا إلا رداء المستشفى، بلا حذاء، وقدماه الحافيتان تحفان بالعشب وتغوصان في بقع الطين البارد.

رشقات المطر تنهمر عليه.

يشعر بالوجع.

أهلكه البرد.

أوتار ركبته اليسرى تصرخ مع كل انثناءة.

أخـرس كل هــذا -الخــوف والوجــع والــبرد- وانطلــق عــبر أشــجار الصنوبــر، متفاديًــا شــواهد القبــور.

لم يبـدُ أن نقـاط الضـوء الأربـع خلفـه قـد لاحظـت خروجـه حيـث ظلَّـت في مســار متقاطـع مـع الضريـح.

في ظـلامٍ شـبه تـامٍّ، كان افتقـاده للاتجـاه مربـكًا. لم تكـن لديـه أي فكـرة عــما إذا كان يتجـه شــمالًا أم جنوبـًا، نحـو البلــدة أم بعيـدًا عنهـا، لكنـه اسـتمر في الجـري إلى أن وصــل إلى جــدار حجـري شــكَّل حــدًّا متداعيًـا للمقـبرة.

تسـلَّقه وجلـس فوقـه لحظـة يلتقـط أنفاسـه ويلقـي نظـرة وراءه عـلى الطريـق الـذي أتى منـه.

المزيد من الأضواء.

عـلى الأقـل نصـف دسـتة مـن القادمـين الجـدد بالإضافـة إلى الأربعـة الأصليـين، وكان هنـاك المزيـد يظهـرون كل ثانيـة خلفهـم، جيـش حقيقـي مـن الخنافـس المضيئـة تتوالـد في الظـلام وتتحـرك جميعهـا نحـوه في حركـة متمايلـة جعلتـه يخـشى أن يكـون الأشـخاص الحاملـون لهـا يجـرون.

ألقى إيثان الرقاقة على الجدار الحجري.

ثـم أرجـح سـاقيه وقفـز هابطـًا عـلى الناحيـة الأخـرى، وجفـل مـن الألم القــارص في أوتــار ركبتــه اليــسرى، لكنــه تجاهلــه واندفــع إلى حقــل مــن العشــب المجـزوز.

عــلى الجانــب البعيــد، التمعــت أراجيــح وزلاقــات أطفــال في ملعــب وكان بمقـدوره أن يـرى المطـر ينهمـر عـبر إضـاءة عمـود نـور معلـق.

وراء ذلـك، في مجموعـة مـن أشـجار الصنوبـر المعتمـة، المزيـد مـن أضـواء الكشـافات، المزيـد مـن الأصـوات.

صـاح أحدهـم وراءه في المقـبرة، ورغـم أنـه لم يسـتطع تحديـد إن كان هـذا الـصراخ موجهًـا نحـوه، إلا أنـه دفعـه لتسريـع خطوتـه.

عندمـا اقـترب مـن الأرجوحـة ولـوح التزلـق، خطـر عـلى بالـه أيـن كان، وأكـد ذلـك خريـر المـاء الجـاري الـذي كان أعـلى مـن صـوت سـقوط المطـر وخفـق قلبه.

رغـم أنـه لم يسـتطع أن يراهـا في الظـلام، امتـدت عـلى يسـاره تلـك الضفـة العشـبية التـي أفـاق فوقهـا ليجـد نفسـه في وايـوارد باينـز منـذ خمسـة أيـام.

والنهر.

كاد يصحـح مسـاره كي يتحـرك نحوهـا، غـير أن ضـوءًا ومـض عندئـذٍ في المـكان الـذي تخيـل أنـه الشـاطئ.

اندفـع إيثـان بجـوار لـوح التزلـق، وشـقَّ بكتفيـه سـياجًا مـن شـجيرات تقطـر مـاء مزقـت تقريبًـا رداء المستشـفى الواهـي عنـه، وتعـثَّر خارجًـا إلى الشارع.

تعلق الرداء أسمالًا حول رقبته مثل شالٍ ممزقٍ.

مزَّقـه تمامًـا، وهـو في حاجـة يائسـة إلى الأكسـجين -دقيقـة كاملـة مـن الشـهيق العميـق لم تكفـه- لكـن لم يكـن هنـاك وقـت للتوقـف وإعـادة مـلء رئتيـه.

كانـت الأضـواء مـن المقـبرة والنهـر وأشـجار الصنوبـر في الطـرف الشـمالي مـن المتنـزه قـد تلاقـت في ذلـك الحقـل المفتـوح لتصنـع سربًـا مضيئًـا تحـرك نحـوه الآن ككيـان واحـد، مصحوبًـا بخليـطٍ مـن الأصـوات السـكرى ببهجـة المطـاردة المدوخـة.

وخزت دفعة جديدة من الأدرينالين دماء إيثان.

دقَّت قدماه الموحلتان على الرصيف المبتل عندما عدا عاريًا نحو منتصف الشارع، والمطر ينهمر على وجهه.

أدرك أن هدفه قد ابتعد.

انسَ الوصول إلى النهر، لقد صار في حاجة إلى العثور على مكان ما يختبئ فيه وينجو من هذا الجنون. لم يكُ يعرف كم عدد مطارديه، كم رأوه بالفعل، لكن العدو عاريًا عبر البلدة سيؤدي به إلى أن يُقتل في عجالة.

صاح صوت عميق: هناك!

ألقى إيثان نظرة وراءه، ورأى ثلاثة ظلال تندفع خارجة من منزل فيكتوري كبير، والرجل في المقدمة ينطلق هابطًا السلالم، عبر الفناء الأمامي، ويقفز فوق السياج الخشبي الأبيض برشاقة كبيرة بينما تجمَّع رفيقاه عند البوابة يتحسسان المزلاج.

هبط الواثب فوق السياج على الرصيف وعدا بسرعة متوسطة ثم زاد من سرعته، في ثيابه السوداء تمامًا، وحذاؤه العالي يدق أرض الشارع. حمل ساطورًا التمع نصله المبتل تحت الشعاع الخاطف لكشاف مثبت في رأسه، وهو يعدو بقوة، ويتنفس بقوة، وصوت في رأس إيثان يقول بحسمٍ وبهدوءٍ قاتل كأنه سيناتور بيروقراطي يقرأ دليل هاتف في الثالثة صباحًا: **هذا الرجل على مبعدة خمسين ياردة، وهو مسلح، وسيلحق بك.**

ماذا ستفعل حيال ذلك؟

10

اقتربت من العليَّة، إنها أعلى نافذة في المنزل.

مصنوعـة عـلى شـكل دَمعـة، ولهـا إفريـز بـارز فوقهـا يحمـي الزجـاج مـن المطـر.

الوقـت متأخـر والجـو مظلـم ووشـيش المطـر عـلى السـطح الصفيـح أعـلى رأسـها كان يمكـن أن يكـون صوتًـا مليئًـا بالسـلام في أي ليلـة أخـرى.

صوت يمكن للمرء أن ينام على خلفيته.

أن يحلم على خلفيته.

لم يرن هاتفها مع بقية الآخرين، وهي ممتنة لذلك.

كانـت قـد صلَّـت كي لا ينتظـروا منهـا أن تشـارك في هـذا، وهـذه الاسـتجابة بمنزلـة اسـتراحة صغـيرة وسـط هـذا الكابـوس.

مـن نقطـة مراقبتهـا في الطابـق الثالـث، يمكنهـا أن تـرى أضـواء الكشـافات تظهـر عـبر الـوادي مثـل أضـواء مدينـة كبـيرة تُبعَـث للحيـاة. مئـات منهـا. أغلبهـا بعيـدٌ، لا شيء أكـثر مـن هبـاءات ألـق في المطـر المنسـكب. وأخـرى قريبـة بمـا يكفـي لأن تـرى مخروطـات ضـوء مفـردة تخـترق الضبـاب الخفيـف الـذي بـدأ يتكـوَّن في الأزقـة والوهـاد.

عندما يظهر في مجال رؤيتها، يتوقف قلبها.

عارٍ.

شاحب.

يجـري كشـبحٍ في وسـط الشـارع ويطـارده ثلاثـة رجـال متسربلـين بالسـواد ومعهـم سـواطير.

كانـت تعـرف أن هـذا سـيحدث، وظنَّـت أنهـا هيَّـأت نفسـها بقـدر مـا يمكـن للمـرء أن يفعـل لمثـل هـذا الأمـر، لكـن عندمـا رأتـه لحـمًا ودمًـا -بخوفـه وهلعـه ويأسـه- عضَّـت عـلى شـفتيها كي تمنـع نفسـها مـن الصيـاح بـه.

أنا أشاهد إعدامه.

يخـرج إيثـان مـن مجـال رؤيتهـا، متحـركًا نحـو الأبنيـة التـي تصطـف عـلى جانبـي الشـارع الرئيـسي، ويخطـر لهـا خاطـر أشـبه برصاصـة خرطوش مزدوجـة تـضرب صدرهـا: لقـد رأتـه لآخـر مـرة، لأنهـا لـن تذهـب إلى المنـزل الكائـن في الجـادة الأولى كي تشـهد مـا تبقـى منـه، كي تـرى الدمـار الـذي سـيلحق بزوجهـا، والـد ابنهـا.

تدفـق المزيـد مـن النـاس في الشـارع بشـكلٍ جماعـي، وكلهم يتسـابقون نحـو الشـارع الرئيسي.

رغـم الطقـس القاتـم، الجـو جـو كرنفـالي، وتدريجيًـا، تـرى أزيـاء تنكريـة، الكثـير منهـا بـلا شـك مُعَـد مسـبقًا.

ورغم أن أحدًا لا يتحدث أصلا عن **المهرجان**، فإنها تعرف أن هناك أشخاصًا يتوقون إلى أن ترن هواتفهم.

لفرصة أن يجروا مسعورين في الساعات الأولى من الصباح.

لأن يلغوا في الدماء.

انضمَّت هي وبِن إلى الغوغاء في المرة الأخيرة -كأنه كان لديهما الخيار- ورغم أنهما لم يجدا طريقهما إلى قلب العاصفة التي ضربت بالفعل بيل إيفانز حتى الموت، فإنهما علقا في المحيط.

سمعا صرخاته وتوسلاته في مقابل الضحك والتهكم المهووس من جانب الحشد.

بعد ذلك، احتفلت البلدة كلها في الشارع الرئيسي حتى الفجر -تدفق الخمر، وانفجرت الألعاب النارية، والرقص والغناء والطعام- ورغم أنها لم تستطع أن تتجنَّب الشعور بالغثيان من كل هذا، سرى في الحشد اتحاد كأن الهواء ذاته مكهرب.

الكل يتعانقون.

يحتفلون.

ليلة للبشرية بكل شرِّها ومرحها وجنونها.

احتفال في الجحيم.

طوال سنواتها الخمس في وايوارد باينز، لم تكن هناك إلا أربع **مهرجانات**.

والليلة يكتمل الخامس.

تمسح تيريزا وجهها وتبتعد عن النافذة.

تتحرك بهدوء عبر العليَّة الخالية، مراعية أن تبقي خطوها رفيقًا على الخشب الصلب الذي يتعالى صريره. لو أيقظت بِن ورأى احتفالًا يتشكَّل، سيرغب في الخروج، في أن يكون جزءًا منه.

تهبط السلم الخشبي، وتطويه، وترفع باب العليَّة معيدة إياه إلى السقف.

غريب جدًّا أن تكون واقفة في الطابق الثاني من هذا المنزل الصامت، تفكر فيما يحدث بالخارج.

تقطع الرواق وتتوقف عند باب غرفة بنجامين المفتوح.

هو نائم.

في الثانية عشرة من عمره ويبدو أشبه بأبيه أكثر وأكثر كل يوم.

تراقبه، وتتساءل إن كان إيثان سيصرخ عندما يمسكون به في النهاية.

هل ستسمعه؟

ولو حدث هذا، هل ستتمكَّن من تحمُّل هذا؟

أحيانًا تبدو الأمور طبيعية للغاية، **كما كانت دائمًا**، لكن بعد ذلك تأتي لحظات يهدد فيها الضغط المدفون للأسئلة التي لم تعد تسمح لنفسها بطرحها بأن يهشِّمها مثل بلورة قديمة.

بعد قليلٍ، ستنطلق الموسيقى في الشارع الرئيسي، وهناك احتمالات بأن يوقظ هذا ابنها.

سيرغب بِن في معرفة ما يحدث، ولن تكون هناك فرصة للكذب عليه.

لا مجال لتغطية المُر بالسكر.

هو أذكى من هذا.

وهي تحترمه للغاية.

ماذا ستقول له؟

والسؤال الأصعب...

بعد أسبوع من الآن عندما تصحو في قلب الليل، وحيدة في غرفة نومها المظلمة، بلا احتمال لأن ترى زوجها مرة أخرى أبدًا...

ماذا ستقول لنفسها؟

11

اندفـع إيثـان عـبر التقاطـع التـالي، وكلـما ألقـى نظـرة وراءه ظهـر المزيـد مـن الأضـواء، لكـن همَّـه المبـاشر كان أقـرب مطارديـه.. واثـب الحواجـز. كان الرجـل قـد سـبق بمسـافة رفيقيـه الأبطـأ، ودار في خلـد إيثـان أنـه يبـدو مألوفًـا -الـرأس الأصلـع، النظـارة الضخمـة ذات الإطـار الفـضي- وعندمـا اقـترب الرجـل في حـدود ثلاثـين قدمًـا، أدرك إيثـان مـن كان: ذلـك الصيـدلي الوضيـع الـذي حـاول أن يشـتري منـه الأسـبرين قبـل يومـين.

لاح الشـارع الرئيـسي أمامـه بعـد مربـع سـكني واحـد، وثمـة ضجـة مزعجـة تمـور مـن فـوق البنايـات ذات الطابقـين والثلاثـة؛ ثرثـرة حماسـية لجمـعٍ محتشـدٍ.

من المستحيل أن يتمكَّن من الجري عاريًا في الشارع الرئيسي.

لكـن بإيقـاع خطـوه الحـالي ودون تغيـير مسـاره، سـيفعل هـذا خـلال عشريـن ثانيـة.

ظهـر شـارع بـين إيثـان والشـارع الرئيـسي، ولم يكـن شـارعًا حتـى؛ مجـرد زقـاق ذي اتجـاه واحـد انشـقَّ خلـف صـفٍّ مـن البنايـات. منحـه مـددًا أخـيرًا مـن الأدرينالـين المـشرب بالغضـب كي يعـترف بأنـه لـو دار حـول الناصيـة إلى داخـل ذلـك الزقـاق وصـادف أي شـخص، أي شـخص عـلى الإطـلاق، فقـد انتهـى.

سيقطعه إربًا صيدلي يشهر ساطورًا.

يا له من موقف رائع!

نهـض جـراج مـن طابـق واحـد عـلى جانـب الشـارع، وتصور أن زاويـة هـذا المبنـى -عندمـا يـدور حولـه- سـتحجب الرؤيـة عـن الصيـدلي نحـو ثانيتـين.

لو لم يكن هناك حشد ينتظره في الزقاق، قد يكون هذا كافيًا.

كان إيثـان يعـدو في قلـب الشـارع، لكـن الآن حـان الوقـت كي يغـيِّر مسـاره.

انحرف يمينًا، قاطعًا الرصيف الأملس بفعل المطر.

يجب ألا تقع.

عـبر خطًّـا مـن العشـب، ثـم ممـشى، ثـم العشـب مـرة أخـرى، وعندمـا وصـل فتحـة الزقـاق، خطـر ببالـه أنـه لا يعـرف حتـى مـاذا سـيفعل.

لا وقت للتخطيط. اتبع فقط رد فعلك.

مـن دنـو وقـع خطـوات الرجـل، قـدَّر إيثـان أن الصيـدلي وراءه بسـت خطـوات واسـعة.

انطلق إيثان كالرصاصة داخل الزقاق.

من الخرسانة إلى التراب.

الزقاق أكثر ظلمة.

ضباب خفيف مشوب بنتن القمامة المبتلة.

لم يرَ أحدًا في الجوار المباشر إلا ضوء كشافين أو ثلاثة على مبعدة عدة مئات من الأقدام، تتحرك بلا هدف في طريقه.

ضرب إيثان الأرض بقدميه جانبيًا وبشكلٍ متوازٍ، كأنه يوقف زلاجة، كابحًا اندفاعته إلى الأمام وهو ينزلق في وقفة حادة حتى إنه أحسَّ بالجاذبية تحارب كي تقلبه رأسًا على عقبٍ.

عدل جسده وانطلق كالسهم عائدًا في الطريق الذي جاء منه، وزاد من سرعته تمامًا عند زاوية البناية.

تعال هنا. تعال هنا. تعال هنا.

كان الاصطدام مريعًا، حيث ارتطمت جبهة إيثان في عنفٍ بالنصف الأسفل من فك الصيدلي في ضربة تكسر العظام بلغت من القوة حد أن أثرها ترك إيثان ذاهلًا في وقفته لمدة نصف ثانية.

ارتدَّ إلى الخلف بحدة، والدماء تسيل على وجهه.

جلس الصيدلي مصعوقًا يبصق أسنانه على الطريق.

في أعقاب الضربة المُتلِفة للدماغ، استغرق الأمر من إيثان ثانيتين كي يدرك أن الشيء المعدني الطويل الراقد على الرصيف هو ساطور الرجل.

انحنى ورفعه بينما الرجل يتطلع إليه، وقد أعاده رعب معرفة ما هو على وشك أن يحدث إلى الوعي والتماسك بشكلٍ أكثر فعالية مما كانت يمكن أن تفعله به حفنة من النشادر.

اعتـصر إيثـان بأصابعـه الـبروزات في مقبـض السـاطور، والتـي كانـت ملفوفـة بشريـطٍ لاصـقٍ لتحسـين القبـض عليهـا في المطـر.

رفع الرجل ذراعيه في محاولة واهنة لصد ما لا يمكن صده.

تظاهـر إيثـان بأنـه سـيهوي عليـه بضربـة لكنـه فاجـأ الرجـل بركلـة أماميـة في وجهـه، غـاص كعبـه في حطـام أنـف الرجـل المكسـور ودفـع مؤخـرة رأسـه إلى الرصيـف في صدمـة كفيلـة بكـسر الجمجمـة.

تـأوّه الرجـل وسـكن مكانـه، لكـن صديقيـه كانـا يقتربـان -سـيكونان هنـا في غضـون عـشر ثـوان- وخلفهـما، عـلى مبعـدة مربـع سـكني، ذلـك الجيـش مـن الكشـافات اليدويـة الـذي يتحـرك مثـل قطيـع مـن الماشـية في الشـارع، ووقـع أقـدام عديـدة عـلى الرصيـف المبتـل يـزداد علـوًّا أكـثر وأكـثر.

فـرَّ إيثـان عائـدًا إلى داخـل الزقـاق، شـاعرًا بالارتيـاح عندمـا وجـد تلـك الأضـواء التـي رآهـا في المـرة الأخـيرة قـد اختفـت.

جـرى، محـاولًا أن يحقـق أكـبر اسـتفادة ممكنـة مـن هـذا المنفـذ القصـير للاختفـاء.

بعد عشرين خطوة اقترب من حاوية قمامة ولم يتردد.

تـوارى وراء جانبهـا، وهبـط عـلى الأرض، وزحـف خلفها، ليحشر جسـده بـين المعـدن وحائـط الطـوب في البنايـة التي اسـتندت إليهـا الحاوية.

لم يسـتطع أن يسـمع أي شيء أعـلى مـن هديـر قلبـه ولهاثـه الأشـبه بلهـاث الكلـب، وقـد سـال العـرق والـدم عـلى وجهـه إلى داخـل عينيـه، متجمديـن، واشـتعلت عضلاتـه بحرقـان حمـض اللاكتيـك كأنـه صـدم للتـوِّ حائطًـا في ماراثـون.

تدافعـت الخطـوات في مرورهـا عـلى الجانـب الآخـر مـن الحاويـة وبـدا صـوت ابتعادهـا -الـذي ظـل يضعـف باطـرادٍ- أشـبه بالموسـيقى.

استقر جانب وجه إيثان على الأرض، والتصق في وجهه التراب وشظايا الزجاج والحصى.

دقَّ المطر على ظهره وتجمَّع حوله في برك تختلج مع كل نقطة جديدة.

كان من الممكن أن يرقد هناك طوال الليل وشوطًا طويلًا من النهار التالي.

ارفع مؤخرتك، لا يمكنك أن تتحمَّل كلفة أن يتصلب جسدك.

وضع إيثان راحتيه على الحصى المبلول وجاهد كي ينهض على يديه وركبتيه.

تراجع خارجًا من المساحة بين الحاوية والمبنى وجثم لحظة إلى جوار صفيحة القمامة يتنصَّت.

أصوات بعيدة.

خطوات بعيدة.

الهياج في الشارع الرئيسي.

لكن لم يبدُ شيء قريبًا بشكل خطِر.

نهض، وألقى نظرة وراءه نحو فتحة الزقاق، ورأى الحشد يمرُّ مهرولًا، قاطعًا الشارع نحو أيًّا ما كان يحدث في الشارع الرئيسي.

حافظ على التصاقه بحائط الطوب، وتوجه إيثان إلى الاتجاه المعاكس، في عتمة الزقاق الضبابية.

بعد ثلاثين قدمًا، وجد فاصلًا في الطوب: بابًا خشبيًّا.

نظر وراءه نحو حاوية القمامة، وإلى الشارع وراءها.

كان أحدهـم قادمًـا الآن - شـعاع مـن الضـوء يمسـح الزقـاق جيئـة وذهابًـا، مصحوبًـا بصـوت سـحق الحـصى تحـت الأقـدام.

جـذب إيثـان البـاب وفتحـه، وألقـى مصبـاحٌ مـن الداخـل بقعـة مـن النـور في الزقـاق تبـددت في الضبـاب.

اندفـع داخـلًا إلى سـلم مـضيء، وجـذب البـاب وراءه ليغلقـه، واسـتدار ليسـحب التربـاس.

كانت الأسطوانة مثقوبة كأنها تجويف ومليئة بمعدن صلب.

لا سبيل لإيصاده.

أسرع إيثـان صاعـدًا السـلم الضيـق، وضغـط الصعـود يبعـث دفعـات جديـدة مـن الألم في الناحيـة الخلفيـة مـن سـاقه اليـسرى.

عندما وصل بسطة الطابق الثاني، انفجر باب الزقاق مفتوحًا.

ألقـى إيثـان نظـرة أسـفل السـلم إلى رجـلٍ ضخـمٍ يقـف مرتديًـا معطـف مطـر أصفـر يقطـر مـاء، ممسـكًا في يـدٍ كشـافًا، وفي الأخـرى سـكين تقطيـع تصـور إيثـان أنـه انتزعهـا مـن حاويـة أدوات المائـدة في البيـت.

ظلَّـت عينـا الرجـل مخفيَّتـين تحـت ظـل قلنسـوة المعطـف، لكـن فكَّـه كان متصلبًـا ويـداه -خاصـةً تلـك الحاملـة للسـكين- ثابتتـين كالصخـر، لتكشـفا عـن غيـاب أي أثـر للتوتـر.

اندفـع إيثـان عـبر البسـطة وصعـد مجموعـة السـلالم التاليـة بينـما امتـلأ الـدَرج بصـدى خطـوات الرجـل في حذائـه العـالي.

عند بسطة الطابق الثالث، وجد إيثان مدخلًا أمامه.

لاح الممر هادئًا، فارغًا، خافت الإضاءة.

عُلقت شمعدانات تشبه الفوانيس على الحائط كل عشرين قدمًا.

وتصدرت كل باب أرقام نحاسية.

عمارة سكنية؟

سمع إيثان وقع الخطوات يهدر على السلم.

انطلق عبر الممر، محاولًا مع كل مقبض باب يمر به.

موصد.

موصد.

موصد.

موصد.

موقنًا أن باب السلم سينفتح مجلجلًا في أي لحظة.

موصد.

موصد.

دار مقبض الباب السابع الذي جرَّبه، رقم تسعة عشر.

أحكم قبضته على الساطور في حالة ما كان أحدهم ينتظره على الناحية الأخرى، ودفع الباب بأصابع قدمه ليفتحه.

شقة صغيرة حالكة.

يبدو أنها خالية.

انزلق داخلًا وأغلق الباب في نفس اللحظة التي انفتح فيها باب السلم.

رفع إيثان ذراعه، وعلق السلسلة في خطافها.

ربض عند المدخل، وسمع الباب في المدخل ينغلق.

أبطأ وقع الخطوات إلى حدٍّ كبيرٍ.

قدمان تدقان على الأرضية الخشبية الصلبة.

لا مزيد من الاندفاع.

ليس طَرْقًا مجنونًا على الأرض.

كان في إمكان إيثان أن يتصور الرجل تقريبًا في معطف المطر الأصفر يتحرك بطريقة منهجية عبر الممر. لا بد أنه عرف أن إيثان قد تسلل إلى إحدى الشقق، لكن لا سبيل لديه لمعرفة أيها.

اقتربت الخطوات -

والآن بما أن هذا الباب موصد أيضًا...

-وتوقفت على الناحية الأخرى، قريبًا بما يكفي لأن يرى إيثان عندما أطرق الضوء يتسلل تحت الباب مكسورًا في موضعين.

كيف عرف الرجل أين يتوقف تمامًا بحق الجحيم؟

اللعنة!

آثار القدمين الموحلتين.

اختفى ظل إحدى القدمين على الأرضية وأنَّ الخشب الصلب في الممر من الضغط.

تراجع إيثان مترنحًا، وانسلَّ منعطفًا حول الزاوية التي وجدها على اليمين إلى داخل مطبخ صغير.

صوت الخشب المتكسر.

انقطمت السلسلة.

تدفق ضوء الممر إلى داخل الشقة المظلمة.

لقد أطاح صاحب معطف المطر الأصفر بالباب.

وقف إيثان مستندًا بظهره إلى ثلاجة تئز، واستطاع أن يرى ظل الرجل يتضخم فوق السجاد داخل الشقة.

استطال الظل عندما تخطى الرجل العتبة وتحرك ببطء عبر المدخل القصير الذي ينفتح على مساحة للمعيشة.

قبل المطبخ بعدة خطوات، توقف.

كان بمقدور إيثان أن يسمع قطرات الماء المتساقطة من معطفه على السجاد، وأنفاس الرجل المتصاعدة بينما يحاول إيثان أن يحبس أنفاسه.

تكة ناعمة، وبعدها انطلق شعاع من الضوء في مساحة المعيشة وسار ببطء عبر الجدار حيث أحاطت رفوف الكتب بنافذتين كبيرتين، انسدلت عليهما الستائر حاليًّا.

من خلال النافذتين، تناهت إلى أسماع إيثان الضجة المتزايدة باطرادٍ في الشارع الرئيسي بالأسفل.

سقط الضوء على أريكة جلدية وطاولة قهوة، استقر عليها قدح خزفي -على طبق خزفي صغير- ينفث دوائر من بخار ملأت الشقة بعذوبة الكاموميل الناعسة.

تحرك الضوء عبر صورة فوتوغرافية مؤطرة -بستان من شجر الحور في لون خريفي تمامًا، وفي الخلفية جبال اكتست بنثار الجليد، وفوق كل هذا سماء أكتوبرية تشتعل بالزرقة- وبعد ذلك اقتحم الضوء المطبخ مارًّا بالموقد والخزانات وماكينة القهوة، ومنعكسًا من فوق الحوض المصنوع من فولاذ لا يصدأ في طريقه نحو إيثان.

انحنى إيثان وزحف عبر المشمع، وجثم في الظل بين المنصة الوسطى والحوض.

تقدم الرجل، وشاهد إيثان شعاع الضوء يضرب الثلاجة حيث كان يقف منذ خمس ثوان.

استمرت الخطوات في التقدم.

في باب الميكروويف أعلى سطح الموقد، لمح إيثان انعكاس الرجل ذي المعطف الأصفر الذي وقف الآن في مساحة المعيشة، محدقًا نحو مدخل في الجدار الشمالي ينفتح على غرفة نوم.

جاهد إيثان كي يقف ببطء على قدميه، وضجة الحشد تخفي طقطقة ركبتيه. وقف مواجهًا ظهر صاحب معطف المطر الأصفر بينما الرجل يتقدم بعزمٍ حذرٍ نحو غرفة النوم.

تسلل إيثان حول المنصة ثم خرج من المطبخ.

عند طاولة القهوة توقف.

وقف معطف المطر الأصفر عند عتبة غرفة النوم، على مبعدة اثني عشر قدمًا، مسلطًا ضوء كشافه اليدوي داخل الغرفة.

أحكم إيثان قبضته على مقبض الساطور المغلف بالشريط اللاصق وحكَّ بطن إبهامه بحافة النصل الطويل.

كان يمكن أن يكون أكثر حدة. أكثر حدة بكثيرٍ. سيكون عليه أن ينهال به في قوة.

هيا. هاجمه. الآن وأنت ما زلت تمتلك عنصر المفاجأة.

تردد.

لقد أحدث إيثان كثيرًا من الموت والمعاناة، لكن الاتصال الحميمي الخالص بالعنف كان خفيفًا من مقصورة الطيار في البلاك هوك. لم يكن إرسال صواريخ هيلفاير التي يرشدها الليزر إلى هدف على مبعدة ميلين يماثل في الخبرة قتل مدني بساطور في حيز صغير كهذا.

إحداهما أعلى بضع درجات من أن تكون لعبة فيديو. أما الأخرى...

استدار الرجل على عقبيه عند المدخل وواجه إيثان.

بدأت أنفاس كليهما تتسارع.

تساءل إيثان: "لماذا تفعل هذا؟"

لا إجابة.

لم يكن في مقدوره الآن أن يرى أي شيء من وجه الرجل.

فقط خطوطه الجانبية، ظل السكين في يده اليمنى، ودفقة من الإضاءة على حذائه، بعد أن صوَّب كشافه إلى الأرضية.

كان إيثان قد فتح فمه ليكرر السؤال عندما ارتفع الضوء، وسطع في وجهه مباشرة، في عينيه.

جلجل شيء ما على الأرضية.

وعاد الظلام.

لم يستطع إيثان أن يرى شيئًا مع الحمل الزائد على شبكية العين، ووقف أعمى في ظلام رمادي دون هيئة أو تفصيل.

كانت الخطوات تقترب، ومع كل خطوة تنضغط الأرضية الخشبية الصلبة تحت السجادة، ويصدر جينز الرجل حفيفًا وهو يندفع.

ترنح إيثان متراجعًا، وعادت إليه رؤيته.

رأى لقطة للمعطف الأصفر على مبعدة ثلاثة أقدام، وقد أمال سكين التقطيع إلى الوراء وهيَّأها لتنقض ضاربة.

مال إيثان - ضربة قوية خاطفة.

لم يقابل النصل مقاومة، وجعلته قوة الضربة يدور حول نفسه ويفقد توازنه، وفكر إيثان: **لقد أخطأت الهدف. أنا ميت.**

اندفع الرجل بجواره، وتعثَّر مرتبكًا عبر الغرفة إلى أن تمالك نفسه أخيرًا على جانب البار في منصة المطبخ.

استعاد إيثان توازنه، وعندما أحكم قبضته من جديدٍ على الساطور، لاحظ الدم يقطر من طرف النصل.

نظر إيثان وراءه نحو المطبخ.

كان الرجل قد أسقط السكين ووقف مواجهًا إيثان، وقد مال مستندًا إلى المنصة، وكلتا يديه قابضتان على الجانب الأيسر من عنقه الذي أصدر صوتًا كالفحيح يشبه الهواء المضغوط وهو يفر من إطار سيارة.

تراجع إيثان إلى باب غرفة النوم، وجلس القرفصاء، ورفع الكشّاف من فوق السجادة.

سلّط الشعاع على صاحب معطف المطر الأصفر.

كان مقدار الدم مريعًا.

بدا أشبه بنسيج عنكبوت أحمر فوق النسيج البلاستيكي الأصفر للمعطف، ينتشر مثل التصوير المتقطع لفيروس يتكاثر، وهو يسيل في دستة خيوط متفرقة ويتجمع في برك على الأرضية. انبثق الدم من جرح عميق بعرض ست بوصات عبر التقاطع بين كتف الرجل وعنقه، والدم يتناثر من طرف في نافورة دقيقة ويخرج من الطرف الآخر في خفقات من الحمرة الشريانية الفاتحة، ومع انخفاض معدل نبض الرجل يتقلص قوس كل دفقة.

كان وجهه قد استحال ورقة بيضاء شاحبة، وهو يحدق في إيثان بلا تعبير على الإطلاق، فقط يرمش ببطء، كأنه تائه في حلم يقظة فاتن.

أخيرًا انزلق بعيدًا عن المنصة واصطدم بمقعد بار حطمه قبل أن يستقر على البلاط.

***

في خزانـة غرفـة النـوم، اسـتولى إيثـان عـلى بنطـال جينـز وتيشـيرت طويـل الكمـين وسـترة سـوداء ذات قلنسـوة. كان التيشـيرت والجينـز أصغـر مـن مقاسـه عـدة درجـات، لكـن إيثـان لم يكـن يسـتطيع حيـال ذلك شـيئًا. أمـا الحـذاء الريـاضي الـذي وجـده فكان مسـألة أخـرى. اسـتطاع أن يضغط قدميـه داخلـه، ويعقـد الربـاط، لكـن السـير بـه كان عذابًـا وتكفـل بـأن يصيبـه بالبثـور في أسرع وقـتٍ.

لكن حذاء الرجل الميت، رغم أنه أكبر بكثيرٍ، إلا أنه بدا واعدًا.

جذبـه إيثـان مـن قدميـه وظـلَّ يضيـف طبقـات مـن الجـوارب إلى أن لاءمـت قدميـه داخلـه عـلى نحـوٍ مريـحٍ.

بـدا شـعورًا طيبًـا أن يكتـسي بالثيـاب مـن جديـدٍ، بـل والأفضـل أن يكـون بعيـدًا عـن المطـر في هـذه الشـقة. كان هنـاك إغـواء قـوي بـأن يقـضي نصـف سـاعة أخـرى هنـا، يضمـد مـا يسـتطيع مـن جـراحٍ، لكنـه كان يجـب أن يسـتمر في الحركـة. لـو حـدث أن قامـت مجموعـةٌ كبـيرة بتفتيـش هـذا الطابـق، لـن يكـون لديـه مـكان يفـرُّ إليـه.

قبض إيثان على الكشاف والساطور، ومضى إلى الحوض.

قـضى دقيقـة كاملـة واضعًـا فمـه تحـت الصنبـور، يـكاد يجـن مـن العطـش لكنـه يحـاول ألا يفـرط في شرب المـاء.

فتح الثلاجة.

غريب!

كانـت هنـاك زجاجـات لـبن. خـضراوات طازجـة. كرتونـة بيـض. لحـم ملفـوف في ورق الجـزارة.

لكن لا شيء معبَّأ مسبقًا.

مـدَّ يـده وجـذب كيسًـا مـن الجـزر ورغيفًـا صغـيرًا مـن الخبـز، وحشـا بهـم الجيـوب الجانبيـة لبنطالـه.

أوقفت الضجة إيثان وهو متوجه نحو الباب: أصوات وصيحات تتعالى من الشارع الرئيسي.

اندفع عائدًا عبر الشقة إلى إحدى النافذتين الكبيرتين وحرّك ما يكفي من الستائر له كي يطل خارجًا.

أسفله بعشرين قدمًا: هرج ومرج.

توهجت البنايات وواجهات المتاجر وأظلمت في ظل التبادل الذي لا يتوقف بين نور النار والظل، ومصدر كل هذا شعلة عملاقة تستعر في قلب الشارع رغم المطر، تتغذى على شتلات الصنوبر وألواح جانبية طويلة انتُزعت من المنازل. حمل رجلان دكة خشبية نحو الشعلة، راقبهما إيثان وهما يلقيان بها إلى المحرقة وسط بهجة عظمى من الجماهير الغارقة في المطر التي احتشدت في المربع السكني، وتركيز الأجساد يتزايد بالقرب من ألسنة اللهب.

لم يبدُ الناس في الأسفل يشبهون في شيء هؤلاء السكان الذين قابلهم قبل هذه اللحظة.

كان أغلبهم قد ارتدوا أزياء غريبة.

تدلّت مجوهرات زائفة مبهرجة من معاصم وأعناق النساء، عقود وتيجان من الخرز واللآلئ. التمعت وجوههن بالجليتر والماكياج الثقيل، وجحظت أعينهن بالكحل، وكلهن يرتدين أقل القليل من الثياب رغم البرد والمطر، كأنهن حشد من العاهرات المحتفلات.

وبدا الرجال على نفس القدر من الغرابة.

ارتدى أحدهم سترة رياضية بلا بنطال.

وارتدى آخر بنطالًا داكنًا له حمّالتان حمراوان وبلا قميص، ووضع طاقية بابا نويل على رأسه. لوّح للسماء بمضرب بيسبول مدهون

باللـون الأبيـض الخالـص وقـد تغطـى برسـومات غريبـة لوحوشٍ لم يسـتطع إيثـان أن يتبيَّنهـا مـن نقطـة مراقبتـه.

لفـت انتباهـه جسـد ضخـم، يقـف عـلى أصيـص حجـري، وقـد ارتفـع رأسـه وكتفـاه أعـلى مـن الحشـد. كان الرجـل العمـلاق يرتـدي فـراء دب بُنـي -ومـا زال يثبِّـت نجمتـه النحاسـية- ووضـع عـلى رأسـه مـا يشـبه خـوذة معدنيـة بهـا قـرون وعـلٍ، وقـد خطـط وجهـه بألـوان حـرب زاعقـة، وعلَّـق عـلى كتفـه بندقيـة صيـد، وعـلى الكتـف الأخـرى سـيف في غمـده.

بوب.

تفقَّـد الرجـل ذلـك الحشـد كأنـه شيء يمتلكـه، وانعكسـت الشـعلة في مـاء عينيـه كأنهـا زوج مـن النجـوم.

كل مـا كان عليـه أن يفعلـه هـو أن يرفـع ناظريـه إلى الناحيـة الأخـرى مـن الشـارع، وفي وهـج نـور النـار، لـن يخطـئ في تمييـز إيثـان وهو يسـترق النظـر مـن شـقة الطابـق الثالـث.

كان يعـرف أنـه ينبغـي لـه أن يرحـل، لكـن إيثـان لم يسـتطع أن يبتعـد عـن النافـذة.

انفجـر قسـم مـن الحشـد بعيـدًا عـن مجـال رؤيـة إيثـان في صيحـات لفتـت انتبـاه بـوب، وارتسـمت ابتسـامة واسـعة عـلى وجـه رجـل القانـون.

مـن جيـب داخـلي في معطـف فـراء الـدب، أخـرج بـوب زجاجة شـفافة لا تحمـل بطاقـة وتحتـوي سـائلًا بُنيًّـا مـا، رفعهـا نحـو السـماء، وقـال شـيئًا أشـعل جنـون الحشـد ودفعهـم إلى الهتـاف بقبضـات مضمومة.

عندمـا أخـذ بـوب رشـفة طويلـة مـن زجاجتـه، بـدأ الحشـد يفـترق، مشـكِّلًا ممـرًّا في قلـب الشـارع الرئيـسي، وكلهـم يشرئبُّـون بأعناقهـم لـيروا.

ظهر ثلاثة أشخاص، يتحركون عبر الحشد نحو الشعلة.

أمسك الشخصان اللذان على الطرفين -رجلان يلبسان ثيابًا سوداء وتتدلى السواطير من أحزمة أكتافهما- بامرأة بينهما من ذراعيها.

بيفرلي.

أحسَّ إيثان بشيء يتقلقل بداخله؛ نواة مصهورة من الغضب تنشطر في قرارة معدته.

كان بمقدوره أن يرى كيف لا تملك القدرة على الوقوف، وقدماها تنزلقان على الرصيف بينما يجرُّها آسراها. إحدى عينيها مغلقة مما لا بد أنها كانت لكمة وحشية، وما استطاع رؤيته من وجهها كان مغطى بالدماء.

لكنها كانت واعية.

واعية ومذعورة، ونظرتها مثبَّتة على الرصيف المبتل تحت قدميها كأنها تحاول أن تصد عن عينيها كل شيء آخر.

حملها الرجلان حتى عشر ياردات من الشعلة ثم دفعاها إلى الأمام، وأطلقا سراحها.

صاح بوب بشيء ما عندما انهارت بيفرلي على الأرض.

تدافع الناس القريبون منها بشكلٍ مباشرٍ متراجعين ومُشكِّلين دائرة من الفراغ حولها، قُطرها عشرون قدمًا.

عبر النافذة، سمع إيثان بكاء بيفرلي.

بدت أشبه بحيوان جريح - شيء ما بالغ اليأس في عويلها الصادح.

من كل ناحية كان الناس يتدافعون بالمناكب كي يشقُّوا طريقهم عبر الحشد، محاولين الوصول إلى أطراف الدائرة، حتى أصبح عنقود الأجساد المكوِّنة لمحيط الدائرة متكتلًا أكثر وأكثر.

دسَّ بوب الزجاجة داخل معطفه وقبض على بندقيته.

شدَّ أجزاءها، وصوَّبها نحو السماء.

تردَّد صدى الفرقعة بين البنايات، وجلجل الزجاج في إطار النافذة.

حطَّ الصمت على الحشد.

كفَّ الجميع عن الحركة.

صار بمقدور إيثان أن يسمع صوت انهمار المطر من جديدٍ.

جاهدت بيفرلي كي تقف على قدميها ومسحت خيطًا من الدماء سال على منتصف وجهها. حتى من هذه النافذة في الطابق الثالث، لم يكن بمقدور إيثان أن يخطئ الرعدة التي اعترتها، ذلك الخوف المحيط الذي يلتهم الشخص الذي يعرف تمامًا أي أمر رهيب سيمرُّ به.

وقفت بيفرلي مترنِّحة في المطر، وإن مالت أكثر على قدمها اليسرى.

التفتت ببطء، متعثِّرة، ناظرة إلى الوجوه المحيطة، ورغم أن إيثان لم يستطع أن يسمع كلماتها، فإن نبرة صوتها لم يكن من الممكن أن يخطئها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

نبرة توسُّل.

يأس.

يسيل على وجهها المطر والدمع والدم.

مرَّت دقيقة كاملة.

شقَّ أحدهم طريقه عبر كتلة الناس واقتحم الدائرة.

انفجرت الهتافات.

تصفيق مجنون.

كان الرجـل ذا الحمّالتـين الحمراويـن وطاقيـة بابـا نويـل والصـدر العـاري بـلا قميـص.

في البدايـة، تسـكع عـلى الحافـة كأنـه يتأهـب لخـوض مغامـرة؛ كأنـه ملاكـم في ركنـه، قبـل لحظـات مـن دق الجـرس.

ناوله أحدهم زجاجة.

رفعها وأمالها إلى الوراء، وأخذ جرعة طويلة متهورة.

ثم قبض على مضربه المرسوم وسار متعثراً في الدائرة.

نحو بيفرلي.

دار حولها.

تراجعت إلى الوراء، منحرفة بالقرب من حافة الحشد.

دفعهـا أحدهـم دفعـة قويـة أعادتهـا إلى منتصـف الدائـرة، ووجهتهـا قـوة الدفـع مبـاشرةً إلى الرجـل ذي المـضرب.

لم يرَ إيثان الضربة وهي قادمة.

ولا رأتها بيفرلي.

حدثت بسرعة، كما لو أن الرجل قرر في اللحظة الأخيرة الممكنة.

حركة واحدة خاطفة.

صـوت خشـب القيقـب وهـو يـضرب الجمجمـة جعـل إيثـان يغلـق عينيـه بشـكل غريـزي ويشـيح بوجهـه.

زأر الحشد.

عندمـا فتـح عينيـه مـرة أخـرى، كانـت بيفـرلي عـلى الأرض، تجاهـد كي تزحـف.

أحسَّ إيثان بموجة من العصارة المرَّة في جوفه تهدد بالخروج إلى السطح.

ألقى الرجل ذو الحمالتين مضربه على الرصيف وانضم متبخترًا إلى الحشد.

تدحرج المضرب نحو بيفرلي.

مدَّت يدها نحوه، وأصابعها على مبعدة بوصات.

خطت امرأة ترتدي بيكيني أسود، وحذاء أسود بكعبين عاليين، وتاجًا أسود، وجناحي ملاك أسودين إلى داخل الدائرة.

سارت متأودة.

تصايح الحشد في ابتهاجٍ.

مضت المرأة الهوينى إلى حيث رقدت بيفرلي تجاهد كي تصل إلى المضرب.

جلست القرفصاء، ومنحت بيفرلي ابتسامة واسعة، ورفعت السلاح، قابضة عليه بيديها الاثنتين ورافعة إياه فوق رأسها مثل بلطة حربية لملكة من ملكات الشياطين.

لا، لا، لا، لا...

هوت به على منتصف ظهر بيفرلي.

ملأت صرخات البهجة الشارع بينما بيفرلي تتلوى على الأرض.

كان ليضحي بأي شيء مقابل أن يحلق الآن بمروحية بلاك هوك على ارتفاع مائتي قدم فقط من الشارع الرئيسي مصوبًا مدفعًا رشاشًا ثقيلًا، يصب نارًا بقوة ألفي دورة في الدقيقة على هذا الحشد، ويشطر هؤلاء الأوغاد إربًا.

ابتعد إيثان عن النافذة، ورفع طاولة القهوة بيديه الاثنتين، وضرب بها الحائط، ليتناثر الخشب، ويتهشم الزجاج.

لم يؤدِ هذا المجهود إلا إلى شحذ غضبه.

اشتهى العنف، وأشار عليه صوت خافت داخله بأن ينزل إلى الحشد بالساطور حالًا ويطيح فيهم. نعم، سيتغلبون عليه في النهاية، لكنه يا إلهي لم يكن يرغب في أي شيء أكثر من أن يشقَّ طريقه عبر هذه الحشود وهو يُعمل نصله فيهم، مذبحة يقوم بها رجل واحد.

لكنك ستموت بعد ذلك.

لن ترى أسرتك مرة أخرى أبدًا.

لن تعرف أبدًا ما وراء كل هذا.

عاد إيثان إلى النافذة.

رقدت بيفرلي بلا حراك في الشارع، وبحيرة من الدماء تتسع حول رأسها.

كانت الدائرة تنفك وتقترب.

ثم مرة واحدة، هجم الحشد عليها.

كان الرحيل خيانة، لكنه لم يستطع تحمُّل البقاء هناك والمشاهدة، ولم يكن هناك أي شيء يمكنه أن يفعله لإيقاف هذا - خمسمئة شخص ضد واحد.

ليس هناك شيء يمكنك أن تفعله من أجلها. لقد ماتت. ارحل الآن بينما ما زلتَ تستطيع.

عندما اندفع إيثان عائدًا نحو الباب، سمع بيفرلي تصرخ. أثار صوت ألمها وعجزها التام الدموع في عينيه.

اهدأ.

لعلَّ أشخاصًا ينتظرونك خارج هذا الباب.

يجب أن تكون حذرًا.

خطا إيثان خارجًا إلى الرواق.

خالٍ.

أغلق باب الشقة.

صار الهياج في الشارع الرئيسي همهمة غير مميزة.

مسـح عينيـه ومـضى عائـدًا إلى الطريـق الـذي جـاء منـه، عـبر الـرواق ومنـه إلى السـلم عـبر البـاب.

عنــد بســطة الطابــق الثالــث تــردَّد، وأنصــت محدقًــا مــن فــوق الدرابزيــن.

لا صوت.

لا حركة.

سكون غريب.

هبط.

في الأســفل فتــح البــاب مســافة شــقٍّ صغــيرٍ يتســع بالــكاد لأن يمــرق منــه.

فرَّ خيط من الضوء إلى الزقاق.

خطا إيثان في بركة صغيرة وأغلق الباب.

كانت تمطر أشد من قبل.

لم يتحرك لمدة ثلاثين ثانية، منتظرًا أن تعتاد عيناه الظلام.

ثــم جــذب القلنســوة فــوق رأســه، وتحــرك إلى الجنــوب، في منتصــف الزقــاق.

من بعيدٍ تدفق المطر عبر دائرة الضوء الساقط من عمود نور، غير ذلك كان الظلام بين البنايات تامًّا حتى إن إيثان لم يتمكَّن من رؤية قدميه تحته.

انفجر الحشد في أعلى زئير له حتى الآن.

فكر في بيفرلي، وكان عليه أن يمنع نفسه من تخيُّل ما كان يحدث لها، بينما يُحكم قبضته حول الساطور، وضروسه تطحن بعضها.

ثمة خطوات إلى الأمام جعلت إيثان يتوقف فجأة.

وقف قبل ثلاثين قدمًا من تقاطع الزقاق مع الشارع التالي، واثقًا من اختفائه في الظلال.

ظهر له رجل يرتدي معطف مطر داكن، يتوجه غربًا قادمًا من الشارع الرئيسي.

وقف تحت عمود النور وحدَّق إلى الزقاق.

كان يمسك ساطورًا وكشافًا يدويًّا.

وكان بمقدور إيثان أن يسمع دق المطر على معطفه.

عبر الرجل الشارع ودخل الزقاق.

أضاء كشَّافه، وسلط ضوءه نحو إيثان.

- من هناك؟

رأى إيثان أنفاسه تخرج بخارًا في البرد.

قال إيثان محدقًا إليه: "إنه أنا، هل رأيته؟"

- أنت من؟

كان الضوء ما زال في وجه إيثان، وتمنى أن يستطيع الرجل رؤيته وهو يبتسم، تمنى أن يفهم الجنون الذي كان في طريقه إليه.

اتسـعت عينـا الرجـل عندمـا اقـترب إيثـان بمـا يكفـي لـه كي يـرى الكدمـات وخطـوط الـدم والغـرز والدمـار العـام لوجهـه، لكـن رد فعلـه -بإمالـة السـاطور إلى الـوراء تأهبًـا لأن يهـوي بـه- جـاء متأخـرًا نصـف ثانيـة.

سـدَّد إيثـان ضربـة بالنصـل في مـوازاة الأرض بقبضـة واحـدة ولَّـد قـوة كافيـة لشـقِّ الرجـل مـن منتصفـه.

انثنـت سـاقا الرجـل، وارتطمـت ركبتـاه بـالأرض، وأجهـز إيثـان عليـه بثـلاث ضربـات قاطعـة قاتلـة.

بدأ يجري، ممتلئًا بفورة القتل كأنه تناول جرعة من المنشط.

اندفع إيثان خارجًا من الزقاق وعبر الشارع السابع.

إلى اليمـين: نصـف دسـتة مـن نقـاط الضـوء عـلى مبعـدة مربعـين سـكنيين تتحـرك في الشـارع نحـو وسـط البلـدة.

إلى اليسـار: خمسـون شـخصًا أو يزيـد يتدفقـون حـول الناصيـة قادمـين مـن الشـارع الرئيـسي، وأضـواء الكشـافات تومـض عندمـا يواجهـون ظلمـة الشـارع الجانبـي.

أسرع إيثـان، مندفعًـا داخـل الزقـاق التـالي، حيـث لا توجـد أضـواء أمامـه، لكنـه اسـتطاع أن يسـمع عـدة خطـوات تسـير وراءه، عـلا صوتهـا عـلى صـوت لهاثـه.

ألقى نظرة خلفه: حائط من الضوء يقترب متوعدًا من الزقاق.

أناس يتصايحون.

إلى الأمام، كان الشارع الثامن يقترب سريعًا.

احتـاج تغيـيرًا في المسـار، وكان يحسـب الاحتـمالات بالفعـل، لكنـه لا يسـتطيع أن يحسـم أمـره قبـل أن يـرى مـا ينتظـره هنـاك.

انطلق إيثان إلى الشارع الثامن.

إلى اليسار: لا أحد.

إلى اليمين: ضوء وحيد على مبعدة مربعين سكنيين.

انحــرف إيثــان يمينًــا، متحــركًا بأقــصى سرعــة وهــو يقطــع الشــارع بزاويــة.

قفــز فــوق حافــة الرصيــف وهبــط بقــوة عــلى الممــشى المقابــل، وكاد أن يتعــثَّر في حافــة مرتفعــة مــن الخرســانة، لكنــه تمكَّــن بطريقــة مــا مــن البقــاء عــلى قدميــه.

بعــد عشريــن يــاردة وصــل إلى المربــع الســكني التــالي غــرب الشــارع الرئيــسي، ونظــر وراءه ثانيتــين قبــل أن ينعطــف، ورأى أول مجموعــة مــن الأضــواء تخــرج مــن الزقــاق.

لو كان محظوظًا، فهم لم يروه.

مرق حول الناصية.

الظلام المبارك.

التزم الرصيف، مسرعًا تحت ظل أشجار الصنوبر دامس السواد.

لاح الشــارع التــالي خاليًــا أيضًــا، وأكــدت لمحــة سريعــة مــن فــوق كتفــه أنــه لا يوجــد إلا حفنــة مــن الأضــواء المطــاردة، مــا زالــت خلفــه بمقــدار عشريــن ثانيــة لــو كان عليــه أن يخمــن.

عبر إيثان مربعًا سكنيًا آخر إلى الغرب وبعد ذلك انطلق جنوبًا.

انتهى الشارع.

لقد وصل إلى حافة البلدة.

توقـف في منتصـف الطريـق، وانحنـى مسـتندًا بيديـه عـلى ركبتيـه، يلهـث طلبًـا للهـواء.

كان الناس قادمين، من خلفه والآن من الغرب.

تصـور أن في إمكانـه الجـري مسـافة مربعـين سـكنيين أعـلى التـل عائـدًا إلى الشـارع الرئيـسي، لكـن بـدا ذلـك فعـلًا أحمـق.

استمر في التحرك. أنت تضيع مسافتك الآمنة.

إلى الأمـام مبـاشرة، ثمـة منـزل فيكتـوري تنهـض في ظهـره الغابـة المحيطـة.

نعم.

أحـسَّ بـألمٍ حـارقٍ في سـاقيه وهـو يندفـع إلى الأمـام، عابـرًا الشـارع، منطلقًـا بمحـاذاة المنـزل.

قبـل أن يصـل إلى غابـة الصنوبـر بثـلاث خطـوات، صـاح صـوت طفـل: "إنـه يدخـل الغابـة!"

نظر إيثان وراءه.

عـشرون أو ثلاثـون شـخصًا يـدورون حـول زاويـة المنـزل، بكشـافات يدويـة سـاطعة، يجـرون نحـوه ككتلـة واحـدة، وللحظـة؛ تعجـب إيثـان مـن السـبب الـذي جعـل كل نِسـبهم خاطئـة.

سـيقان أقـصر مـن المعتـاد، رؤوس أكـبر مـن المعتـاد، والكشـافات محمولـة بشـكل أقـرب إلى الأرض.

أطفال.

هذا لأنهم أطفال.

اندفـع إلى الأشـجار، مبتلعًـا الهـواء المعطـر بالأريـج الحلـو والمر لأشـجار الصنوبـر المبتلة.

كانت الرؤية داخل البلدة صعبة بما فيه الكفاية، أما داخل الغابة فهي مستحيلة.

كان عليه أن يضيء الكشاف اليدوي، ويترك شعاعه المتأرجح يوجهه بين الأشجار، فوق الجذوع المقطوعة المتعفنة، والأغصان والفروع المتدلية التي تسوط وجهه.

دخل الأطفال الغابة في أثره، ووقع أقدامهم يدهس الأوراق المبتلة، ويكسر الغصون الساقطة. كانت لديه فكرة غامضة عن المكان الذي يمكن أن يكون فيه النهر، مفكرًا أنه لو استمر في التحرك يمينًا؛ لا يمكن أن يفوته، لكنه شعر بفقدان الاتجاه بالفعل، انحلَّ شعوره بالاتجاهات كأنه عقدة واهية.

صرخت فتاة: "أراه!"

ألقى إيثان نظرة وراءه، مجرد التفاتة سريعة برأسه، لكن لم يكن يمكن لتوقيتها أن يغدو أسوأ من ذلك: عَبَرَ بقعة من الفروع الميتة المتهدلة، واشتبكت قدماه في كتلة من الأغصان والجذور الملتوية طرحته أرضًا، وأسقطت الكشاف والساطور من يديه.

اقتربت الخطوات من حوله، قادمة من كل حدب وصوب.

كافح إيثان كي ينهض، لكن عريشة ما أمسكت بكاحله الأيمن، واستغرق خمس ثوانٍ كي يتحرر منها.

انطفأ الكشاف عندما سقط، ولم يستطع أن يراه هو أو الساطور أو أي شيء. تحسَّس بيديه الأرض، في محاولة يائسة للعثور عليهما، لكن كل ما قبضت عليه يداه الجذور والنباتات المتعرشة.

نهض بصعوبة، وشقَّ طريقه في العمى عبر كتلة النباتات المتهدلة بينما تقترب منه الأضواء والأصوات.

كان عاجزًا من دون كشاف.

تقلصت حركتـه إلى هرولـة بيديـن مفرودتـين أمامـه - باعتبارهـما خـط دفاعـه الوحيـد ضـد الاصطـدام بـأي شـجرة.

تقاطعـت أشـعة ضـوء مسـعورة أمامـه، لتمنحـه لمحـات عابـرة مـن التضاريـس في الأمـام - غابـة صنوبـر مختنقـة حتـى المـوت بالآجـام الكثيفـة، كان يجـب أن تتطهـر بالنـار منـذ أمـدٍ بعيـدٍ.

امتـلأت الغابـة بضحـك الأطفـال الخـالي مـن الهمـوم والمـدوِّخ والمهـووس.

نسخة كابوسية من لعبة ما في صباه.

تعـثَّر إيثـان خارجًـا إلى مـا تصـوره حقـلًا أو مرجًـا؛ لا يعنـي هـذا أنـه اسـتطاع أن يـرى أي شيء لعـين، لكـن المطـر الآن كان ينهمـر عليـه بحـدة أكـبر، كأنـه لم يعـد في مأمـن تحـت مظلـة الغابـة.

إلى الأمـام، ظـنَّ أنـه سـمع اندفاعـة النهـر، لكنـه فقدهـا مـع صـوت أنفـاس ثقيلـة يتعـالى مـن ورائـه.

ارتطـم شيء مـا بعنقـه - ليسـت ضربـة شـديدة القـوة، لكنهـا كافيـة لإفقـاده توازنـه مـن أجـل التاليـة.

والتالية...

والتالية...

والتالية...

والتاليـة وبعدهـا سـقط إيثـان عـلى الأرض، وغـاص وجهـه في الطـين، وغـرق كل شيء في ضحـك الأطفـال، وهجـوم شـامل مـن كل ناحيـة، مـن كل زاويـة: لكـمات سـطحية لا يمكـن أن تؤذيـه، لدغـة جـروح سـطحية، وعـلى فـترات متباعـدة يـأتي ثقـلٌ مقلـقٌ أكـثر بكثـيرٍ لأشـياء ثلمـة تـضرب رأسـه، وكل هـذا تـزداد وتيرتـه مـع كل ثانيـة تمـر، كأنـه يتعـرض لهجـوم سرب مـن أسـماك البيرانـا الصغـيرة الضاريـة.

طعنه شيء في جنبه.

صرخ عاليًا.

تهكموا عليه.

طعنة أخرى - ألم عميق.

امتلأ وجهه بفورة غضب، وجذب ذراعه اليسرى من قبضة أحدهم، ثم ذراعه اليمنى.

وضع راحتيه على الأرض.

ودفع جسده للنهوض.

ارتطم شيء صلب -صخرة أو كتلة من جذع شجرة- بمؤخرة رأسه بقوة كافية لأن تُسقط حشوات أسنانه.

استسلمت ذراعاه.

انغرز وجهه في الطين مرة أخرى.

المزيد من الضحك.

قال أحدهم: "اضربه على رأسه!"

لكنه دفع جسده ناهضًا مرة أخرى، صارخًا هذه المرة، ولا بد أن هذا فاجأ الأطفال، لأن الضربات توقفت جزءًا من الثانية.

وكان هذا كل ما يحتاج إليه من وقت.

جمع إيثان قدميه تحته وأجبر نفسه على النهوض، وسدَّد لكمة خطافية في أول وجه قابله -صبي طويل في الثانية عشرة أو الثالثة عشر من عمره- سقط على إثرها فاقدًا الوعي.

صاح مهتاجًا: "تراجعوا!"

كان هناك ضوء كافٍ لأن يتمكَّن لأول مرة بالفعل من رؤية ما كان يتعامل معه: دستتان من الأطفال بين سن السابعة والخامسة عشر يحيطون به، أغلبهم يحملون كشافات يدوية ومجموعة من الأسلحة المؤقتة، عصي، صخور، سكاكين تقطيع لحم، وأحدهم يحمل عصا مكنسة انتُزع منها طرف المسح ليترك شظية مدببة من الخشب.

بدا كأنهم ارتدوا أزياء خاصة بعيد الهالوين، تجميعة متفرقة لأزياء صُنِعت في البيت وخيطت معًا من خزانة ثياب آبائهم وأمهاتهم.

كاد إيثان يشعر بالامتنان لأنه فقد الساطور؛ لأنه كان ليقطع به هؤلاء الأوغاد الصغار إربًا.

كان هناك منفذ على يسار إيثان - حلقة ضعيفة في الدائرة يمكنه الاندفاع عبرها فوق طفلين لا تصل قامتهما إلى خصره.

لكن ماذا بعد ذلك؟

سيطاردونه، سيتعقبونه حتى الموت في هذه الغابة مثل ظبي جريح.

التفت ببطء، والتقت عيناه بعيني أشرس من في المجموعة؛ صبي أشقر الشعر تجاوز الحُلُم مسلَّح بجورب طويل ممطوط إلى أقصى حدٍّ، وقد احتوى كرة ثقيلة ذات هيئة منذرة بالشر، ربما كرة بيسبول أو كرة من الزجاج الصلب. ارتدى هذا المراهق بدلة لا بد أنها تخص والده؛ أكبر منه بعدة مقاسات، وتدلى الكُمَّان حتى أطراف أصابعه.

زأر إيثان، مقتربًا من الصبي وقد أمال ذراعه إلى الوراء، ولم يكن ليضربه لكن الصبي تراجع، وتعثَّر، وسقط، ثم جرى فارًّا إلى داخل الغابة في اللحظة التي نهض فيها على قدميه، زاعقًا بعلو صوته أنهم وجدوه.

عندما رأوا قائدهم يجرُّ أذياله ويفر، تبعه نصف الأطفال.

أما من بقوا، فاندفع نحوهم إيثان، شاعرًا أنه يشبه من ناحية أيلًا يحاول أن يفرق طغمة من ذئاب القيوط الضارية، لكنه في النهاية طردهم جميعًا إلا واحدًا، وصرخ الأطفال وهم يجرون مختفين في غابة الصنوبر كأن الشيطان وراءهم.

راقب الصبي الذي بقي إيثان من خلال المطر.

لعله كان الأصغر في المجموعة: في السابعة أو الثامنة من عمره على أقصى تقدير.

كان قد ارتدى زي راعي بقر: قبعة حمراء وبيضاء، حذاء عاليًا، رابطة عنق رفيعة، وقميصًا بكمين على طراز الغرب الأمريكي.

أمسك كشافًا وحجرًا ووقف هناك بلا تعبير على الإطلاق.

سأله إيثان: ألستَ خائفًا مني؟

هزَّ الولد رأسه، والماء يقطر من حافة قبعته. تطلَّع إلى إيثان، وعندما أضاء شعاع الكشاف نمش وجهه، استطاع إيثان أن يرى كم كان يكذب. كان خائفًا، وشفته السفلى ترتعد دون إرادته. كان أشجع وجه يمكن للولد أن يبديه، ولم يستطع إيثان إلا أن يُعجب به، متسائلًا ما الذي دفعه إلى اتخاذ هذا الموقف.

- ينبغي لك أن تكف عن الهرب يا مستر بيرك.

- كيف تعرف اسمي؟

- يمكنك أن تحظى بحياة جميلة هنا، وأنت حتى لا تراها.

- ما هذا المكان؟

- مجرد بلدة.

دوَّت أصوات كبار، والتمعت زمرة كشافات جديدة في غابة الصنوبر مثل نجوم وليدة.

سأله إيثان: "من أين أنت؟"

مال الولد برأسه، متحيراً من السؤال.

- ماذا تقصد؟

- أين كنت تعيش قبل وايوارد باينز؟

- عشت هنا دومًا.

- لم تغادر هذه البلدة قط؟

- لا يمكنك أن تغادرها.

- لماذا؟

- لا يمكنك فقط.

- لا أقبل هذا.

- لهذا ستموت..

وصرخ الولد فجأة: "إنه هنا! أسرعوا!"

اندلعت الأضواء من بين أشجار الصنوبر إلى المرج.

جرى إيثان، مندفعًا نحو الغابة على الجانب الآخر، غير عابئ حتى بحماية وجهه أو بالنظر خلفه إلى مطارديه، شاقًّا طريقه عبر الظلام، فاقدًا كل إحساس بالوقت والاتجاه، مجاهدًا كي يُبقي رأسه في حصانة من شعور الهلع المطلق الذي هدَّد بإسقاطه جاثيًا على ركبتيه، وتكويمه في وضع جنيني، وتحطيم عقله في النهاية.

بسبب الخوف.

بسبب الألم.

لأن لا شيء من هذا يحمل أدنى ملمحٍ من المنطق.

لم يكن صوت النهر ما أوقفه، بل الرائحة.

عذوبة مفاجئة في الهواء.

انحـدرت الأرض فجـأة وانزلـق عـلى ضفـة طينيـة إلى مـاء ثائـر قـارص الـبرودة تدفـق داخـل حذائـه كفـولاذٍ سـائلٍ.

رغـم صدمتـه المُجمِّـدة، رفـض إيثـان أن يتعـثَّر، فقـط اسـتمر في الخوض مترنحًـا، مبتعـدًا عـن الضفـة، أعمـق وأعمـق داخـل التيار.

بلـغ المـاء خـصره، وإيثـان يشـهق بينـما يشـعر بالـبرودة تتخلله حتـى النخـاع، والتيـار الـشرس متلهـف عـلى سـحبه معـه.

خطـا خطـوات بطيئـة حـذرة، والحجـارة في القـاع تتقلقـل تحـت ثقلـه وتنقلـب ببـطء مـع التيـار.

بين كل خطوة وأخرى، كان يأخذ أهبته، مائلًا ضد قوة الماء.

في منتصف المجرى، ارتفع الماء إلى صدره.

اقتلع التيار قدميه.

دافعًا إيثان معه.

في الظلمـة الدانيـة، لم تكـن لديـه أي فكـرة عـن مـكان الصخـور البـارزة في المجـرى، لكنـه كان يعـرف فقـط أن الاصطـدام بإحداهـا كفيـل بقتلـه.

ناضـل عـبر التيـار مسـتخدمًا ضربـات قويـة ومتأنيـة مـن تقنيـة السـباحة الجانبيـة.

أفلحـت ذراعـاه في العمـل عـلى نحـوٍ طيـبٍ، لكـن بحذائـه المثقـل بالمـاء لم يكـن بمقـدوره أن يـضرب المـاء بقدميـه عـلى أي نحـو مـن الكفـاءة أو القـوة.

كان ثقلهما يجذبه إلى أسفل أكثر مما يدفعه إلى الأمام.

بعـد دقيقـة شـعواء، وبعـد أن وصلـت عضلاتـه إلى حافـة التمـرد، شـعر بنعـل حذائـه يكشـط القاع.

وقـف، وتـوازن ضـد التيـار، كان مسـتوى المـاء قـد انحـسر مـن جديـدٍ إلى خـصره.

بعـد عـدة خطـوات أخـرى وصـل إلى ركبتيـه، وبعـد ذلـك هـرول بقيـة الطريـق خارجًـا مـن النهـر، وتداعـى عـلى الضفـة.

انقلب على جنبه، منقطع الأنفاس، منهوك القوى، يرتعش.

حدَّق وراءه عبر المجرى.

في كل مكان ظهرت أشعة جديدة من الضوء.

كان بمقـدوره سـماع أشـخاص يتصايحـون، وظـن أنهـم ربمـا ينـادون اسـمه، لكـن مـن هـذه المسـافة، دمـرت الضجـة الهـادرة لعبـاب المـاء أي فرصـة لسـماعهم بوضـوحٍ.

أراد إيثـان أن يتحـرك، كان يعـرف أنـه يجـب أن يتحـرك، لكنـه لم يسـتطع أن يُجـبر نفسـه عـلى الوقـوف. احتـاج فقـط دقيقـة أخـرى ليتمدد هنـاك ويلتقـط أنفاسـه.

الآن صـارت هنـاك أضـواء عـلى الشـط المقابـل أكـثر مـن أن يحصيهـا، كان تركيزهـا الأعـلى بعـد ثلاثـين يـاردة مـن نقطـة دخولـه النهـر، لكـن بـدا أن النـاس -أكـثر وأكـثر- يجازفـون شـمال وجنـوب نقطـة دخولـه النهـر، حيـث مسـحت أشـعة الضـوء تيـار المـاء في عـدة أماكـن.

تدحرج ناهضًا على ركبتيه.

ارتعشت يداه من البرد كأنه أصيب بالشلل.

بدأ يزحف، وأصابعه تتلمس طريقها عبر الرمال المبتلة.

تلـك الدقيقـة الواحـدة فقـط مـن التمـدد بـلا حـراك أصابـت مفاصلـه بالتيبس.

عندمـا وصـل إلى الصخـرة الكبـيرة التاليـة، رفـع يديـه، وقبـض عـلى بـروز فيهـا، وجـذب جسـده ناهضًـا عـلى قدميـه.

فاض حذاؤه بالماء.

لا بـد أنـه كان هنـاك مائـة شـخص عـبر النهـر، ومـا زال المزيـد مـن الأضـواء يظهـر عـلى الضفـة كل لحظـة. بلغـت غالبيـة الأشـعة نقطـة المنتصـف فقـط، لكـن حفنـة منهـا بـدا مـن المحتمـل أن تنطلـق قاطعـة الطريـق كلـه إلى ناحيـة إيثـان، وقـد ظهـرت مخروطـات ضوئهـا بوضـوح مـن خـلال المطـر المنهمـر عليهـا.

اندفـع إيثـان مبتعـدًا عـن المـاء، عـلى أمـل أن يزيـد المسـافة بينـه وبـين الأضـواء، لكـن بعـد عـشرة أقـدام وصـل إلى جـدار خالـص مـن الصخـر.

سـار بمحاذاتـه بينـما أصـوات عـدة مئـات مـن الأشـخص تعلـو عـلى صـوت تكـسُّر العبـاب.

سقط ضوء على الصخر أمامه بمقدار عشرة أقدام.

انحنـى إيثـان وراء جلمـود صخـر واسـترق النظـر مـن ورائـه بينـما شـعاع الضـوء يـذرع الصخـر خلفـه.

انسـكب شـلال مـن الضـوء مـن الشـاطئ إلى داخـل المـاء. ومـن مكمـن إيثـان، رأى بضعـة أشـخاص يخوضـون في النهـر حتـى رُكَبهـم، باحثـين، لكـن أحـدًا منهـم لم يحـاول أن يعـبره سـباحة.

كان قـد بـدأ يخطـو مـن وراء الجلمـود عندمـا دوى صـوت، مـن خـلال مكـبر صـوت، عـبر النهـر:

- إيثان، عُد إلينا، وسنغفر كل شيء.

كان ليعرفـه في أي مـكان؛ ذلـك الهديـر الحلقـي العميـق في صـوت المأمـور بـوب، في ارتـداده مـن الصخـور عائـدًا إلى غابـة الصنوبـر خلـف الحشـد.

- أنت لا تعرف ما تفعل.

في الحقيقة، أنا أعرف ما أفعل بالضبط.

عندما لم تعد هناك أضواء تسقط على الصخر في أي مكان من محيطه العام، جاهد إيثان للعودة واقفًا على قدميه، وخطا متعثرًا نحو الجنوب إلى جوار الجدار الصخري.

- لو عُدتَ، لن نؤذيك.

نعم. سآتيك حالًا.

- أعطيك كلمة شرف مني على ذلك.

تمنى إيثان لو كان معه مكبر صوت هو الآخر.

ثمة أصوات أخرى تصرخ باسمه عبر النهر.

- إيثان، من فضلك!

- أنت لا تفهم ما تفعل!

- عُد!

استمر بوب في مناداته كذلك، لكن إيثان تابع طريقه وسط مطر وظلام دامس.

كلما ابتعد عن الحشد، أصبح من المستحيل أن يرى.

أصبح إيثان الآن يعرج في خطوات بطيئة متثاقلة، ومرشده الوحيد ضجة النهر على يساره.

خلفه: أصوات تخبو، ونقاط ضوء تتقلص.

كان جسده قد استخرج آخر ما لديه من أدرينالين متاح، وبدأ يحس باقتراب انهيار شامل.

تعطُّل كامل للنظام.

لكنه لم يستطع التوقف. ليس بعد.

كانت الرغبة في التكور على الرمال بجوار النهر والنوم قاهرة تقريبًا، لكن قد يقرر هؤلاء الناس العبور.

لديهم الأضواء والأسلحة والأعداد.

وليس لديه شيء.

مخاطرة أكبر مما يجب.

وهكذا، بما بقي في خزانه الاحتياطي من وقودٍ قليلٍ، استمرَّ في طريقه.

12

لم تكن لدى إيثان طريقة لمعرفة كم مضى من الوقت وهو سائر وحده في الظلام.

ساعة.

ربما ساعتان.

ربما أقل.

كانت خطوته لا تسمح له بأن يقطع أكثر من ميل. على الأقل هذا هو ما شعر بالتأكد منه. كل بضع دقائق، كان يدفع نفسه للتوقف والنظر في اتجاه التيار، باحثًا عن أضواء قادمة، منصتًا لوقع أقدام تدب على الصخر.

لكـن كل مـرة ينظـر فيهـا إلى الـوراء، يجـد دائمًـا نفـس الـشيء: ظـلام تـام. ولـو كان أحدهـم يتبعـه، فـإن هديـر النهـر قـادر عـلى إخفـاء كل مـا عـداه مـن أصـوات.

***

تباطأ المطر وغدا رذاذًا ثم نقطًا متقطعة ثم توقف تمامًا.

لكـن إيثـان كان مـا زال يسـير متثاقـلًا، متحـركًا بقدميـه فقـط، ويـداه تقبضـان عـلى صخـور غـير مرئيـة، وقدمـاه تخطـوان أصغـر خطـوات ممكنـة حتـى إذا مـا اصطـدم لا محالـة بعائـقٍ مـا، لا تلقـي بـه قـوة الدفـع عـلى الأرض.

***

وعندئذٍ استطاع أن يرى.

في لحظة كان هناك ظلام.

وفي اللحظـة التاليـة، قمـر بـارز محـدودب، سـطع نـوره عـبر شـقٍّ في الغيـوم، والتمـع سـطح كل صخـرة مبتلـة كأنهـا صُقلـت.

جلـس إيثـان عـلى جلمـود مسـطح القمـة، وسـاقاه ترتعـدان، بعـد أن بلغـت قدرتـه عـلى التحمُّـل مداهـا.مكتبة سُر مَن قرأ

كان اتسـاع النهـر قـد ضـاق بمقـدار النصـف تقريبًـا، لكـن التيـار كان أشـد، يتدفـق مندفعًـا عـبر حديقـة صخريـة في رشـاش هائـج مـن العبـاب.

أشـجار صنوبـر عملاقـة -طولهـا سـبعون أو ثمانـون قدمًـا- أطلَّـت عـلى ضفـة النهـر في الناحيـة الأخـرى.

أدرك فجأة كم كان ظمآنًا.

خرَّ على ركبتيه، وزحف إلى حافة النهر وغمس وجهه في بركة صغيرة.

كان مذاق الماء صافيًا وعذبًا بشكلٍ لذيذٍ، لكنه بارد بشدة.

بين رشفاته، ألقى نظرة في اتجاه التيار.

بعيدًا عن جنون الماء، لم يكن هناك شيء يتحرك على أي من الضفتين.

أراد إيثان أن ينام، وكان بمقدوره أن يتمدد هنا على الصخور ويغيب في سبات خلال لحظات؛ لكنه كان يعرف أن هذه ستكون حماقة.

لا بد أن أجد مأوى قبل أن أفقد نور القمر.

قبل أن أفقد القدرة على السير.

كانت السحب بالفعل قد بدأت تتراكم من جديد أمام القمر.

أجبر نفسه على الوقوف.

عبور النهر هنا، خاصةً في حالته الواهنة، سيكون قاتلًا. سيكون عليه أن يبحث عن مأوى على هذه الناحية من النهر، لكن هذا سيكون تحديًا. على الناحية الأخرى، ارتفعت غابة صنوبر عجوز على جانب جبل لعدة آلاف من الأقدام حتى الغيوم الملبدة. في غابة كهذه، أحسَّ بالثقة بأنه من الممكن أن يجد مكانًا يختبئ فيه لقضاء الليلة، حتى لو لم يكن شيئًا أكثر من تغطية نفسه بشبكة من الغصون الساقطة. تضع ما يكفي منها فوقك وستمنحك مظلة من المطر، وربما حتى تحجز ما يكفي من حرارة الجسد لخلق واحة من الدفء.

لكن هذا لن يحدث.

علـى ناحيـة إيثـان مـن النهـر، كانـت الضفـة تميـل بشـكلٍ حـادٍّ إلى مسـافة أربعـين قدمًـا في اتجـاه سـفح ذلـك الجـدار الصخـري الأحمـر ذاتـه الـذي يطـوق وايـوارد باينـز.

وأعلى ذلك، حواف فوق حواف تتصاعد إلى جوف الظلام.

لم تكن حالته تسمح له بالتسلق.

تقدم إيثان مترنحًا.

الماء يبقبق في معدته.

أحـسَّ بقدميـه متورمتـين ونابضتـين في حذائـه. عـرف أنـه كان ينبغـي لـه أن يفرغـه مـن المـاء منـذ سـاعة، لكنـه شـعر بالقلـق مـن أنـه لـو جلـس، لـن يقـوى عـلى ربطـه مـن جديـد وإكـمال المسـير.

كان الاسـتمرار يـزداد صعوبـة عـلى هـذا الجانـب، مـع ضيـق الطريـق عـلى الأرض المسـتوية، وامتلائـه بالصخـور والانحـدار الحـاد.

دخل غيضة من أشجار الصنوبر الشاهقة.

أفسـحت الأرض الصخريـة المجـال لأرضيـة ترابيـة ناعمـة رطبـة مغطـاة بطبقـة مـن أوراق الصنوبـر الميتـة، وفكـر إيثـان: فليحـدث مـا يحـدث، سـأنام هنـا. لم يكـن مكانًـا نموذجيًّا؛ أقـرب إلى النهـر مـما يجـب، لا توجـد غصـون ليغطـي بهـا نفسـه، وأي شـخص يتعقبـه سـيجده. لكـن عـلى الأقـل سـيجد بعـض الحمايـة تحـت ظـلال هـذه الصنوبـرات العتيقـة.

ألقـى نظـرة أخـيرة حولـه، مقـررًا بالفعـل أنـه لـو لم يـرَ شـيئًا مثـيراً للاهتـمام، سـيكون هـذا المـكان بيتـه الليلـة.

تطلَّع إيثان إلى المنحدر المؤدي إلى سفح المرتفع الصخري.

اعتقد أنه رأى بقعة من السواد هناك.

لم يفكر، لم يجادل، فقط تسلق.

صعـد عـلى أربـع عـبر أشـجار الصنوبـر وبعـد ذلـك خـرج منهـا إلى حقـل مـن الصخـور المحطمـة.

منحدر أكثر وأكثر.

كان يلهث من جديدٍ، والعرق يتصبَّب على وجهه، ويلسع عينيه.

قـرب المرتفـع الصخـري، أصبـح الصخـر أقـل تماسـكًا وأكـثر نعومـة، وبـدأت قدمـاه تنزلقـان مـع كل خطـوة كأنـه يتسـلق كثيبًـا رمليًّـا.

بلغ المرتفع الصخري.

عـاد الظـلام مـن جديـدٍ، وليـس هنـاك إلا قـشرة مـن القمـر محاطـة بالغيـوم، وثَقُـل الهـواء برائحـة المطـر العائـد.

هـا هـي ذا، بقعـة السـواد التـي لمحهـا مـن النهـر كانـت تجويفًـا في المرتفـع الصخـري. امتـد إلى الـوراء خمسـة أو سـتة أقـدام، والأرض داخلـه ملسـاء وجافـة، محميـة مـن عنـاصر الطبيعـة.

تسلَّق إيثان الحافة وزحف داخلًا.

كان للجـدار الخلفـي انحـدار طبيعـي، مـال مسـتندًا إليـه، وقـد تأطـر العـالم المظلـم بجـدران التجويـف الصغـير، لم يسـتطع رؤيـة النهـر مـن نقطـة مراقبتـه، وتضـاءل صوتـه كثـيرًا إلى شيء يشـبه همسًـا عاليًـا.

عندمـا خبـا ضـوء القمـر، زادت عتمـة غابـة الصنوبـر في الناحيـة الأخـرى مـن النهـر، تاركـة إيثـان مـرة أخـرى في عتمـة مطلقـة.

بدأت تمطر.

اعتـدل في جلسـته، وبأصابـع مرتعشـة، حـاول أن يفـك ربـاط الحـذاء الـذي سـلبه مـن الرجـل الـذي قتلـه في الشـقة. اسـتغرق عـدة دقائـق حتـى نجـح أخـيرًا في فـك العقـدة وانتـزاع الحـذاء. أفـرغ عـلى الأقـل ربـع

لتر من الماء من كل فردة وبعد ذلك خلع طبقات الجوارب وعصرها ووضعها على الصخر لتجفّ.

كانت ملابسه غارقة تمامًا.

خلع السترة والتيشيرت والجينز وحتى سرواله الداخلي. قضى عشر دقائق جالسًا عاريًا في الكهف الصغير، يعصر الماء من الثياب حتى صارت رطبة فقط.

أسدل السترة على صدره، والتيشيرت طويل الكمين على ساقيه، وطوى الجينز ليجعله وسادة. رقد مستندًا إلى جدار الكهف الخلفي، وانقلب على جنبه وأغلق عينيه.

لم يشعر في حياته قط بهذا القدر من البرودة.

في البداية، خشي أن يمنعه هذا من النوم، وجسده يرتجف بعنفٍ شديدٍ في محاولة فاشلة لتدفئة نفسه حتى أنه اضطر إلى التشبُّث بكمي السترة حتى لا تسقط من الاهتزاز.

لكن بقدر ما كان بردانًا، كان مرهقًا بشكلٍ أكبر.

خلال خمس دقائق، انتصر النوم.

13

كاحل إيثان الأيمن مقيد ومثبت بسلسلة إلى حلقة في الأرض.

يجلس إلى مكتب متداعٍ يحمل ثلاثة أشياء...

ورقة مقاس *A4*.

قلمًا أسود من الحبر الجاف.

وساعة رملية تتساقط حبّاتها السوداء من قارورة إلى الأخرى.

لقد نبّهه آصف بأنه عندما ينفد الرمل، سيعود، وعندئذٍ لو لم يسعده ما كتبه إيثان على الورقة؛ سيموت إيثان بالللينجشي.

لكن إيثان يعلم أنه حتى لو كانت لديه معرفة محددة وعالية الوضوح بهجومٍ كبيرٍ وشيكٍ، وكتب التواريخ والمواقع والأهداف

وتفاصيل الضربة البرية المتوقعة والدعم الجوي؛ لن يكون هذا كافيًا.

لا شيء سيكون كافيًا أبدًا، لأنه مهما كتب سيموت، وسيموت بطريقة مرعبة.

كل ما يعرفه من آصف صوته وتلكما العينان البنيتان الشريرتان التي يشعر فيهما برغبة لا في معرفة المعلومات لكن في إلحاق الألم.

قناع الاستجواب مجرد مداعبة.

شيء يساعد آصف على الانتصاب والبلل.

إنه سادي. وربما ينتمي إلى تنظيم القاعدة.

بطريقة ما لم يسمح إيثان لهذا الإدراك الكامل بالتمكن منه عندما كان معلقًا من معصميه في حجرة التعذيب، لكن الجلوس هنا وحده إلى المكتب في السكون، جعل هذا الإدراك يضربه بكل قوته.

مهما كتب، في وقتٍ أقل من الساعة بقليلٍ، ستصبح حياته أسوأ لا محالة.

ثمة نافذة وحيدة في الحجرة، لكنها أُغلقت بألواح الخشب متقاطعة.

من خلال شقوق ضئيلة بين ألواح الخشب، شقّت خيوط لامعة من نور الشمس العراقية طريقها.

الحرارة حارقة، والعرق يتبخر من كل المسام.

الواقعية المفرطة للحظة تغدو غير محتملة، ويتعرض إيثان لاجتياح من المدخلات الحسية:

- كلب ينبح في الخارج.
- ضحك أطفال بعيد.

- **علـى مبعـدة أميـال، أزيـز غريـب يشـبه طنـين الدبابـير لعمليـة تبـادل إطـلاق النـار.**
- **ذبابة تطن عند أذنه اليسرى.**
- **رائحة شواء المسكوف في الجوار.**
- **في مكان ما في جوف هذا المجمع من الأبنية، رجل يصرخ.**

لا أحد يعرف أين أنا. على الأقل لا أحد ممن يمكنهم مساعدتي.

اتجهـت أفـكاره نحـو تيريـزا -الحبـلى هنـاك في الوطـن- لكـن هجمـة العواطـف والحنـين إلى الديـار أكـبر مـما يمكنـه تحملـه في ضوء مـا ينتظره. لديـه رغبـة قويـة في اسـتعادة حوارهـما الأخـير -مكالمـة عـبر فويـب[1] في *MWR*[2]- لكـن هـذا سـيكسره.

لا يمكن أن أصل إلى هناك. ليس بعد، ربما في لحظاتي الأخيرة.

يرفع إيثان القلم.

أحتـاج فقـط إلى شيء يشـغل ذهنـي. لا يمكننـي أن أجلـس هنـا وأفكـر طويـلًا فيـما سـيأتي.

لأن هذا ما يريده.

هذا هو كل ما يدور حوله الأمر.

***

أفاق مفزوعًا من أحلام الحرب.

لدقيقـة كاملـة، لم تكـن لديـه فكـرة عـن مكانـه، وهـو يرتعـش ويحترق في نفـس الوقـت مـن الحمى.

---

(1) VoIP: تقنية نقل الصوت باستعمال بروتوكول الإنترنت. (المترجم)

(2) شبكة المعنويات والرفاهية والاستجمام التابعة للجيش الأمريكي. (المترجم)

اعتـدل إيثـان في جلسـته، مـادًّا يديـه في الظـلام مـن حولـه، وعندمـا لمسـت أصابعـه جـدران الكهـف الصخريـة، قـام نظامـه الداخـلي لتحديـد المواقـع بتحديـث نفسـه وعـاد إليـه مندفعًـا الرعـب الـذي أصبـح حياتـه.

كان قـد ألقـى ثيابـه عنـه في نومـه، حيـث رقـدت متناثـرة عـلى الحجـر بجـواره، بـاردة ورطبـة. فردهـا كي تحظـى بفرصـة أفضـل في الجفـاف، ثـم مـال إلى الأمـام حتـى جثـم عنـد حافـة الكهـف.

كان المطر قد توقف.

وامتلأت سماء الليل بضوء النجوم.

لم يكـن لديـه قـط أدنى اهتـمام بعلـم الفلـك، لكنـه وجـد نفسـه يبحث عـن المجموعـات النجميـة المألوفـة، متسـائلًا إن كانـت النجـوم التـي رآهـا تـضيء مـن مواقعهـا الصحيحـة.

هل هذه هي سماء الليل التي رأيتها دائمًا؟

تحته بخمسين قدمًا، كان النهر يغني.

حدق نحو الماء بالأسفل، وعندما رأى ما رآه، تجمد الدم في عروقه.

كانـت رغبـة إيثـان الأولى أن يزحـف بسرعـة عائـدًا إلى التجويـف، لكنـه قـاوم هـذه الرغبـة، خشـية أن تجـذب أي حركـة مفاجئـة الانتبـاه.

أولاد العاهرة، لقد تتبَّعوني.

عبروا النهر في النهاية.

كانـوا بالأسـفل وسـط هـذه الأشـجار العملاقـة مـن الصنوبـر قـرب النهـر ومختبئـين بمهـارة في الظـلال حتـى إنـه لم يسـتطع أن يحـدد عددهـم.

في حركـة بطيئـة، بوصـة بعـد بوصـة، تراجـع إيثـان إلى داخـل الكهـف، خافضًـا جسـده إلى أن التصـق صـدره بالصخـر القـارص الـبرودة، وهـو يسـترق النظـر فقـط مـن فـوق حافـة الكهـف.

اختفـوا في الظـلال، وللحظـة -بعيـدًا عـن النهـر- بـدا العـالم سـاكنًا تمامًـا، وبـدأ إيثـان يتسـاءل إن كان قـد رأى في الحقيقـة أي شيء عـلى الإطـلاق. في ضـوء مـا مـرَّ بـه في الأيـام الخمسـة الماضيـة، سـتكون الهـلاوس الآليـة عـودة مقبولـة لسـلامة العقـل.

بعـد ثلاثـين ثانيـة، خرجـوا مـن ظـلال أشـجار الصنوبـر، إلى الصخـور المفككـة عنـد سـفح المنحـدر.

ما هذا بحق الجحيم؟

لم يكـن هنـاك إلا واحـد، ورغـم أنـه في حجـم رجـل، إلا أنـه لم يتحـرك كرجـلٍ؛ عـبر الصخـور عـلى أربـع، وبـدا تحـت ضـوء النجـوم بـلا شـعرٍ وشـاحبًا.

اكتـسى فـم إيثـان بمـذاق معـدني -أثـر جانبـي للخـوف- عندمـا أدرك لدهشـته أن النسـب الجسـدية لهـذا الـشيء خاطئـة تمامًـا، حيـث بـدت ذراعـاه ضعفـي طولهـما الطبيعـي.

رفـع الـشيء رأسـه، وحتـى مـن هـذه المسـافة، اسـتطاع إيثـان أن يـرى أنفـه المتضخـم موجهًـا نحـو السـماء.

يتشمَّم.

تلـوَّى إيثـان مبتعـدًا عـن الفتحـة ومتراجعًـا إلى داخـل الكهـف قـدر مـا اسـتطاع، حيـث جلـس القرفصـاء ضامًّـا ذراعيـه حـول سـاقيه، مرتعـدًا ومشـدودًا ينصـت لصـوت خطـوات مقتربـة أو صخـور متقلقلـة.

لكـن كل مـا اسـتطاع أن يسـمعه خريـر النهـر، وفي المـرة التاليـة التـي ألقـى فيهـا نظـرة خارجًـا، كان مـا رآه -أو ظـن أنـه رآه- قـد اختفـى.. أيًّـا كان.

***

في الساعات القليلة الباقية من الظلام، راوغه النوم.

كان يشعر ببردٍ شديدٍ.

وبألمٍ شديدٍ.

وبرعبٍ شديدٍ من كل ما مرَّ به أكثر من أن يغامر بالعودة إلى الأحلام.

تمدَّد على الصخر، مغلوبًا برغبة واحدة، حاجة واحدة.

تيريزا.

هناك في البيت، كان يصحو كثيرًا في قلب الليل ليحس بذراعها الملقاة فوقه، بجسدها المحيط بجسده. حتى في أصعب الليالي. في الليالي التي كان يعود فيها متأخرًا، في الليالي التي كانا يتشاجران فيها، في الليالي التي خانها فيها، كانت تقدم له أكثر مما يحلم به. كانت تحب بسرعة الضوء، بلا ترددٍ، بلا ندمٍ، بلا شروطٍ، بلا تحفظات. بينما هو يخفي أسراره ويقمع جزءًا من نفسه، كانت هي تقدم نفسها بالكلية، كل مرة.

ثمة لحظات ترى فيها من تحبهم كما هم بالفعل، بعيدًا عن نظريات الإسقاط البالية والتواريخ المشتركة. عندما تراهم بعينين جديدتين، كما قد يفعل شخص غريب، وتقبض على شعورك في أول مرة أحببتهم فيها. عندما كانت ما زالت هناك احتمالية الكمال.

لم يمتلك قط صورة أوضح لزوجته، لم يحبها قط أكثر -ولا حتى في البدايات- من هذه اللحظة، في هذا المكان البارد المظلم، عندما تخيلها تحتضنه.

***

شـاهد النجـوم تتـوارى عندمـا نفثـت الشـمس نارهـا في السـماء، وعندمـا كشـفت أخـيراً سلسـلة الجبـال في الناحيـة البعيـدة مـن النهـر، اسـتحم في أشـعة دفء عـارم تدفـق إلى كهفـه وحمَّـص الحجـر المتجمـد.

في الضـوء الجديـد، اسـتطاع أخـيراً أن يـرى الدمـار الـذي لحـق بـه وهـو يفـر مـن وايـوارد بايـنز.

كدمـات، بـرزت في قلبهـا تورمـات دمويـة صفـراء مسـودَّة، غطـت ذراعيـه وسـاقيه.

آثـار جـروح مـن طعنـات إبـرة الممرضـة بـام تناثـرت عـلى كتفـه اليـسرى وجنبـه الأيمـن.

فـكَّ الشريـط اللاصـق مـن حـول سـاقه اليـسرى، كاشـفًا المـكان في ظهـر فخـذه حيـث أخرجـت بيفـرلي الرقاقـة الصغـيرة. كان ضغـط الربطـة قـد أوقـف النزيـف بكفـاءة، لكـن الجلـد حـول القَطـع كان ملتهبًـا. سـيتطلب الأمـر مضـادات حيويـة وخياطـة جيـدة للجـرح مـن أجـل تجنُّـب خطـر التلـوث.

مـرَّر يديـه عـلى وجهـه، وهـو يتسـاءل إلى أي حـدٍّ يبـدو كأنـه شيء لا يخصـه عـلى الإطـلاق. كانـت بشرتـه متورمـة، مشـقوقة في مواضـع، وأنفـه -الـذي انكـسر مرتـين في الأربـع والعشريـن سـاعة الأخـيرة- بـدا هشًّـا بطريقـة مؤلمـة. امتـلأت وجنتـاه بجـروحٍ سـطحية مـن أثـر الغصـون التـي سـاطت وجهـه وهـو يعـدو عـبر الغابـة، وبـرز نتـوء في مؤخـرة رأسـه بفضـل واحـد مـن هـؤلاء الأطفـال حامـلي الحجـارة.

لا شيء، مـع ذلـك، كان يفـوق الألم القاتـل في عضـلات سـاقيه، التـي دفعهـا إلى مـا وراء نقطـة انهيارهـا.

تساءل إن كانت لديه حتى القدرة على السير.

***

قبل الضحى، بعد أن جفَّت ملابسه إلى حدٍّ كاف، ارتداها إيثان وربط حذاءه الذي كان ما زال رطبًا، وتدلَّى من فوق حافة الكهف، إلى سفح المرتفع الصخري.

منحه الهبوط إلى النهر مذاقًا وحشيًّا لما يحمله باقي النهار في جعبته، وقبل أن يصل إلى الضفة كانت عضلاته تصرخ.

لا خيار غير الاستراحة، وإغلاق عينيه وترك نور الشمس ينسكب على وجهه مثل ماء دافئ، في هذا الارتفاع، كان الضوء مركزًا بشكل رائع.

كانت هناك رائحة أوراق الصنوبر الجافة تتحمص في الشمس.

الماء البارد العذب.

الصوت المشرق للنهر وهو يتعثَّر في طريقه عبر الوادي الضيق.

قعقعة الحجارة وهي تتقلقل تحت التيار.

زرقة السماء الأخاذة.

شعوره بالدفء مرة أخرى رفع معنوياته، وكونه في البرية -رغم كل شيء- خاطب شيئًا ما مدفونًا بعمقٍ في قرارة روحه.

ليلة الأمس، كان أكثر تعبًا من أن يفعل أي شيء غير الرقاد بلا حراكٍ على الحجر.

أما الآن، فقد عاوده جوعه.

أخرج الجزر ورغيف الخبز المهروس من جيوبه.

***

نهض واقفًا من جديدٍ، وبحث إلى أن وجد غصن صنوبر في الغيضة القريبة وكسر طرفه بحيث يُناسبه طوله ليتخذه عصا سير. قضى

عـدة دقائـق يتمطـى، محـاولًا أن يطـرد الألم المنهِـك مـن عضلاتـه، لكنهـا كانـت معركـة خـاسرة.

انطلـق أخـيرًا في الـوادي الضيـق بخطـوة حسـب أنـه يمكنـه البقـاء عليهـا، لكـن بعـد عـشر دقائـق أجبرتـه صدمـة مجهـود البارحـة عـلى الإبطـاء.

بدا نصف ميل مثل خمسة أميال.

مـع كل خطـوة، كان يعتمـد أكـثر وأكـثر عـلى عصاتـه كدعامـة، متشـبثًا بهـا كحبـل نجـاة، كأنهـا سـاقه الوحيـدة السـليمة.

***

قبيـل الأصيـل، بـدأت طبيعـة الـوادي الضيـق تتغـير، وضـاق النهـر حتى لم يعـد مـن الممكـن تسـميته إلا بجـدول، وانكمشـت أشـجار الصنوبـر، وقـلَّ عددُهـا وتزايـدت المسـافات بينهـا، وتلـك التـي قابلهـا في طريقـه كانـت واهنـة وكثـيرة العقـد، كأنهـا ضحايـا متقزمـة لشـتاءات قاسـية.

اضطـر إلى التوقـف مـرارًا، وصـار الآن يسـتريح أكـثر مـما يمـشي، ويلهـث باسـتمرارٍ، شـاعرًا باحـتراق رئتيـه مـع الحرمـان مـن الأكسـجين كلـما تسـلق أعـلى.

***

قـرب الغسـق، رقـد مفـرود الأطـراف عـلى صخـرة مغطـاة بالأشـنات[1] إلى جـوار مـا تبقـى مـن النهـر؛ تيـار سريـع الحركـة عرضـه سـتة أقـدام يمـضي مخرخـرًا فـوق قـاع مـن حجـارة ملونـة.

---

(1) كائنات تعايشية تتكون من ترافق بين الطحالب الخضراء المجهرية أو الجراثيم الزرقاء وفطريات خيطية. تأخذ الأشنة الشكل الخارجي للفطر الشريك لذلك تسمى بناء على نوع الفطر. (المترجم)

مـرَّت أربـع أو خمـس سـاعات منـذ غـادر الكهـف، وكانـت الشـمس بالفعـل تنزلـق خلـف جـدار الـوادي الضيـق عـلى الجانـب الآخـر مـن الجـدول.

عندما اختفت، انخفضت درجة الحرارة.

رقـد هنـاك يراقـب اللـون وهـو يغيـض مـن السـماء، وتكـوَّر حـول نفسـه متأهبًـا للـبرودة القادمـة، والإدراك الكئيـب يتملكـه بأنـه لـن يصحو مـرة أخـرى.

انقلب على جانبه، وجذب قلنسوة السترة على وجهه.

أغلق عينيه.

كان بردانًـا، لكـن ملابسـه جافـة، وكان يحـاول أن يرتـب حشـدًا مـن الأفـكار والمشـاعر المتصارعـة، والإرهـاق يدفعـه نحـو حافـة الهذيـان، وعندئـذٍ فجـأة أحـسَّ بالشـمس تـضرب غطـاء رأسـه.

فتح عينيه، واعتدل جالسًا.

كان مـا زال عـلى تلـك الصخـرة بجـوار الجـدول، غـير أن الوقـت الآن كان صباحًـا، والشـمس تطـل فقـط عـلى جـدار الـوادي الضيـق مـن ورائـه.

نمتُ الليلة كلها.

جـرَّ جسـده نحـو الجـدول وشرب، وكان المـاء بـاردًا جـدًّا حتـى إنـه أوجـع رأسـه.

تنـاول جـزرة وبضـع لقيـمات مـن الخبـز، ثـم جاهـد كي يقـف وتبـوَّل. شـعر بتحسُّـن مدهـش، وبـدا الألم في سـاقيه أقـل فظاعـة، بـل كان مقـدورًا عليـه تقريبًـا.

قبض على عصا سيره.

***

اقتربت جدران الوادي الضيق منغلقة وتقلص الجدول إلى مجرى هزيل قبل أن يختفي أخيراً تمامًا في النبع الذي خرج منه.

في غياب الماء الجاري، كان الصمت مدويًا.

لا شيء غير قعقعة الصخور تحت حذائه.

النعيب الموحش لطائرٍ يمرُّ فوق رأسه.

لهاثه هو نفسه.

كانت الجدران الحجرية على جانبيه تغدو أكثر انحدارًا، ولم تعد هناك أشجار أو حتى آجام.

مجرد صخور متناثرة وأشنات وسماء.

***

قبيل الظهر، كان إيثان قد تخلى عن عصا سيره، واختزل سيره الآن إلى التحرك على أربع فوق الأرض التي لا تني تزداد انحدارًا. وعندما دار حول ثنية في الوادي الضيق، تسلَّل صوتٌ جديدٌ فوق الضجة الدائمة للصخور المتقلقلة. مال إلى جلمود في حجم سيارة عائلية صغيرة، محاولًا أن يرهف السمع للضجة من وراء أنفاسه المتهدجة.

ها هي ذا.

ضجة بشرية الصنع.

ثابتة.

همهمة منخفضة.

دفعه الفضول إلى الأمام، وتسلَّق إيثان بسرعة حتى تجاوز الثنية، وصارت الهمهمة أكثر بروزًا مع كل خطوة، وارتفعت توقعاته.

عندما رآه أخيرًا، أحسَّ بوخزة ابتهاج تغمره.

تابع الوادي الضيق صعوده المنحدر إلى نحو ميل أو اثنين، وأعلى الجدران الصخرية قمم مسنَّنة وحواف مشرشرة، في مظهر من القسوة التي لا ترحم لدى طبيعة بدت غريبة تقريبًا.

على ارتفاع خمسين قدمًا من المنحدر، حدق إيثان مباشرة إلى مصدر الطنين؛ سور بارتفاع عشرين قدمًا على قمته لفَّات من السلك الشائك امتدَّت ستين قدمًا بعرض الوادي الضيق في أحدِّ نقاطه. ثمة لافتات على السور تنصح:

فولت عالٍ

خطر الموت

و

عُد إلى وايوارد باينز

بعد هذه النقطة ستموت

توقف إيثان قبل الحاجز بخمسة أقدام وتفحص المكان فحصًا شاملًا، بُني السور من ألواح سلك مربعة، ضلع كل مربع طوله نحو أربع بوصات. في الجوار، كان الطنين أكثر إنذارًا بالشر، مانحًا السور هيئة مهيبة لكيان لا يمكن العبث معه.

التقط إيثان رائحة تعفُّن في الجوار، ولم يتطلَّب الأمر منه أكثر من لحظة كي يلمح أصلها. قارض كبير -ربما حيوان الغرير- أخطأ بمحاولة الزحف عبر أحد المربعات اللصيقة بالأرض. بدا أنه تحمَّص بين الأسلاك لمدة ثماني ساعات، احترق حتى تفحم. وثمة طائر مسكين، أخطأ الحكم، وحاول أن يتناول شيئًا من بقايا المخلوق، فلاقى نفس المصير.

تطلَّع إيثان إلى جدران الوادي الضيق الصخرية.

بـدت ملسـاء، لكـن مواضـع القبـض -خاصـةً في الجانـب الأيمـن- بـدت معقولـة بالنسـبة إلى شـخص لديـه الدافعيـة وكذلـك الشـجاعة للتعامـل مـع قليـلٍ مـن المعانـاة.

سار إيثان إلى الجدار وبدأ التسلق.

لم يكـن أفضـل صخـر يمكـن تسـلُّقه، وبـدت بعـض مواضـع القبـض متعفنـة في قبضتـه، لكنهـا كانـت كثيرة وعـلى مسـافات قريبـة بمـا يكفـي بحيـث إنـه لم يضطـر إلى إلقـاء ثقلـه عـلى أي واحـدة لأكـثر مـن عـدة ثـوان.

سرعـان مـا أصبـح عـلى ارتفـاع خمسـة وعشريـن قدمًـا مـن الأرض، وثمـة شـعورٌ خفيـفٌ واخـز في جوفـه بينـما يطـن السـلك الشـائك المكهـرب تحـت نعـلي حذائـه بعـدة أقـدام فقـط.

اجتـاز حافـة عـلى صخـرٍ صلـبٍ، وهـو يخطـو بحـذرٍ بينـما يعـبر إلى الجانـب المحظـور مـن السـور. زعزعـه الارتفـاع، لكـن مـا أثـار أعصابـه أكثر حقيقـة مـا فعلـه للتـوِّ: هـذا العبـور المحظـور للحـدود.

ثمـة هاجـسٌ مزعـجٌ في كواليـس ذهنـه همـس لـه بأنـه وضـع نفسـه للتـوِّ وعـن طيـب خاطـر في خطـرٍ رهيـبٍ.

***

وصـل إيثـان إلى أرض الـوادي الضيـق بأمـان وتابـع السير، وصـار طنـين السـور المكهـرب يخفـت بينـما شـعور صاحبنـا الداخـلي يصـل إلى حالـة حـادة ومقلقـة مـن الحـذر. حـدث لـه نفـس الـشيء في العـراق؛ بـدا أن مستوى عاليًـا مـن الاسـتيعاب الحـسي ينتابـه في الفترة السـابقة عـلى المهام التـي تنتهـي نهايـة مريعـة. تبـدأ راحتـاه في التعـرق، يتسـارع نبـض قلبـه، تصـل حـواس السـمع والشـم والتـذوق وكل شيء لديـه إلى حـدٍّ مفـرطٍ. لم

يخبر أحدًا قطُّ، لكنه عندما فَقَدَ البلاك هوك في الفالوجة، كان يعرف أن قذيفة الآر بي جي قادمة قبل انفجارها بخمس ثوان.

كان الريف موحشًا هنا وراء السور، والصخور كلها متكسرة وصعقها البرق.

سماء خاوية.

ولم يؤدِّ غياب السحاب إلا إلى تأكيد حالة الخراب المطلق.

بعد الوقت الذي قضاه في وايوارد باينز، بدا كونه وحيدًا مرة أخرى أمرًا غير واقعي، معزولًا إلى حدٍّ بعيدٍ عن بقية الناس. لكن في خلفية ذهنه، بدأ قلق جديد يأكل فيه. بدا أن الوادي الضيق يصعد ألف قدم أخرى إلى حافة عالية تتناوشها الرياح. لو صمدت قواه، قد يبلغها قبل الغسق. يقضي ليلة أخرى طويلة باردة محاولًا أن ينام على صخرٍ متكسرٍ، لكن ماذا بعد ذلك؟ سينفد منه الطعام بعد قليلٍ، ورغم أن الماء ما زال ينفخ بطنه منذ آخر شربة تناولها قبل أن يختفي المجرى، فإن المجهود الذي يجبر جسده عليه سيستنزف ما لديه من ماء ويصيبه بالجفاف في وقتٍ قريبٍ.

لكن ما هو أكثر من خطر الجوع والعطش الحائم، خوفه مما ينتظره بعد تلك الحافة البعيدة عند قمة الوادي.

أميال وأميال من البرية، لو كان عليه أن يحدس، ورغم أنه ما زال لديه القليل من التدريب على البقاء الذي تلقَّاه في أيام الجيش، فإنه عندما يتعلق الأمر بهذا كان مرهقًا ومنهكًا تمامًا. وخطر له أن فكرة الخروج من هذه الجبال والعودة إلى المدنية تتجاوز التصديق.

ومع ذلك، ما الخيار أمامه؟

العودة إلى وايوارد باينز؟

أحـرى بـه أن يتجمَّـد حتـى المـوت وحيـدًا هنـا مـن أن يضـع قدمًـا في ذلـك المـكان مـرة أخـرى.

شـقَّ إيثـان طريقـه عـبر جـزءٍ مـن الـوادي الضيـق مسـدود بجلاميـد هائلـة، قافـزًا بحـرصٍ مـن واحـدٍ إلى التـالي. أمكنـه أن يسـمع المـاء يجـري تحتـه مـرة أخـرى، لكـن المجـرى كان غـير ظاهـر، لا يمكـن الوصـول إليـه، مخفيًّـا في الفـراغ الأسـود أسـفل ركام الجلاميـد.

عاليًـا فـوق الجـدار الأيـسر للـوادي الضيـق، ألقـى شيء مـا وميضًـا حـادًّا لضـوء الشـمس.

توقـف إيثـان وظلَّـل عينيـه بيـده وضيَّـق نظرتـه نحـو الوميـض المغشي. مـن وقفتـه في بطـن الـوادي، كل مـا اسـتطاع أن يـراه هـو سـطح معـدني مربـع أعـلى الجـدار بمسـافة لا بـأس بهـا، أبعـاده أكـثر كـمالًا ودقـة مـن أن تكـون شـيئًا لم يصنعـه بـشر.

قفـز إلى الجلمـود التـالي، وهـو يتحـرك الآن بسرعـة أكـبر، وقـوة أكـبر، ويتطلَّـع باسـتمرارٍ إلى الجـدار في أثنـاء حركتـه، لكـن طبيعـة هـذا السـطح العاكـس ظلَّـت مراوغـة.

كلـما تقـدم أكـثر، بـدا الـوادي الضيـق معقـولًا أكـثر، وقـلَّ حجـم الجلاميـد إلى أرض يمكـن اجتيازهـا.

كان يفكـر فيـما إذا كان بمقـدوره أن ينجـح في الصعـود إلى تلـك القطعة مـن المعـدن عندمـا قطعـت قعقعـة صخـور متسـاقطة حبل أفـكاره.

للحظـة مرعبـة، تخيـل إيثـان انهيـارًا أرضيًّـا قادمًـا في طريقـه، آلاف الأطنـان مـن الصخـور تنهمـر سـاقطة مـن فـوق الجـدار، لتسـحقه حتـى المـوت.

لكـن الصـوت كان قادمًـا مـن خلفـه، وليـس مـن أعـلاه. التفـت إيثـان ملقيًـا نظـرة وراءه في الطريـق الـذي جـاء منـه، متصـورًا أنـه مجـرد جلمـود عـبره وقلقلـه منـذ عـدة دقائـق، وهـو يتحـرك أخـيرًا الآن في أعقابـه.

لكـن كان هنـاك شيء غريـب في سـماع صـوت غـير أنفاسـه اللاهثـة أو حركـة الصخـور إلى جـواره مبـاشرةً، كان قـد اعتـاد سـكون هـذا الـوادي المعـزول.

اسـتطاع أن يـرى مسـافة طويلـة مـن الـوادي الضيـق، وقـد ثبتـت عينـاه في البدايـة عـلى السـور المكهـرب وراءه بربـع ميـلٍ، لكنهـا اسـتقرت بعـد ذلـك عـلى حركـة أقـرب بكثـيرٍ، في حـدود مائـة يـاردة. ظـنَّ في البدايـة أنـه لا بـد أن يكـون واحـدًا مـن حيوانـات الغريـر تلـك، لكنـه كان يندفـع بخفَّـة قِـط، وبسرعـة بالغـة مـن صخـرة إلى أخـرى، وعندمـا ضيـق إيثـان عينيـه ليضعـه في بـؤرة نظـره، رأى أنـه لا يملـك فـراء عـلى الإطـلاق. بـدا أمهـق، مغطـى بجلـد شـاحب بلـون الحليـب.

تراجـع إيثـان إلى الخلـف بشـكلٍ غريـزي عندمـا أدرك أنـه أسـاء تقديـر حجمـه بشـدة. لم يكـن يتحـرك فـوق صخـور صغـيرة. كان يتحـرك عـبر ذلـك الحقـل مـن الجلاميـد العملاقـة التـي خـرج إيثـان منهـا تـوًّا، وهـو مـا يعنـي أنـه أقـرب حجـمًا في الحقيقـة إلى البـشر ويتحـرك بسرعـة مخيفـة، يـكاد حتـى لا يتوقـف بـين قفزاتـه.

تعثَّر إيثان في صخرة وقفز واقفًا على قدميه، وأنفاسه تتسارع.

اقـترب ذلـك الـشيء بمـا يكفـي لأن يسـمع أنفاسـه -لهاثـه- ونقـر مخالبـه عـلى الحجـر في كل مـرة يهبـط عـلى جلمـودٍ جديـدٍ، وكل قفـزة تقربـه أكـثر مـن إيثـان، صـار الآن عـلى مبعـدة خمسـين قدمًـا فقـط، وبـدأت سـخونة سـقيمة تتخمَّـر في معـدة إيثـان.

هذا ما رآه قبل ليلتين من ذلك الكهف أعلى النهر.

هذا ما حلم به.

لكن ما هذا بحق الجحيم؟

كيف يمكن أن يوجد شيء كهذا؟

انطلق يعدو في الوادي الضيق بأسرع ما جرؤ على التحرك به طوال اليوم، ملقيًا نظرة وراءه مع كل خطوة.

قفز الشيء من فوق آخر الجلاميد الكبيرة واستقر أرضًا برشاقة راقصة باليه، وصار الآن يعدو على أربع، قريبًا من الأرض مثل خنزير بري، وصوت لهاثه المزعج يتعالى بينما تضيق المسافة بينهما بمعدلٍ مخيفٍ استنتج منه إيثان على الفور أنه لا جدوى من محاولة أن يسبقه.

توقف واستدار ليواجه ما هو قادم، ممزقًا بين محاولة استيعاب ما يحدث وتجهيز نفسه ببساطة لمحاولة النجاة.

صار على مبعدة عشرين ياردة الآن، وكلما اقترب أكثر، قلَّ إعجاب إيثان بما يراه.

كان قصير الجذع.

طويل الساقين وذراعاه أطول، وكل طرف منه ينتهي بصف من المخالب السوداء.

مائة وعشرة، ربما مائة وعشرون رطلًا.

مفتول العضلات.

مشدود الجسد.

وفوق كل هذا، له هيئة بشرية، بشرته في ضوء الشمس شفافة مثل فأر وليد - ارتسمت عليها شبكة من العروق الزرقاء والشرايين الأرجوانية وحتى قلبه ظاهر قليلًا كنبضٍ وردي إلى يمين كتلته المركزية.

عندما وصلت المسافة إلى عشر ياردات، تأهَّب إيثان، وانخفضت رأس المخلوق الصغيرة استعدادًا للهجوم، وزمجر بينما خيوط من اللعاب الدموي تتدلى من زوايا فمه منعدم الشفاه، وقد ركزت عيناه البيضاوان بلون القشدة على هدفهما.

التقط إيثان لمحة من رائحته النتنة قبل ثانيتين من التصادم، لحم نتن متحلل مُتبَّل بدم متعفن.

صرخ -صرخة غريبة بصوتٍ بشري- وهو يهجم، حاول إيثان أن يتحرك جانبًا في آخر لحظة ممكنة، لكنه كان قد توقع ذلك، ورمى واحدًا من أذرعته الأربعة ليحيط بخصر إيثان، ومخالبه تخترق بسهولة نسيج السترة السميك وتطعن جنب إيثان.

ومضة ألم حارق، وبعدها أطاحت قوة اندفاع المخلوق بإيثان ليرتطم بالصخور في قوة كافية لطرد الهواء من رئتيه.

شهق إيثان بحثًا عن الأكسجين بينما يهاجمه المخلوق.

شراسة كلب بيتبول.

سرعة البرق.

قوة وحشية.

شرع مخالبه القاطعة في تلويحات متوحشة بينما رفع إيثان ذراعيه في محاولة لحماية وجهه من البراثن ذات المخالب الخمسة التي كانت في حدة مخالب طائر جارح، تشق ثيابه بسهولة، وتخمش جلده.

تمكَّن في غضون ثوان من اعتلاء إيثان، وقد دقَّ مخالب ساقيه في سمانتي إيثان كأنها مسامير تثبته في الأرض.

وسط كل هذا الهياج، لمح إيثان وجهه.

منخران كبيران فاغران.

عينان صغيرتان غائمتان.

جمجمة بلا شعر والجلد مشدود للغاية ورقيق فوق القحف[1] حتى إنه بمقدوره أن يرى أين تلتقي ألواح الجمجمة معًا مثل قطع الأحجية.

تراص على جانبي اللثة صفَّان مزدوجان من الأنياب الضئيلة الحادة.

بدا كأنه يقاتل هذا الشيء منذ ساعات -تباطأ الوقت ليغدو مساحات زمنية بطيئة ومخيفة- رغم أنه في الواقع لم تمر إلا ثوانٍ، وتدريب إيثان على القتال يجاهد كي يدخل في اللعبة، وبدأ عقله يرتفع فوق الخوف والارتباك، مناضلًا كي يقمع الهلع المجنون الذي ابتلعه. كلما زاد الموقف خطورة وفوضوية، زاد احتياجك إلى التفكير بوضوحٍ كي تقيِّم الطريقة التي ستنجو بها، وحتى الآن فشل في ذلك. سمح لهذه المواجهة باستنزاف أغلب طاقته، وإذا لم يتحكَّم في خوفه ومردود طاقته، ففي خلال ستين ثانية أخرى لن تكون لديه القدرة -الذهنية أو الجسدية- حتى لمحاولة المقاومة.

وجَّه المخلوق أعمق ضرباته حتى الآن: أعمل مخالبه في بطن إيثان، ليقطع النسيج والجلد والطبقة الضحلة من الدهن فوق عضلات بطن إيثان واضحة المعالم، ليكشط أخيرًا سطح العضلات الحية.

عندما غاص برأسه نحو بطن إيثان، شعر بأسنان المخلوق تمزِّق السترة، وأدرك مرعوبًا ما يحاول هذا الوحش أن يفعله في الحقيقة: يبقر أحشاءه بسكاكينه الطبيعية ويقيم وليمة هنا في الوادي الضيق بينما إيثان يشاهده وينزف حتى الموت.

---

(1) الجزء الخلفي والعلوي من الجمجمة والذي يحوي الدماغ. (المترجم)

هـوى إيثـان بقبضتـه عـلى جانـب رأس الوحـش، لكمـة خرقـاء لكنهـا قويـة.

تطلَّع الشيء من فوق بطن إيثان وأصدر صيحة غاضبة مزمجرة.

ثم رفع مخلبه الأيمن وهوى به نحو عنق إيثان.

صـدَّ إيثـان الضربـة القادمـة بذراعـه اليـسرى وهـو يمـد يـده اليمنـى نحـو الأرض وأصابعـه تبحـث يائسـة عـن أي سـلاح.

كان بريق الغضب الخالص في عيني المخلوق واضحًا لا لبس فيه.

اندفـع مـن فـوق بطـن إيثـان، متوجهًـا بوجهـه الشـنيع نحـو عنقـه، مكـشرًا عـن أسـنانه.

سيمزِّق حلقي.

قَبَضَت يد إيثان على صخرة، وجاهدت أصابعه كي تمسكها بإحكامٍ.

هـوى بهـا بأقـوى مـا يسـتطيع، كـما لم يهـوِ بـشيء في حياتـه، والصخـرة ثقيلـة، في حجـم ثقالـة الـورق[1]، وعندمـا ارتطـم طرفهـا الثلـم بجانب رأس الوحـش، ترنَّـح المخلـوق، واتَّسـعت الحدقتـان السـوداوان بلـون الفحـم في تلكـما العينـين اللبنيَّتـين، وتهـدَّل فكُّـه في نـوعٍ مـن الدهشـة المذهولـة.

لم يتردَّد إيثان.

نهـض جالسًـا بسرعـة، وسـدَّد الصخـرة نحـو ذلـك الفـم المـلىء بأنيـاب بُنيـة مدبَّبـة، لتتكسَّر أسـنانه بينـما الـشيء يتعـثَّر متراجعًـا، ويُتبعهـا إيثـان بضربـة أخـرى، ضربـة فاجعـة لذلـك الأنـف المفغـور.

هـوى الوحـش عـلى الأرض، ودم أحمـر داكـن يتدفـق مـن أنفـه وفمـه بينـما يـصرخ غاضبًـا غـير مصـدِّق، ملوحًـا بضربـات واهيـة بمخالبـه لم تملـك القـوة أو الشراسـة حتـى لتخـدش الجلـد.

---

(1) قطعة صلبة صغيرة توضع على الأوراق لمنعها من التطاير بسبب الهواء. (المترجم)

اعتـلى إيثـان ذلـك الـشيء، قابضًـا بيـدٍ عـلى قصبتـه الهوائيـة، وبالأخـرى عــلى الصخرة.

سـبع ضربـات كفيلـة بتفتيـت الجمجمـة، وأخـيرًا كـفَّ الوحـش عـن الحركـة.

ألقـى إيثـان الصخـرة الملطَّخـة بالدمـاء وسـقط عـلى جانبـه، ليلتقـط أنفاسًـا طويلـة عميقـة، وقـد تناثـرت عـلى وجهـه الدمـاء وبعـض شـظايا العظـام.

أجبر نفسه على الجلوس معتدلًا ورفع قميصه.

يا إلهي!

بـدا كأنـه خـاض شـجارًا بالسـكاكين، والدمـاء تنـزف مـن مواضـع عديـدة في جذعـه، جـروح قطعيـة طويلـة قبيحـة مـن أثـر تلـك المخالـب. الضربـة التـي تلقَّاهـا بعـرض بطنـه هـي التـي أحدثـت الدمـار الأكـبر: أخـدود بطـول سـت بوصـات محفـور في بطنـه، لـو زاد عمقهـا بوصـة واحـدة، لفتحـت هـذه الضربـة جوفـه.

أطرق ناظرًا إلى ما تبقَّى من ذلك الشيء أيًّا كان بحق الجحيم.

لم يعرف حتى كيف يبدأ في استيعاب الأمر.

لم يتمكَّـن مـن إيقـاف يديـه عـن الارتعـاد، ومـا زال مقـدارٌ كبـيرٌ مـن الأدرينالـين يمـور بداخلـه.

نهض.

الوادي الضيق ساكن من جديد.

تطلَّـع إلى أقـرب جـدار، ذلـك الـشيء المعـدني الغامـض مـا زال يلمـع في الشـمس. مـن المسـتحيل أن يتأكـد، لكـن مـن منظـوره، بـدا أنـه في حاجـة إلى التسـلُّق مسـافة ثمانـين أو تسـعين قدمًـا، ورغـم أنـه لم يسـتطع

أن يفهم السبب بوضوحٍ؛ فإنه شعر برغبة قوية في الابتعاد عن أرض الوادي الضيق بأسرع ما يمكنه.

مسح إيثان الدماء من وجهه بكمي سترته وتراجع عن الجدار كي يمكنه أن يلقي نظرة أفضل عليه. استغرق لحظة كي يدرس كل المسارات الممكنة للصعود على السطح الصخري، وقرَّ قراره في النهاية على مسارٍ سيصعد به عبر سلسلة من الحواف المتضائلة إلى أسفل صدعٍ واسعٍ يمتد بطول الطريق حتى ذلك الشيء مَثار فضوله.

سار إلى الجدار.

في الوهج الباقي بعد المعركة، أحسَّ جسده بنشاطٍ مطلقٍ.

سيكون من الطيب أن يوجه هذه الطاقة في التسلُّق.

رفع ذراعيه إلى أول حافة واسعة، ووجد بروزًا جيدًا في الصخر سمح له بأن يرفع جسده.

آلمه بشدة انثناء عضلات بطنه، وزاد من تعقيد الأمر حقيقة أنها كانت أساسية لكل حركة تقريبًا.

لكنه تابع طريقه رغم الألم.

صعد عشرين قدمًا من الجدار، ووجد بقعة على حافة حيث أمكنه أن يقف بسهولة، واستند بظهره إلى الصخر.

لقد مرَّت سنوات وسنوات منذ آخر مرة قام فيها بتسلُّق أي شيء، وكانت قلة كفاءته ظاهرة في الإنهاك البدني الخالص الذي أحسَّ به بعد أول عشرين قدمًا. كان يتسلق بذراعيه بدلًا من الاعتماد على قوة ساقيه، وكان بالفعل يتصبَّب عرقًا، والماء المالح يسيل على كل شقٍّ، كل شجٍّ، كل جرح قطعي.

استدار بحذرٍ، ووضع يديه على الصخر. كانت الحافة في ظل من الشمس والحجر بارد كالثلج. من الأرض بدا هذا القسم التالي

مستقيمًا إلى حدٍّ ما، ثروة من مواطئ القدم الجيدة وذلك النوع من الصخر كثير العقد المناسب للتسلق. لكن الآن، في وقفته أعلى أرض الوادي بعشرين قدمًا وهو يحدق متطلعًا إلى درجة ميل شبه عمودية، لم تبدُ مواضع التشبث باليدين على هذا القدر من الترحيب، والمسافة إلى الحافة التالية -حيث يمكن أن يقتنص دقيقة من الراحة هو في أشد الاحتياج إليها- كانت ثلاثين قدمًا على الأقل.

أغلق إيثان عينيه وأخذ نَفَسين عميقين في محاولة لإعادة نبضه إلى معدله الطبيعي.

يمكنك أن تفعلها، عليك أن تفعلها.

أعلى رأسه بقدمٍ، قبض على أصغر بروز قابله حتى الآن، ثم خطا صاعدًا على سطح منحدر قليلًا احتوى على موطئ يكفي بالكاد كي يستقر عليه نعلا حذائه لثوانٍ.

زاد الخوف عدة درجات عندما تلمَّس إيثان طريقه أعلى الحافة الثانية، محاولًا أن يتجاهل ذلك الصوت الهادئ الساكن في خلفية ذهنه مثل شظية، والذي يوسوس له بأنه يجتاز منطقة احتمالية كسر الساق والظهر لو وقع إلى مقياس ارتفاع يعني أي خطأ فيه الموت.

خاطرت يداه وقدماه بالاستقرار على مواضع تشبث ووقوف تصغر باطرادٍ.

في بداية صعوده، كان يتردد بين كل حركة، مختبرًا كل موضع مرة وأخرى، لكنه لم يعد كذلك. بالفعل بدأت ساقاه تتصلَّبان بشكلٍ متقطع؛ وهو إنذار بالشد العضلي، لو أصابه شد هنا على الجدار قد تكون تلك هي النهاية.

ولذلـك تسـلق بـأسرع مـا يمكنـه، قابضًـا عـلى كل موضـع مناسـب يقابلـه، محـاولًا أن يجـد راحــة في المســافة المتزايــدة بينــه وبــين أرض الـوادي الضيـق، مطمئنًـا نفسـه بأنـه لـو وقـع سـيكون مـن الأفضـل كثـيرًا أن يمـوت هكـذا مبـاشرةً، لأن سـاقًا مكسـورة أو ظهـرًا مكسـورًا في هـذه البريـة الجـرداء لا يعنـي إلا موتًـا بطيئًـا ومعذبًـا.

ومـع ذلـك كلـما تسـلق أعـلى كلـما زاد إحـكام قبضـة الرعـب عليـه. كان يقـاوم الرغبـة في النظـر إلى أسـفل، لكنـه لم يسـتطع مقاومـة الانبهـار المهـووس بالمـدى الـذي ابتعـد بـه عـن الأرض.

أخيرًا وصلت يده اليمنى إلى الحافة الثالثة.

اشرأب ليرفع جسده، وهو يرتكز بركبته اليسرى على الحافة.

قبـل أن يـدرك أنـه لا يوجـد شيء واضـح تقبـض عليـه يـده اليـسرى، كان قـد تـورط بالفعـل.

مـرَّت لحظـة سرمديـة حيـث تعلـق إيثـان في الهـواء، إحـدى ركبتيـه جاثمـة عـلى الحافـة بينـما مركـز ثقلـه يسـحبه ببـطء إلى الـوراء مـن الجـدار نحـو ذلـك الفـراغ الرهيـب أسـفله.

دفـع جسـده إلى الأمـام في يـأسٍ تـامٍّ، ويـداه الاثنتـان تخمشـان الصخـر، حتـى تمكّنـت يـسراه مـن العثـور عـلى بـروز صغـير في مسـتوى صـدره.

للحظـة لم يعـرف إن كان قـد قبـض عـلى هـذا الـبروز بقـوة كافيـة لمقاومـة شـد الجاذبيـة وجـذب جسـده مـن جديـدٍ عـلى الحافـة، مـع انخـداش الجلـد عـلى أطـراف أصابعـه، وشـعوره بانخـلاع عقـلات أصابعـه مـن الشـد.

توقـف اندفاعـه إلى الـوراء، وسـحب نفسـه إلى الأمـام بأطـراف أصابعـه حتـى كشـطت جبهتـه الجـدار.

استنزف كل قواه ليرفع ساقه اليمنى ويجبر جسده على الوقوف.

كانـت هـذه الحافـة في نصـف اتسـاع السـابقة وبـرزت قدمـاه مـن فـوق طرفهـا.

من المستحيل أن يجلس أو يبقى هنا لأي فترة زائدة من الوقت.

انفتـح أعـلاه تمامًـا ذلـك الصـدع في الجـدار الـذي يصعـد المسـافة الباقيـة إلى تلـك القطعـة مـن المعـدن. بـدا متسـعًا بمـا يكفـي لأن ينكمـش إيثـان داخلـه لـو تمكَّـن مـن الوصـول إلى هنـاك، لكنـه لم يملـك القـوة لمحاولـة جـذب جسـده إلى أعـلى.

كان الإنهـاك قـد بلـغ بـه حـد المـوت، وجسـده مـا زال يرتعـش مـن رأسـه إلى أخمـص قدميـه.

انتزعته الصرخة من خوفه.

حـدق ناظـرًا مـن ارتفـاع خمسـين قدمًـا إلى أرضيـة الـوادي الضيـق متحـيرًا.

لقد حطَّم جمجمة هذا الشيء إلى قطع.

كيف بحق الجحيم...

مهلًا.

لم يكن يتحرك، ولم يعد حتى له فم كي يُخرج هذا الصراخ.

عندمـا دوَّت الصرخـة التاليـة -هـذه الصرخـة أقـل درجـة في العلـو- عـبر الـوادي، وارتـدَّت متذبذبـة بـين الجداريـن الحجريـين، عـاد إيثـان بناظريـه نحـو السـور المكهـرب.

أوه يا إلهي!

كان هنـاك خمسـة منهـم يتحركـون في الـوادي في نسـقٍ يشـبه إلى حـدٍّ كبـيرٍ تشـكيل سرب طائـرات، متسـلقين ذلـك الحقـل مـن الجلاميـد الكبـيرة في قفـزات سريعـة رشـيقة.

ألصق إيثان ظهره بالجدار، محاولًا أن يؤمّن مكمنًا ثابتًا قدر ما يمكن أن يجد.

جاء قائد السرب يعدو من حقل الجلاميد بأقصى سرعة، في سرعة كلب صيد، وعندما وصل إلى ما قتله إيثان، تشمم جمجمة زميله المحطمة.

عندما اقترب الآخرون، رفع القائد وجهه إلى السماء وأطلق عويلًا طويلًا مفطور القلب شابه عواء الذئب.

وصل الأربعة الآخرون وخلال عشر ثوان كانوا جميعًا يعوون مثل جوقة في حدادٍ. سرى البرد في جسد إيثان وهو واقف بلا حراكٍ على الحافة ينصت، وعرقه يبرد على جلده وبقايا الدماء من ذلك الشيء تجف على وجهه مثل قشور ضئيلة.

حاول أن يفهم ما كان يراه ويسمعه، لكن لم يكن هناك أي تفسير.

كل هذا أبعد من خبرته، وربما أبعد من خياله.

عندما انتهى العواء، التفت أعضاء المجموعة أحدهم إلى الآخر وتحاوروا بأغرب لغة سمعها إيثان في حياته.

كأنهم طيور مفزوعة، صيحاتهم السريعة الحادة تشبه زقزقة غريبة.

أحكم إيثان قبضتيه حول الصخر، مقاومًا موجة من الدوار، والعالم يميل أسفله.

كان خمستهم الآن يتشمّمون الأرض بالقرب من الميت، بأرداف مرفوعة، ووجوه محشورة بين الصخور.

حاول إيثان ألا يستسلم للهلع، لكنه أدرك حينها شيئًا أبعد من الوحوش؛ بعد أن يغادروا، لن يكون هناك سبيل لنزوله. ولا حتى من فوق هذه الحافة. السبيل الوحيد للخروج من هذا الجدار، حيث

كان قد ارتضى في الأساس أن يقوم بعملٍ فوق طاقته، هو الصعود إلى أعلى.

فجأة أطلق أحد هذه المخلوقات صرخة عالية ثاقبة.

اندفع الآخرون نحوه متجمعين حوله وهم يزقزقون في جنون، وبعد ذلك انطلق أكبرهم -الذي يبلغ حجمه على الأقل ضعف حجم المخلوق الذي هاجم إيثان- على رأس الباقين، وأنفه ما زال ملتصقًا بالأرض.

فقط عندما وصل سفح الجرف فهم إيثان الأمر أخيرًا.

أثري.

ضغط المخلوق أنفه في الصخر وبعد ذلك نهض واقفًا.

تراجع إلى الوراء ببطء...

... ورفع ناظريه، إلى إيثان مباشرةً.

إنهم يقتفون أثري.

خيَّم الصمت على الوادي الضيق.

خمسة أزواج من الأعين اللبنية تتفحص إيثان على الحافة بالأعلى.

كان بمقدوره سماع قلبه يثور في صدره كأنه شخص يحاول أن يشق طريقًا للخروج من حجرة مبطنة.

دارت فكرة واحدة عبر ذهنه في حلقة مفرغة...

هل يستطيعون التسلق؟

كما لو أنهم يجيبونه، تراجع كبيرهم الذي التقط أثره أولًا إلى الوراء على ساقيه الخلفيتين وقفز من الأرض قفزة ارتفاعها خمسة أقدام من وضع الثبات.

التصـق بالحائـط كأنـه مغطـى بالغـراء، وأطـراف مخالبـه تنغـرس داخـل شـقوق في الصخـر لم يتمكّـن إيثـان مـن اسـتخدامها قـط.

رفـع ناظريـه محدقًـا إلى إيثـان بينـما بـدأ الآخـرون يقفـزون عـلى الجـدار.

تطلـع إيثـان إلى الشـق أعـلى رأسـه، باحثًـا حتـى لمـح موضـع تشـبث صالـح لكنـه بعيـد عـن متناولـه قليـلًا.

قفـز وقبـض عـلى كتلـة مـن البلـورات الحـادة الداكنـة وهـو يسـمع نقـر المخالـب عـلى الصخـر يتصاعـد نحـوه.

تسلَّق الجـدار، ووضـع يـده الأخـرى عـلى سـطح مسـتوٍ داخـل الصـدع، وجـذب جسـده بقيـة الطريـق إلى داخـل فتحـة التجويـف المائـل.

كان ضيقًــا، عرضــه أقــل مــن ثلاثــة أقــدام، لكنــه حــشر حــذاءه في الجـدار وخلـق ضغطًـا مقاومًـا كافيًـا كي يبقـى معلقًـا.

حدَّق أسفله.

كان كبيرهــم قــد وصــل بالفعــل إلى الحافــة الثانيــة، وهــو يتســلق بسرعــة وبـلا خـوفٍ ولا أثـر للتعـب.

والآخرون وراءه عن قرب.

أولى إيثـان انتباهـه لمـا يوجـد بالأعـلى؛ تجويـف مائـل مطـوَّق مـن ثـلاث جهـات، لا سـبيل للتشـبث فيـه، لكنـه تصـور أنـه يسـتطيع تسـلقه بطريقـة صعـود المدخنـة.

بـدأ يتسـلق، وطـوق الصخـر يمنحـه شـعورًا مرحِّبًـا، وإن كان زائفًـا، بالأمـن.

كل بضعـة أقـدام كان ينظـر تحتـه مـا بـين سـاقيه، وقـد أعـاق الصخـر المحيـط بـه الآن رؤيتـه، لكـن كان بمقـدوره مـا زال أن يـرى ذلـك الـشيء

في المقدمـة، يتحـرك دون جهـدٍ بـين الحافتـين الثانيـة والثالثـة في قسـم مـن الجـدار كافـح فيـه إيثـان قبـل قليـلٍ.

بعـد عشريـن قدمًـا أعـلى الصـدع، وسـبعين أعـلى أرض الـوادي، كانـت فخـذاه تشـتعلان.

بدايـةً لم يكـن بمقـدوره أن يعـرف كـم كان عليـه أن يمـضي أكـثر مـن ذلـك كي يصـل إلى تلـك القطعـة المعدنيـة التـي أدخلتـه في هـذا البـلاء، ومـن ناحيـة أخـرى، لـو كان مـا زال في الـوادي عندمـا ظهـرت هـذه الأشـياء، لكانـوا يلتهمونـه الآن. لـذا ربمـا عنـد إعـادة النظـر في الأمـر تكـون هـذه القطعـة المعدنيـة اللامعـة التـي دفعتـه إلى هـذا الصعـود المتهـور قـد أطالـت في الحقيقـة حياتـه، إن لم تكـن قـد أنقذتهـا.

وصـل الوحـش إلى الحافـة الثالثـة، ومـن دون لحظـة تـردُّد أو اسـتراحة أو تفكـير في الحركـة التاليـة، قفـز مـن حافـة الصخـر الضيقـة.

مخلـب واحـد في نهايـة ذراعـه اليـسرى أمسـك بمليمـتر مربـع مـن السـطح داخـل فتحـة الصـدع، وبقـوة وحشـية جـذب نفسـه إلى أعـلى بـذراعٍ واحـدة وانحـشر في التجويـف المائـل.

التقـت عينـا إيثـان بعينـي الوحـش عندمـا بـدأ يتسـلَّق بقدميـه ويديـه متحـركًا بسرعـة تبلـغ ضِعـف مـا يمكـن لإيثـان أن يبلغـه.

لا شيء يمكن فعله إلا الاستمرار في التسلُّق.

جاهد ليصعد خمسة أقدام أخرى.

عشرة.

الوحـش عـلى مبعـدة خمسـة وعشريـن قدمًـا وقريـب بمـا يكفـي لأن يـرى إيثـان الخفـق الـوردي لقلبـه الضخـم، الـذي غـام خلـف جلـده كأنـه مدسـوس خلـف زجـاج سـميك مغبـش.

بعد عشرة أقدام أخرى بدا أن التجويف المائل يقود إلى جدارٍ مسطح عمودي مخيف.

بدت مواضع القبض قرب القمة جيدة، وأدرك إيثان أنه لو ظلَّ يتسلق بطريقة صعود المداخن سيلحقه هذا الشيء قبل أن ينجح في الخروج.

تحوَّل إلى التسلق واضعًا يدًا فوق يدٍ، مسرعًا خطوته في الأقدام العشرة الأخيرة.

قبل القمة مباشرة، تقلقل أحد مواضع القبض وكاد إيثان يفقد توازنه.

أمسك نفسه قبل أن يسقط.

أحسَّ بالريح تتدفق عبر الفتحة إلى التجويف المائل.

لمح شيئًا يلتقط نور الشمس أعلاه مباشرة.

تجمَّد.

نظر إلى أسفل.

لقد أطاح تقريبًا بفرصة أن ينجو بنفسه.

كان الوحش على مبعدة خمسة عشر قدمًا منه ووراءه اثنان آخران قريبان في التجويف المائل. مدَّ إيثان يده إلى أسفل، نحو موضع القبض الذي كاد يقتله منذ قليل والذي كان ما زال في متناوله بالكاد.

خلع قطعة الصخر من مكانها، ورفعها فوق رأسه.

كانت ملء اليد، أكبر حتى مما حسب، رطلان من الجرانيت المختلط بالكوارتز.

ثبَّت نفسه بين الصخر، وصوَّب وتركها تطير.

ضربت المخلوق في منتصف وجهه تمامًا في اللحظة التي كان يبحث فيها عن مقبضٍ جديدٍ.

أفلتت يداه.

وهوى ساقطًا في التجويف.

ومخالبه تخمش الصخر.

في سرعة أكبر من أن يتحكم في نفسه.

ارتطم بالمخلوق الذي كان تحته بسرعة عالية كفيلة بأن تطيح به من مجثمه، واصطدم الاثنان معًا بالثالث، وصرخ الثلاثة لثانيتين طويلتين وهم يندفعون خارجين من قاع التجويف، ويرتطمون بالحافة الثالثة، ويتسارع سقوطهم نحو الصخور بالأسفل حيث ارتطموا بالأرض في كتلة متشابكة من الأطراف الملتوية والجماجم المكسورة.

خرج إيثان من التجويف المائل وهو يضيق عينيه في مواجهة البريق الذي صار الآن على مبعدة أقدامٍ قليلة فقط أعلى رأسه.

كان فوق أرض الوادي الضيق بمائة قدم على الأقل، ومعدته مقلوبة. من نقطة مراقبته الجديدة، استطاع الآن أن يرى أن الجدار المقابل يصعد خمسمئة أو ستمئة قدم أخرى إلى قمة حادة، بدا من المتعذَّر اجتيازها في حد ذاتها.

إذا كان جداره على نفس الشاكلة، فأولى به أن يقفز من فوقه الآن؛ لأنه لا يملك القدرة على تسلُّق مائة قدم أخرى، ما بالك بخمسمئة.

المخلوقان الباقيان على الجدار زمجرا نحوه في يأسٍ، وبدلًا من تتبُّع الآخرين في الصعود عبر التجويف المائل، كانا قد تسلَّقا حوله، كل واحد من ناحية. كان هذا طريقًا أبطأ، لكنهما ما زالا على قيد الحياة وصارا الآن تحت إيثان بثلاثين قدمًا.

مـدَّ ذراعيـه وقبـض عـلى الحافـة تحـت المعـدن اللامـع، ووضـع كوعيـه عـلى أعـرض لسـان مـن الصخـر رآه، ورفـع نفسـه، ليصبـح وجهًـا إلى وجـه أمـام الفتحـة الفولاذيـة البـارزة عـدة بوصـات مـن الصخـر. كانـت مربعـة، نحـو أربـع وعشريـن بوصـة عرضًـا، ونصـال مروحـة تـدور عكـس عقـارب السـاعة وراءهـا مبـاشرة.

رنَّت المخالب على الصخر تحته.

قبض إيثان على جوانب الفتحة وجذبها.

لم تتزحزح. كانت ملحومة بالأنبوب.

اعتـدل في وقفتـه عـلى الحافـة ومـرَّر يديـه عـلى سـطح الجـدار حتـى وصـل إلى مـا كان يسـعى وراءه: وتـد كبـير وزنـه عـشرون رطـلًا مـن الجرانيـت بـدا مسـتعدًّا للسـقوط.

رفعه وهوى به على قمة الفتحة في نقطة التقائها بالأنبوب.

انفك اللحام، وبرزت الحافة العلوية اليسرى من الفتحة محلولة.

كان المخلوقـان أسـفله الآن بعـشرة أقـدام، قريبـين إلى درجـة أنـه اسـتطاع أن يشـمَّ عفـن فريسـتهما الأخـيرة يهـب منهـما مثـل نـوعٍ مـن الكولونيـا البربريـة.

رفـع الصخـرة مـرة أخـرى، وهـوى بهـا في ضربـة سـاحقة عـلى الركـن الأيمـن.

انقطمـت الفتحـة وجلجلـت في سـقوطها عـلى الصخـر متقافـزة، وكادت تـضرب في هبوطهـا أحـد المخلوقـين.

كل مـا حـال بـين إيثـان وظلمـة ممـر التهويـة هـو النصـال الـدوارة لنظـام سـحب الهـواء.

حشر الصخرة بينها فتوقف دورانها.

ثلاث ضربات قوية كانت كفيلة بفصل الوحدة تمامًا عن موضعها. مدَّ إيثان يده وأمسك بها من نصالها وألقى بها من فوق الصخور.

التقط الصخرة، ورفعها وألقاها على أقرب مخلوق بينما مخالبه تمتد نحو الحافة.

هوى صارخًا.

راقبه شريكه إلى أن اصطدم بالأرض، وبعد ذلك عاد ينظر إلى إيثان.

ابتسم إيثان وقال: أنت التالي.

تفحَّصه الشيء، ورأسه مائل كأنه يستطيع الفهم أو على الأقل يريد أن يفهم. تشبث بالصخر أسفل الحافة مباشرة، في المتناول بسهولة، وانتظر إيثان أن يتحرك، لكنه ظل في موضعه.

دار إيثان حول نفسه، باحثًا في الجدار الصخري القريب عن صخرة أخرى حرة لكنه لم يجد.

عندما التفتَ من جديدٍ، كان الوحش ما زال جاثمًا على الجدار.

مستقرًا.

تساءل إيثان إن كان ينبغي له أن يتابع التسلق حتى يصادف صخرة أخرى معقولة الحجم.

فكرة سيئة، سيكون عليك أن تتسلق إلى أسفل كي تعود إلى هذه الحافة.

انحنى إيثان وفك رباط فردة حذائه اليسرى، خلعها ثم فعل المثل مع اليمنى.

أمسـك بواحـدة... ليسـت تقريبًـا في ثقـل صخـرة، لكـن ربمـا يمكنهـا أن تـؤدي المهمـة. أمسـك بهـا مـن كعبهـا، وقـام باسـتعراضٍ دراماتيـكي حيـث أمـال ذراعـه إلى الـوراء وهـو يحـدق في عينـي الوحـش اللبنيتـين.

- أنت تعرف ما هو قادم، أليس كذلك؟

تظاهر إيثان بأنه سيرميها.

لم يجفـل الوحـش ويسـقط مـن الصخـر كـما أمـل إيثـان، بـل التصـق أكـثر بالجـدار.

المـرة التاليـة لم تكـن خدعـة، لكـن إيثـان ألقـى الفـردة بقـوة شـديدة حتـى إنهـا طـارت فـوق رأس المخلـوق وسـقطت مباشرة في الـوادي الضيق.

رفع الفردة الأخرى وصوَّبها بدقة ورماها.

ضربة مباشرة في الوجه.

ارتـدت فـردة الحـذاء وسـقطت بعيـدًا بينـما تطلـع المخلـوق إلى إيثـان وأصـدر صوتًـا كالفحيـح وهـو مـا زال متشـبثًا بالجـدار.

على وجهه سيماء عزم قاتل.

تسـاءل إيثـان: "لكـم تظـن أن في إمكانـك الصمـود؟ لا بـد أنـك تشـعر بالتعـب" انحنـى متظاهـرًا بأنـه يمـد إليـه يـدًا. "سأسـاعدك عـلى اسـتكمال الطريـق، عليـك فقـط أن تثـق بي". راقبـه بطريقـة مخيفـة، وزاد مـن خوفـه إحساسـه بوجـود ذكاء واضـح لـدى هـذا المخلـوق لا يسـتطيع أن يعـرف مـدى عمقـه.

جلس إيثان على الصخر.

قال: "سأجلس هنا حتى تسقط."

راقب قلبه ينبض.

راقبه وهو يرمش.

"أنـت وغـد واحـد قبيـح" وكتـم ضحكتـه. "آسـف، لم أسـتطع المقاومـة، إنهـا جملـة مقتبسـة مـن فيلـم[1]. بجـدٍّ، مـاذا تكـون بحـق الجحيـم؟".

مرَّت خمس عشرة دقيقة ببطء.

فات وقت الأصيل.

بـدأت الشـمس تسـقط، وحلَّـت الظلمـة بالفعـل عـلى أرض الـوادي الضيـق.

صار الجور باردًا هنا على الصخر.

بضـع سـحبٍ تمـر في السـماء فوقـه، لكنهـا سـحب هزيلـة ابتلعتهـا كل هـذه الزرقـة الصافيـة كأنهـا مجـرد حـواشٍ.

بـدأت المخالـب الخمسـة في ذراع المخلـوق اليـسرى ترتعـش، مجلجلـة حـول موضـع القبـض الضئيـل، وتغـير شيء في عينيـه. مـا زال بهـما الكثـير مـن الغضـب، لكـن الآن ثمـة عنـصرًا مضافًـا: الخـوف؟

دار رأسه ليمسح كل الصخر الموجود في المتناول.

كان إيثان قد قام بالفعل بنفس الفحص ووصل إلى نفس النتيجة.

- نعم، هو كذلك يا صاحبي. حافتي. خيارك الوحيد.

سرت رعـدة في سـاقه اليـسرى، وكان إيثـان قـد فتـح فمـه ليقـترح عـلى المخلـوق أن يفلـت مقبضـه عندمـا قفـز مـن موضـع تشـبث قدميـه، وارتفـع ثلاثـة أقـدام وهـو يلقـي بكفِّـه اليمنـى في الوقـت نفسـه في ضربـة مقوسـة.

---

(1) إشـارة إلى فيلـم المفـترس أو Predator إنتـاج عـام 1978 بطولـة أرنولـد شـوارزنيجر وإخـراج جـون مكتيرنـان. (المترجـم)

كانـت لتشـق وجـه إيثـان، لكنـه انحنـى مراوغًـا لتخـدش المخالـب أعـلى رأسـه، ثـم نهـض إيثـان على قدميـه اسـتعدادًا لـركل هـذا الـشيء مـن فـوق الصخـر.

لكنه لم يكن في حاجة إلى هذا.

لم تكـن هنـاك فرصـة للوحـش في بلـوغ الحافـة مـع حالتـه الواهنـة، لقـد قـام فقـط بقفـزة أخـيرة عـلى أمـل أن يُسـقط إيثـان معـه.

بـدا أن السـقطة لم تكـن مفاجئـة، لأنـه لم يُصـدر صوتًـا ولم يلـوح بذراعيـه أو سـاقيه.

تطلَّع فقـط محدقًـا إلى إيثـان بينـما يهـوي نحـو أرضيـة الـوادي التـي غابـت عنهـا الشـمس، وجسـده بـلا حـراكٍ كأنـه في غـمار غطسـة مـن مرتفـع.

في استسلامٍ كاملٍ، وربما حتى في سلامٍ مع قدره.

مكتبة
t.me/soramnqraa

14

بالأمس لم تغادر غرفتها.

لم تغادر حتى فراشها.

كانت قد تجهَّزت لموته.

عرفت أنه قادم.

لكـن مشـاهدة الشـمس تـشرق عـلى عـالمٍ بـلا إيثـان كادت تقتلهـا رغـم ذلـك. بطريقـة مـا جعـل النـور هـذا الأمـر حقيقيًّـا. خـرج النـاس إلى تمشـياتهم الصباحيـة. حتـى طيـور العقعـق الثرثـارة عنـد آنيـة الحبـوب في الفنـاء الجانبـي. اسـتمرارية الأمـور هـي مـا فطـرت قلبهـا بالفعـل. دوران تـروس العـالم بينـما هـي تعيـش مـع غيابـه كأنـه ورمٌ خبيـثٌ أسـود في صدرهـا، والأسى أقـوى مـن اسـتطاعتها حتـى أن تتنفـس.

أما اليوم، فقد غامرت بالخروج، وهي جالسة الآن فاترة الهمة في بقعة من نور الشمس على العشب الناعم في فنائها الخلفي. كانت تُحدِّق متطلعة إلى الجدران الجبلية المحيطة لساعات، مراقبةً الضوء وهو يتحرك عبرها ومحاولةً ألا تفكر في أي شيء.

قطع سَرَحانَها صوتُ خطوات مقتربة.

نظرت وراءها.

كان بيلتشر قادمًا نحوها.

خلال الفترة التي قضتها حتى الآن في وايوارد باينز، رأت الرجل في أرجاء المدينة في مناسبات عديدة، لكنهما لم يتحدثا قط؛ لقد حُذِّرت من هذا منذ البداية. لم يتبادلا كلمة واحدة منذ تلك الليلة المطيرة قبل خمس سنوات في سياتل، عندما ظهر عند بابها حاملاً أغرب عرض.

جلس بيلتشر إلى جوارها على العشب.

خلع نظارته، ووضعها على ساقه، وقال: "قيل لي إنك غبتِ عن يوم حصادك في الجمعية التعاونية."

- لم أغادر منزلي منذ يومين.
- وماذا يمكن أن يجدي هذا؟
- لا أعرف، لكني لا أستطيع تحمُّل نظرات الناس إليَّ. لا يمكننا الحديث عنه بالطبع، لكني أرى الشفقة في أعينهم، أو الأسوأ من ذلك، أن يتجاهلوني، يتصرفون كأن شيئًا لم يحدث، كأنه لم يوجد قط. لم أخبر حتى ابني أن والده مات، لا أعرف كيف أبدأ.

سيحل المساء بعد قليلٍ.

السماء خالية من السحب.

كان صـف شـتلات الحـور الـذي يفصـل فناءهـا الخلفـي عن فنـاء جارها قـد تحـوَّل إلى اللـون الذهبـي بـين عشـية وضحاهـا، والأوراق المسـتديرة ترتعـش وسـط النسـيم. كان بمقدورهـا أن تسـمع أجـراس الهـواء الخشـبية تجلجـل في الشرفـة الخلفيـة بجـوار البـاب حيـث عُلقـت. لحظـات كتلـك -ذلـك الكـمال البـصري الـذي يؤكـده واقـع لا يمكنهـا أن تعرفـه أبـدًا- هـي مـا تخـشى أن يـؤدي بهـا إلى الجنـون يومًـا مـا.

قـال بيلتـشر: "لقـد أبليـتِ هنـا بـلاء حسـنًا، كانـت الصعوبـات مـع إيثـان آخـر مـا أريـده أصـلًا، آمـل أن تصدقـي هـذا".

نظرت إلى بيلتشر، حدَّقت مباشرةً إلى عينيه السوداوين.

قالت: "لا أعرف ماذا أصدق..".

- هل ابنك في الداخل؟

- نعم، لماذا؟

- أريـدك أن تدخـلي وتـأتي بـه، هنـاك سـيارة منتظـرة في الخـارج أمـام البيـت.

- إلى أين ستأخذنا؟

هزَّ رأسه.

- هل ستؤذي بنجامين؟

جاهد بيلتشر كي ينهض.

أطـرق محدقًـا إليهـا. وقـال: "لـو أردت أن أؤذيكـما يـا تيريـزا لأخذتـك أنـت وابنـك في منتصـف الليـل، ولم يكـن أحـدٌ ليسـمع بكـما مـرة أخـرى، لكنـك تعرفـين هـذا بالفعـل. اذهبـي الآن وائتـي بـه، سـأقابلكما في الخـارج بعـد دقيقتـين".

15

حدَّق إيثان في أنبوب التهوية.

سيكون الدخول فيه صعبًا، وربما مستحيلًا بسبب قلنسوة سترته.

خلع السترة وألقى بها من فوق الحافة، وأحسَّ بالقشعريرة في ذراعيه العاريتين. تصور أن قدميه ستكونان مسؤولتين عن أغلب عملية الدفع، وقرر أن يتخلص من جواربه كذلك حتى لا ينزلق.

أدخل رأسه في الفتحة.

في البداية، لم يدخل كتفاه، لكن بعد دقيقة من التلوي، تمكَّن أخيرًا من المناورة بجسده حتى دخل نصفه، وذراعاه مفرودتان أمامه، وقدماه تجاهدان كي تدفعاه بقية الطريق، والمعدن الخفيف يكاد يُجمد أصابع قدميه.

عندما صار داخل أنبوب التهوية تمامًا، اجتاحته موجة هلع. أحسَّ كأنه لا يستطيع التنفس، وانحشرت كتفاه بين الجدارين، وخطر له يقين بأن التحرك إلى الوراء غدا الآن مستحيلًا، على الأقل ليس من دون أن يخلع كتفيه.

وسيلته الوحيدة للتحرك كانت هي قوة الدفع البائسة التي استطاعت أصابع قدميه توليدها، وليس لديها تروس عكسية.

تحرك إلى الأمام بوصة -حرفيًّا- منزلقًا بامتداد سطح الأنبوب.

ما زال ينزف.

تمردت عضلاته في أعقاب التسلق وأُنهكت أعصابه.

على مدى البصر لا شيء غير الظلام المطلق، والأنبوب يردد صدى حركته.

إلا عندما يتوقف.

عندئذٍ يحلُّ صمتٌ مطبقٌ، لا تقطعه إلا دمدمات عشوائية تُفزع قلبه؛ أثر تمدُّد وانكماش المعدن استجابة لتقلبات درجة الحرارة.

بعد خمس دقائق، حاول إيثان أن يلقي نظرة وراءه نحو الفتحة، حيث تاق شيء ما داخله إلى لمحة واحدة أخيرة من الضوء -تلك المواساة الصغيرة- لكنه لم يستطع أن يلوي عنقه إلى الوراء بالقدر الكافي للنظر.

***

زحف وزحف وزحف.

محاطًا من كل الجهات بظلامٍ تامٍّ.

عند نقطة ما، ربما بعد ثلاثين دقيقة، ربما بعد خمس ساعات، ربما بعد يوم... كان عليه أن يتوقف.

تشنَّجت أصابع قدميه من الشد.

انهار داخل المعدن.

يرتعش.

ظمآن بجنون.

جوعان بجنون وغير قادر على الوصول إلى الطعام في جيوبه.

لم يكن بمقدوره إلا أن يسمع وجيب قلبه في صدره على المعدن ولا شيء غير ذلك.

***

نام.

أو فقد الوعي.

أو مات لمدة دقيقة.

عندما أفاق مرة أخرى، تشنج بعنفٍ ضاربًا جوانب الأنبوب، ولا فكرة لديه أين كان أو حتى متى كان، حيث انفتحت عيناه على ظلامٍ خالصٍ.

طوال دقيقة مريعة، اعتقد أنه دُفن حيًّا، وصوت أنفاسه المتسارع يبدو كأن أحدًا ما يصرخ في أذنه.

***

زحف لما بدا أشبه بأيام.

تستحضر عيناه استعراضات غريبة من الضوء ظهرت بوتيرة أكبر كلما طال بقاؤه في الظلام.

انفجارات ألوان زاهية.

أضواء شفق قطبي خيالية.

سطوع مذهل في العتمة.

وكلما طال أمد زحفه في ذلك الظلام المخنوق، استمرت فكرة واحدة في مناوشته بطريقة عدوانية: لا شيء من هذا حقيقي.

لا وايوارد باينز، ولا الوادي الضيق، ولا تلك المخلوقات، ولا حتى أنت.

إذن ما هذا؟ أين أنا؟

في نفقٍ طويلٍ مظلمٍ.. لكن إلى أين تعتقد أنك ذاهب؟

لا أعرف.

من أنت؟

إيثان بيرك.

لا، من أنت؟

والد بِن، زوج تيريزا، أعيش في حي في سياتل اسمه كوين آن. كنت طيار مروحية بلاك هوك في حرب الخليج الثانية. بعد ذلك، عميلًا في جهاز الخدمة السرية، منذ سبعة أيام، جئت إلى وايوارد باينز...

تلك هي الحقائق بالضبط، لكنها لا تقول شيئًا عن هويتك، عن طبيعتك.

أحب زوجتي، لكني لم أكن مخلصًا لها.

هذا جيد.

أحب ابني، لكني نادرًا ما كنت موجودًا معه، مجرد نجم بعيد في السماء.

هذا أفضل.

لديَّ نوايا، لكن...

لكن ماذا؟

لكني أفشل طوال الوقت. أؤذي أحبابي.

لماذا؟

لا أعرف.

هل أصابك الجنون؟

أحيانًا أعتقد أني ما زلت في حجرة التعذيب تلك. لم أغادرها قط.

هل أصابك الجنون؟

قل لي أنت.

لا أستطيع.

لماذا؟

لأني أنت.

***

في البداية، ظن أنه عرض ضوء وهمي آخر، لكن لم تكن هناك أي انفجارات ألوان غريبة، ولا ألعاب نارية بصرية.

فقط بقعة دائمة من الزرقة في مكان ما أمامه بعيدًا، خافتة كنجمٍ ميتٍ.

عندما أغلق عينيه، اختفت.

وعندما فتحهما من جديدٍ، ظهرت من جديدٍ، كأنها الأثر الوحيد للعقل الباقي في عالمه الخانق. كانت مجرد نقطة ضوء، لكنه يستطيع أن يجعلها تختفي وتعاود الظهور، كانت هذه اللمحة من السيطرة شيئًا يجب التشبث به.

مرفأ، ميناء وصول.

فكر إيثان: **من فضلك.. كوني حقيقية.**

***

ازداد النجم الأزرق الكابي حجمًا، ومع امتداده أتى طنين هادئ.

توقف إيثان ليستريح، وثمة ذبذبة ناعمة تسري الآن في الأنبوب، وتسري فيه.

بعد ساعاتٍ في الظلام، بدا هذا الشعور الجديد مريحًا مثل نبض قلب أُم.

***

بعد حين، تغيَّر شكل النجم الأزرق إلى مربعٍ ضئيلٍ.

كبر حتى هيمن على مجال رؤية إيثان، والترقب يتكدر في أعماقه.

ثم صار على مبعدة عشرة أقدام أمامه.

ثم خمسة.

ثم صار يمد ذراعيه خارج فتحة الأنبوب، وكتفاه تطقطقان، وحرية الحركة الجديدة عذبة مثلما تخيل أن يكون الماء.

تـدلى خارجًـا مـن طـرف الأنبـوب، وهـو يحـدق تحتـه إلى أنبـوب آخـر أوسـع مرتـين ويتقاطـع مـع أنابيـب أخـرى.

ثمـة ضـوء أزرق ناعـم مـلأ بـئر التهويـة الرئيـسي، ضـوء ينبعـث مـن مصبـاحٍ بعيـدٍ بالأسـفل.

في الأسفل لمح نظام سَحب هواء.

لا بد أنه أعلى بمائة قدم من هذه النصال.

كأنه يُحدق إلى بئرٍ تحته.

عـلى مسـافة كل عـشرة أقـدام كان هنـاك المزيـد مـن الأنابيـب التـي تغـذي بـئر التهويـة الرئيـسي، بعضهـا أكـبر بكثـيرٍ.

تطلَّع إيثان إلى أعلى، كان السقف أعلى رأسه بقدمين.

اللعنة.

عرف ما هو تحركه التالي، ما كان ينبغي له أن يكون، ولم يعجبه هذا.

***

نـزل إيثـان إلى بـئر التهويـة مسـتخدمًا نفـس التكنيـك الـذي اسـتخدمه في صعـود التجويـف المائـل: وضْـع الضغـط، وكل قـدم تدفـع الجـدار المقابـل.

أبلـت قدمـاه العاريتـان بـلاءً حسـنًا عـلى المعـدن، ورغـم خطـر السـقوط بـين النصـال الـدوارة الـذي كان ينتظـر حتـى أصغـر هفـوة، فإنـه شـعر بمـا يشـبه النشـوة لتحـرره مـن ذلـك الأنبـوب الضيـق.

***

هبـط ببـطء وبشـق الأنفـس، خطـوة وراء خطـوة، محافظًـا عـلى الضغـط مـا بـين الجداريـن بذراعيـه بينـما يـدلي سـاقيه، ثـم يحـول الضغط إلى كعبـي قدميـه.

بعـد أن نـزل أربعـين قدمًـا، اسـتراح عنـد فتحـة أول أنبـوب أفقـي كبـير قابلـه، جالسًـا عـلى الحافـة ومحدقًـا أسـفله إلى النصـال الطنانـة وهـو يـأكل آخـر مـا معـه مـن جـزر وخبـز.

لقـد وضـع كل تركيـزه عـلى البقـاء حيًّـا إلى درجـة أنـه لم يخطـر لـه إلا الآن أن يتسـاءل عـن الغـرض مـن كل هـذه البنيـة التحتيـة.

وبـدلًا مـن الاسـتمرار في الهبـوط، ألقـى نظـرة وراءه داخـل الأنبـوب، ولاحـظ الظلمـة التـي تخلَّلتهـا ألـواح ضوئيـة موضوعـة عـلى مسـافات منتظمـة. امتـدت إلى أبعـد مـا اسـتطاع أن يـرى.

انحنـى إيثـان عـلى يديـه وركبتيـه وحبـا عـبر المعـدن إلى مسـافة عشريـن قدمًـا حتـى وصـل إلى اللـوح الأول.

توقف عند الحافة، وقد سرت فيه رجفة إثارة مشوبة بالخوف.

لم يكن لوحًا ضوئيًّا.

كان فتحة تهوية.

حدَّق عبرها، إلى أرضية من البلاط الشطرنجي.

حمـل الهـواء الـذي هـبَّ عـبر الأنبـوب دفئًـا محببًـا؛ كأنـه نسـيم مـن المحيـط في منتصـف يوليـو.

لوقتٍ طويلٍ.. انتظر.

يراقب.

لم يحدث شيء.

كان هنــاك صــوت الهــواء المتحــرك، صــوت أنفاســه، صــوت تمــدُّد وانكــماش المعــدن، ولا شيء آخــر.

أمسك إيثان بشبكة فتحة التهوية.

رفعهــا بســهولة، لم يكــن بهــا براغــي أو مســامير أو لِحــام يثبتهــا في مكانهــا.

وضــع الشــبكة جانبًــا وقبــض عــلى الحافــة وحــاول أن يســتجمع شــجاعته كي يهبــط.

16

تـدلى إيثـان مـن الأنبـوب إلى أن لمسـت قدمـاه الحافيتـان البـلاط الشـطرنجي بلونيـه الأبيـض والأسـود، وقـف في منتصـف ممـرٍّ طويـلٍ فـارغٍ. لم يكـن هنـاك مـن صـوتٍ إلا طنـين مصابيـح الفلورسـنت ووشـيش الهـواء الناعـم في حركتـه عـبر شـبكة الأنابيـب فوقـه.

عندما بدأ يمشي أصدرت قدماه صوتَ صفع هادئ على البلاط.

كانـت هنـاك أبـواب مصفوفـة عـلى مسـافة عشريـن قدمًـا مـن كل واحـد وعليهـا أرقـام، والبـاب الـذي ظهـر أمامـه مبـاشرةً عـلى اليمـين كان مواربًـا في فتحـة صغـيرة تـسرب منهـا القليـل مـن الضـوء عـلى الأرضيـة.

وصل إليه -رقم 37- ووضع يده على مقبضه.

أنصت.

لا صوت، لا حركة، لا شيء يدفعه إلى الابتعاد.

دفع الباب ليفتحه بوصة أخرى ونظر في الداخل.

كان هناك سرير مفرد بهيكل معدني إلى جوار الحائط البعيد، مُرتَّب تمامًا. ومكتب مزين بصور مؤطرة وبعض أزهار التوليب في مزهرية. مرَّ بناظريه على خزانة كتب من الأرض إلى السقف، مستنسخ لوحة لهنري ماتيس، حامل لوحات. إلى جوار الباب، تدلى رداء استحمام من مشجب في الحائط، وتحته شبشب فرائي وردي.

تابع طريقه في الممر الصامت.

لم يكن أي من الأبواب موصدًا، وكل باب غامر بفتحه كشف مساحة معيشة مصغَّرة شبيهة، تزينها لمسات فردية زخرفية قليلة.

بعد مسافة كبيرة، انتهى الممر إلى دَرَج، وقف إيثان على قمته وحدَّق إلى الأسفل، وعدَّ أربعة أدوار من السلالم إلى القاع.

لوحة على الحائط مكتوب عليها **المستوى الرابع**.

نزل إلى البسطة التالية، التي أسلمته إلى ممرٍّ آخر بدا مطابقًا للممر في الطابق الأعلى.

ترددت ضحكة قوية مفاجئة عبر الردهة.

دفعت إيثان إلى العودة للدَرَج وأعدته للفرار. كان يتصور بالفعل أن في إمكانه العودة إلى المستوى الرابع، واستخدام مقعد من إحدى تلك الشقق لكي يتسلق عائدًا إلى أنبوب التهوية. لكن الضحكة تلاشت، وبعد أن انتظر دقيقة كاملة، بقي الممر فارغًا.

سار ثلاثين قدمًا فيه، حتى توقف أخيرًا أمام زوج من الأبواب المروحية، كل باب منهما يحتوي نافذة صغيرة.

مجموعة من ثلاثة رجال وامرأتين شغلوا طاولة من دستة طاولات في كافيتريا متواضعة، ورائحة الطعام الساخن جعلت معدة إيثان تقرقر.

قالـت إحـدى المرأتـين: "أنـت تعـرف أن هـذا ليـس صحيحًـا يـا كلاي" وهـي تشـير إليـه بشـوكة حمـل طرفهـا كـرة مـما بـدا أشـبه ببطاطـس مهروسـة.

تابع إيثان حركته في الممر.

مرَّ بمغسلة.

بغرفة استراحة.

بمكتبة.

بصالة ألعاب رياضية خالية.

بغرف خلع ملابس للرجال والنساء.

بقاعـة تدريبـات فيهـا امرأتـان تهـرولان جنبًـا إلى جنـب عـلى مشّـايتين كهربائيتـين ورجـل يرفـع أثقـالًا حـرة.

وصـل إيثـان إلى الـدَرَج في الطـرف الآخـر وهبـط دورًا مـن السـلالم أدى إلى ممـر المسـتوى الثـاني.

عنـد أول بـاب وصـل إليـه، توقـف واسـترق النظـر داخلـه عـبر نافذتـه الدائرية.

كان هنــاك سريــر نقــال في المنتصــف، محاطًــا بالأضـواء والعربــات المحمَّلـة بـأدوات الجراحـة وشاشـات متابعـة القلـب وحوامـل الأنابيـب الوريديـة ووحـدات الـكي والشـفط وطاولـة أشـعة سـينية، كلهـا نظيفـة بطريقـة مثاليـة وتلمـع تحـت الضـوء الخافـت.

الأبـواب الثلاثـة التاليـة كانـت بـلا نوافـذ ولا يميزهـا إلا لوحـات تحمـل: مختـبر أ، مختـبر ب، مختـبر ج.

قـرب نهايـة الممـر، توهجـت نافـذة واحـدة، مـشي إيثـان ملتصقًـا بالجـدار إليهـا.

على الجانب الآخر من الزجاج نقرٌ وهمهمة أصوات ناعمة خفيضة.

استرق النظر من النافذة.

حجـرة تـكاد تكـون مظلمـة، ووهجهـا قـادم مـن شاشـات عديـدة، خمـس وعـشرون شاشـة في خمسـة صفـوف كل صـف بـه خمـس شاشـات مثبتـة في الحائـط وجاثمـة أعـلى وحـدة تحكُّـم بـدت قـادرة عـلى إطـلاق صـاروخ.

عـلى مسـافة عـشرة أقـدام مـن مـكان وقـوف إيثـان، جلـس رجـلٌ يتطلّـع محدقًا إلى الشاشـات، وأصابعـه تتحـرك بسرعـة الضـوء عـلى لوحـة مفاتيـح بينـما تتغـير الصـور في الشاشـات باسـتمرارٍ. كان يرتـدي سـماعة عــلى رأســه، واســتطاع إيثــان أن يســمع صوتــه عــبر النافــذة، رغــم أن الكلــمات لم تكــن واضحــة.

عـلى إحـدى الشاشـات تأمَّـل إيثـان مجموعـة مـن الصـور المعروضـة في شرائـح...

واجهة منزل فيكتوري.

شرفة أمامية لمنزلٍ مختلفٍ.

زقاق.

غرفة نوم.

حوض استحمام فارغ.

حمَّام فيه امرأة واقفة أمام مرآة تمشط شعرها.

رجل جالس إلى طاولة مطبخ يتناول سلطانية من حبوب القمح.

طفل جالس على مرحاض يقرأ كتابًا.

منظر للشارع الرئيسي في وايوارد باينز.

الملعب في الحديقة العامة.

المقبرة.

النهر.

المقهى من الداخل.

ردهة المستشفى.

المأمور بوب جالس خلف مكتبه رافعًا قدميه عليه، وهو يتحدث في الهاتف.

كان خط رؤية إيثان محدودًا عبر النافذة، لكنه استطاع أن يتبين الحافة اليسرى لكتلة أخرى من الشاشات وصوت أشخاص آخرين ينقرون على لوحات مفاتيح أخرى.

اشتعلت بركة من الغضب الساخن كأنها نجم كبير مشتعل في مكان ما عميق بداخله.

وضع يده على مقبض الباب وبدأ يديره. لا شيء أحب إليه الآن من التسلل خلف ذلك الرجل الذي يراقب الناس في حياتهم الخاصة وكسر عنقه.

لكنه أوقف نفسه.

ليس بعد.

تراجع إيثان مبتعدًا عن مركز المراقبة وتوجه هابطًا الدَرَج إلى الممر الأسفل، المستوى الأول.

رغم صعوبة الجزم من هذه المسافة، بدا له أن الطرف الآخر يمتد فيما وراء الدَرَج إلى قسم آخر من هذا المجمع.

أسرع إيثان في خطوه.

كل عـشرة أقـدام كان يمـرُّ ببـابٍ بـلا مقبـضٍ، ولا وسـيلة دخـول ظاهرى غـير شـقوق بطاقـات مفتاحية.

عند الباب الثالث على يساره توقف.

ألقى نظرة عبر النافذة الصغيرة داخل الظلام - مجرد غرفة فارغة.

فعـل الأمـر نفسـه عنـد البـاب العـاشر، حيـث توقـف وظلَّـل عينيـه بيديـه حتـى يسـتطيع أن يتبـيَّن مزيـدًا مـن التفاصيـل مـن بـين الظـلال.

عـلى الجانـب الآخـر مـن الزجـاج بـرز وجـه واحـد مـن تلـك المخلوقات التـي رآهـا في الـوادي الضيـق، مكشرًا عـن أنيابـه ومصـدرًا صوتًـا كالفحيح.

تراجـع إيثـان متعـثرًا إلى الجـدار المقابـل، وجوفـه يطـنُّ مـن الرعـب بينـما المخلـوق يـصرخ خلـف الزجـاج السـميك بمـا يكفـي لخنـق أغلـب الصـوت.

تردد صدى وقع أقدام في الدَرَج الذي نزل منه توًّا.

هـرع إيثـان قاطعًـا الممـر، وهـو يتحـرك بـأسرع مـا يسـتطيع، وتركيبات الفلورسـنت تتـوالى مـارة في مجـرى مـن الضـوء الاصطناعي.

ألقـى نظـرة مــن فـوق كتفــه عندمــا وصــل الــدَرَج، ورأى هيــكلي شـخصين يرتديـان السـواد يدخـلان الطـرف الآخـر مـن الممـر عـلى مبعـدة مائـة يـاردة. أشـار أحدهـما وصـاح بـشيء مـا، وبعـد ذلـك اندفـع الاثنـان نحـوه.

هرع إيثان عبر الدَرَج.

كان زوج مــن الأبــواب الزجاجيــة الأوتوماتيكيــة ينزلقــان منغلقــين أمامــه مبــاشرة.

انحـرف جانبًـا، وتمكَّـن بالـكاد مـن الدخـول عبرهـما قبـل أن ينغلقـا وراءه.

أُخـذ بالأبعـاد الهائلـة للغرفـة التاليـة، توقـف تمامًـا أمـام المـدى المجنـون لهـذا المـكان.

لم يعـد واقفًـا عـلى بـلاط بـل عـلى صخـر بـارد وعنـد حافـة مغـارة في حجـم عـشرة مسـتودعات، مليـون قـدم مربـع عـلى الأقـل لـو كان عليـه أن يخمـن، والمسـافة مـن الأرض إلى السـقف سـتون قدمًـا في بعـض المواضـع. طـوال حياتـه لم يـرَ إلا مكانًـا واحـدًا فقـط أكـثر إثـارة للإعجـاب: مصنـع طائـرات البوينـج في إيفريـت، واشـنطن.

تدلَّـت كـرات ضـوء عملاقـة مـن السـقف الصخـري، كل كـرة تـضيء قسـمًا مسـاحته ألـف قـدم مربـع مـن مسـاحة الأرضيـة.

كانت هناك مئات من الكرات.

بـدأت الأبـواب الزجاجيـة تنفـرج خلفـه، وصـار بمقـدوره أن يسـمع وقـع خطـى هذيـن الرجلـين المتسربلـين بالسـواد؛ لقـد قطعـا بالفعـل نصـف مسـافة الممـر.

جـرى إيثـان داخـل المغـارة وانطلـق في دهليـز بـين رفـوف محمَّلـة بأخشـاب مـن كافـة المقاييـس. رفـوف بطـول أربعـين قدمًـا، تصـور إيثـان أنهـا احتـوت ألـواح خشـب كافيـة لإعـادة بنـاء وايـوارد باينـز خمـس مـرات أخـرى.

ترددت أصوات عديدة عبر المغارة.

ألقـى إيثـان نظـرة وراءه، ورأى شـخصًا مـا خلفـه بمائتـي قـدم تقريبًـا يعـدو نحـوه.

انطلق خارجًا من الدهليز الضيق بين الرفوف.

أمامـه مبـاشرةً امتـلأت مسـاحة الأرضيـة بمئـات الخزانـات الأسـطوانية طولهـا ثلاثـون قدمًـا ومثلهـا عرضًـا، كل واحـدة منهـا قـادرة عـلى احتـواء

آلاف مـن الأقـدام المكعبـة، وكل واحـدة عليهـا لافتـة تحمـل حروفًـا بـارزة ضخمـة في طـول إيثـان:

أرز.

دقيق.

سكر.

حبوب قمح.

ملح معالج باليود.

ذرة.

فيتامين سي.

فول صويا.

حليب مجفف.

شراب شعير.

شعير.

خميرة.

جـرى إيثـان داخـل متاهـة الحاويـات. كان بمقـدوره أن يسـمع وقـع خطـوات -قريبـة جـدًا- لكـن مـع كل التداخـلات المكانيـة، كان مـن المسـتحيل أن يحـدد موقعهـا.

توقـف واسـتند إلى خزانـة، متنفسًـا في قميصـه عنـد ثنيـة ذراعـه، مجاهـدًا كي يكتـم ضجـة لهاثـه.

مـرق رجـل في زي أسـود مموَّه يمسـك في يـد بجهـاز لاسـلكي وفي اليـد الأخـرى شيء أشـبه بمنخـاس الماشـية.

انتظـر إيثـان عـشر ثـوان ثـم غـيَّر مسـاره، شـاقًّا طريقـه عـبر الحاويـات مائـة يـاردة أخـرى حتـى دخـل مسـاحة انتظـار للسـيارات.

تنوعـت طـرز المركبـات مـن أوائـل الثمانينيـات إلى الحـاضر إلى طـرز لم يرهـا مــن قبـل؛ تصميــمات مدمجــة وافــرة المنحنيــات بــدت أشــبه بسـيارات مفاهيميـة راديكاليـة منهـا لأي شيء ينتمـي إلى الطريـق العـام.

تباهـت كل مركبـة، دون اسـتثناء، بكـروم لامـع ودهـان لا شـائبة فيـه تحـت كـرات الضـوء المعلقـة، وبـدت كلهـا جديـدة ولامعـة كأنهـا خرجـت مـن خـط التجميـع قبـل ثلاثـين ثانيـة.

اندفعــت مجموعــة مــن الرجــال إلى المشــهد مــن الجانــب البعيــد لمســاحة الانتظــار.

غـاص إيثـان بـين سـيارتي جيـب شـيروكي حمراويـن، ولم يعـرف إن كانـوا قـد رأوه، لكنـه كان واثقًـا أنـه لمـح أسـلحة أوتوماتيكيـة.

زحــف بمحــاذاة عــدة ســيارات ونهــض أخــيرًا ببــطء إلى جــوار بــاب ســيارة أمامــي إلى أن تمكَّــن مــن اســتراق النظــر عــبر الزجــاج الأمامــي لســيارة إمبــالا طــراز أوائــل الثمانينيــات.

كانـوا أقـرب مـما تخيَّـل، عـلى مبعـدة ثلاثـين قدمًـا فقـط الآن وكلهـم مسـلحون بمدافـع رشاشـة. سـلَّط اثنـان منهـم كشـافيهما اليدويـين داخـل كل ســيارة مــرًّا بهــا بينــما زحــف الثالــث عــلى يديــه وركبتيــه مســلطًا الضـوء تحــت كل ســيارة.

أخـذ إيثـان الاتجـاه المعاكـس، ولم يعبـأ بالزحـف، جـرى فقـط محدودبًا عـلى الصخـر غـير المسـتوي محـاولًا أن يؤمِّـن ألا يكـون رأسـه ظاهـرًا عـبر أي زجـاجٍ.

قـرب حافـة مسـاحة الانتظـار، قابلتـه سـيارة فـورد كـراون فيكتوريـا ذات نوافـذ خلفيـة مظللـة. توقـف، وبدقـة مطلقـة جـذب المقبـض وفتـح البـاب دون صـوت.

سطع نور مصباح السقف، وزحف إيثان داخلًا وأغلق الباب وراءه في لمسة أقوى مما يجب.

حتى من داخل السيارة، كان بمقدوره سماع صدى انغلاق الباب يتردد في المغارة.

انحنى في الظلال خلف مقعد السائق، واسترق إيثان النظر من فوق مسند الرأس وعبر الزجاج الأمامي.

كان الرجال الثلاثة جميعهم واقفين الآن، وكل واحد منهم يلتفت ببطء محاولًا أن يتحقق من أين جاءت الضجة.

تفرقوا أخيراً، تحرك اثنان بعيدًا عن إيثان، لكنَّ الثالث توجه نحو سيارته مباشرةً.

عندما اقترب الرجل، نزل إيثان خلف المقعد وتكور في أصغر شكلٍ مدمج يمكنه أن يجعل نفسه عليه.

اقتربت الخطوات.

كان قد دسَّ رأسه بين ركبتيه.

لم يستطع أن يرى شيئًا.

ثم صارت الخطوات عند رأسه تمامًا، على مبعدة بوصات من الجانب الآخر للباب.

لم تكمل طريقها مبتعدة.

توقفت.

كانت الرغبة في أن يرفع رأسه ليرى ما كان يحدث قوية إلى حد أنها كادت تتغلَّب عليه.

تساءل في نفسه إن كان الرجل يسلط الضوء داخل السيارة الكراون فيك.

تساءل في نفسه إلى أي حدٍّ سيمرُّ الضوء عبر النوافذ الخلفية المظللة.

إذا لم يستطع أن يرى الداخل جيدًا، هل سيفتح الباب؟

تابعت الخطوات طريقها، لكن إيثان لم يتحرك؛ انتظر خمس دقائق أخرى حتى لم يعد بمقدوره سماعها.

أخيرًا اعتدل في جلسته وحدّق عبر الزجاج الأمامي.

كان الرجال قد ذهبوا.

لم يرَ أحدًا.

فتح إيثان الباب بهدوء وزحف نازلًا إلى الصخر. لو أرهف السمع سيمكنه سماع أصوات، لكنها بعيدة للغاية، في منطقة نائية ما من المغارة.

بعد مائة قدم من الزحف وصل إيثان إلى حافة مساحة الانتظار.

أمامه مباشرةً نهض جدار المغارة والفتحة إلى نفقٍ واسعٍ بما يكفي لخروج سيارتين جنبًا إلى جنبٍ.

نهض إيثان على قدميه وعبر إلى النفق.

كان خاليًا وجيد الإضاءة، وانحدر في اتجاه مباشر من حيث وقف بمعدل عشر أو اثنتي عشرة درجة فوق الرصيف الأصلي.

ثمة لافتة ملصقة بالصخر أعلى الفتحة المقوسة: حروف بيضاء على خلفية خضراء، تمامًا مثل لافتات نظم الطرق السريعة بين الولايات الأمريكية.

لكنها حملت وجهة واحدة...

وايوارد باينز 3.5

ألقى إيثان نظرة وراءه إلى كل السيارات، مفكرًا أنه ربما يستطيع استعارة واحدة من الموديلات الأقدم، التي كان من الأسهل تشغيلها بتوصيل الأسلاك.

لفت شيء ما نظره: ضوء أزرق بارد قادم من باب زجاجي في الصخر على مبعدة خمسين ياردة.

عاد وقع الخطوات والأصوات إلى المحيط، وإن كان ما زال على مسافة بعيدة، وراء السيارات. ظنَّ إيثان أنه رأى شعاع كشاف يدوي يسقط على إحدى الخزانات، لكنه لم يكن واثقًا.

ظل قريبًا من جدار المغارة.

انحنى الجدار برفقٍ بينما كان إيثان يهرول بمحاذاته نحو الباب الزجاجي.

توقف على مبعدة خمسة أقدام.

عندما انزلق الباب مفتوحًا، قرأ إيثان كلمة واحدة مخطوطة على الزجاج:

الإرجاء

خطا إيثان إلى الداخل.

انغلق الباب خلفه.

كان الجو أبرد بكثيرٍ، أعلى بضع درجات من التجمُّد، وخرجت أنفاسه بخارًا في البرد القارص. كان الضوء أزرق ثلجيًا، كأنه نور شمس يمرُّ عبر بحرٍ من الجليد، وكان الهواء غائمًا بغازٍ شاحبٍ حام على مسافة عشرة أقدام أعلاه، وقد بلغ من السُّمك درجة كافية لإخفاء

السقف تمامًا كأنه سحابة، ومع ذلك كانت لهذه القاعة تلك الرائحة النظيفة المغسولة لليل بعد عاصفة ثلجية: رائحة منعدمة ونقية.

الضجة الصادرة عن فحيح الغاز والصفارات الناعمة كسرت الصمت.

كانت القاعة تقريبًا في حجم متجر بقالة ضخم، وضمّت صفًّا بعد صفٍّ من وحدات في لون الفحم -مئات ومئات منها- كل واحدة منها في حجم ثلاجة مشروبات، وكل واحدة تنفث بخارًا أبيض من الغاز من سقفها كأنها مدخنة.

سار إيثان نحو أول ممرٍّ ووقف في مواجهة إحدى الماكينات.

ثمة لوحٌ من الزجاج بعرض بوصتين امتد في منتصفها، ولا شيء يُرى من خلفه.

إلى يسار الزجاج لوحة مفاتيح ذات مقاييس وقراءات عديدة، كلها على درجة الصفر.

وإلى يمين الزجاج لوحة اسم رقمية تفحصها إيثان:

جانيت كاثرين بالمر

توبيكا، كانساس

تاريخ الإرجاء: 82-2-3

مواطنة: 11 عامًا، 5 شهور، 9 أيام

سمع إيثان الباب ينزلق مفتوحًا، التفت ليرى من دخل، لكن موجات الغاز حجبت رؤيته. تابع حركته عبر الممر، غائصًا في الضباب، ملقيًا نظرة على لوحة الاسم في كل ماكينة مرَّ بها، وتواريخ الإرجاء تتقدم باطرادٍ عبر الثمانينيات.

أوقفتـه إحداهـا تمامًـا بينـما الأصـوات تختلـط مـع صـوت الغـاز المتـسرب والصفـارات.

خلـف لـوح الزجـاج المركـزي، بـدا كـما لـو أن المسـاحة الداخليـة مـن الماكينـة مُلئـت برمـلٍ أسـود. عندمـا أمعـن النظـر قليـلًا، رأى إصبعًـا بيضاء، بـلا حـراكٍ، وقـد اسـتقر طرفهـا عـلى الزجـاج أسـفل لطخـة مـن بصمتـه.

كشـفت المقاييـس مـا بـدا أنـه رسـم قلـب بخـطٍّ مسـتقيمٍ ودرجـة حـرارة بلغـت 21.1111 درجـة مئويـة.

لوحة الاسم:

براين ليني روجرز

ميزولا، مونتانا

تاريخ الإرجاء: 84-5-5

محاولات الدمج: 2

وقفـت الماكينـة التاليـة فارغـة، لكـن إيثـان ميَّـز الاسـم الأول، وتسـاءل إن كانـت هـي:

بيفرلي لين شورت

بويسي، آيداهو

تاريخ الإرجاء: 85-10-3

محاولات الدمج: 3

منتهية

كان هنـاك شـخص مـا يتحـرك بسرعـة نحـوه الآن. انتـزع نفسـه مبتعـدًا عـن وحـدة بيفـرلي، وذهنـه يترنَّـح بينـما يجـري إلى نهايـة الممـر ويدخـل التالي.

ماذا يعني هذا بحق الجحيم؟

لا بـد أنـه كان هنـاك نصـف دسـتة أشـخاص في القاعـة الآن، كلهـم يطاردونـه، لكنـه لم يبـالِ.

كان في حاجة فقط إلى أن يرى وحدة أخرى واحدة.

لا بد أن يراها.

وفي الصف الرابع، في منتصف الممر، رغم اقتراب الأصوات.. توقف.

حدَّق إلى الماكينة الفارغة.

ماكينته الفارغة.

جون إيثان بيرك

سياتل، واشنطن

تاريخ الإرجاء: 12-9-24

محاولات الدمج: 3

في طور الإنهاء

لم تجعـل قـراءة اسـمه الأمـر يبـدو أكـثر واقعيـة بـأي شـكلٍ مـن الأشـكال.

وقف هناك لا يعرف ماذا يفعل بالمعلومات الماثلة أمامه.

يحاول أن يستجمع ما تعنيه.

لأول مرة فيما بدا دهرًا، لم يهتم حتى بالهرب.

- إيثان!

عرف هذا الصوت، رغم أنه استغرق لحظة كي يربطه بالذاكرة.

بالوجه الذي ينتمي إليه.

- نحتاج إلى الحديث يا إيثان!

نعم، فعلًا.

كان جنكينز، الطبيب النفسي.

بدأ إيثان يمشي.

شعر كأنه كان يفك خيوط لغز منذ أيام، لكنه الآن وصل إلى نهاية الخيط، متسائلًا ماذا سيحدث بالضبط عندما ينتهي كل خيط.

- إيثان، من فضلك!

لم يعد حتى ينظر إلى الأسماء، أو يرى أي الماكينات مشغولة وأيها فارغة.

شيء واحد فقط هو المهم، شك واحد فظيع ينهش أحشاءه.

- لا نريد أن نؤذيك! لا يلمسنه أحد!

كان هذا كل ما يستطيع أن يفعله كي يجعل ساقيه تتحركان بينما يقترب من الماكينة الأخيرة في الصف الأخير في أبعد ركن من القاعة.

كان الرجال يتتبعونه الآن.

كان بمقدوره الشعور بهم قريبين خلفه في الضباب.

لا فرصة للهرب الآن، لكن هل عاد للأمر أهمية فعلًا؟

وصل إلى الماكينة الأخيرة ووضع يده على الزجاج ليتمالك نفسه.

محاطًا بالرمل الأسود كان وجه رجل انضغط وراء النافذة الضيقة في الواجهة.

عينان مفتوحتان.

لا ترمشان.

لا نفس يصنع بخارًا على الزجاج من الداخل.

قرأ إيثان لوحة الاسم وسنة الإرجاء: 2032. استدار عندما برز دكتور جنكينز من الضباب، ذلك الرجل القصير المتواضع، محاطًا بخمسة من هؤلاء الرجال المتسربلين بالسواد المدججين بما يشبه عدة مكافحة الشغب كاملة.

قال جنكينز: "من فضلك لا تجعلنا نؤذيك."

ألقى إيثان نظرة نحو الممر الأخير - لاح هيكلان في الضباب.

لقد حوصر.

قال: "ما هذا؟"

- أفهم أنك تريد أن تعرف.

- حقًّا؟

تفحَّصه الطبيب النفسي لحظة، ثم قال: "تبدو في حالة مريعة يا إيثان."

- إذن كنت ماذا... مجمدًا؟

- كنتَ في حالة إرجاء كيماوي.

- وماذا يعني هذا حتى؟

- لأبسِّط لك الأمر، نحن نستخدم كبريتيد الهيدروجين لتخفيض حرارة الجسم. وما إن تصل درجة الحرارة الأساسية إلى المستويات المحيطة، نضعك في رمل بركاني ونرفع غاز الكبريت إلى تركيزٍ يقتل كل البكتيريا الهوائية. ثم نهاجم البكتيريا اللاهوائية، أي شيء يدعم شيخوخة الخلية في الأساس. يضعك هذا في حالة حياة مرجأة عالية الكفاءة.

- إذن أنت تقول لي إني كنت ميتًا، على الأقل مرة؟

- لا. الميت... بالتعريف... شيء لا يمكن إعادته إلى الحياة. نفضِّل أن نفكر في الأمر على أنه إطفاؤك بطريقة تسمح لنا بتشغيلك من جديدٍ، بإعادة تشغيلك. ضَع في اعتبارك أني أعطيك شرحًا موجزًا لعملية شديدة الدقة والتعقيد، عملية تطلبت عقودًا من الزمن كي تتم.

تقدم جنكينز بحذرٍ لعلَّه كان ليستخدمه كي يقترب من حيوان مسعور. ظل بلطجيته قريبين، يتقدمون ببطء هم أنفسهم، لكنه أشار إليهم كي يتراجعوا، وتوقف على مبعدة قدمين من إيثان، ومدَّ يده ببطء حتى لمست كتف إيثان.

- أتفهم أن هذا كثير على الاستيعاب، لم تغب هذه الحقيقة عني، لستَ مجنونًا يا إيثان.

- أعرف ذلك.. لطالما عرفتُ ذلك، إذن عم يدور كل هذا؟ ماذا يعني؟

- أتود أن أريك؟

- ما رأيك؟

- حسنًا يا إيثان، حسنًا، لكن عليّ أن أحذرك... سأطلب شيئًا في المقابل.

- ماذا؟

لم يُجِب جنكينز، وبدلًا من ذلك، اكتفى بالابتسام ولمس شيئًا إلى جانب إيثان.

سمع إيثان تكة، وأدرك ما هو قادم قبل أن يصيبه بنصف ثانية، مثل القفز في بحيرة متجمدة، كل العضلات تتلوى معًا، ركبتاه تتيبسان، وشعور حارق كأنه صادر من فرن صهر المعادن عند نقطة الاتصال المؤلمة.

ثـم صـار عـلى الأرض، وجسـده بأكملـه يرتـج وركبـة جنكينـز تغـوص في أسـفل ظهـره.

قطعـت لسـعة إبـرة انزلقـت في جانـب عنقـه تأثـيرات الاضطـراب الكهربائي-العضلي، ولا بـد أن جنكينـز حقـن وريـدًا، لأن ألم صدمـة الصاعق الكهربـائي ذاب عـلى الفـور تقريبًـا.

ذاب ألم كل شيء.

جـاءت الدفقـة المبهجـة بسرعـة وقـوة بينـما إيثـان يجاهـد كي يـرى عـلى الرغـم منهـا، كي يبقـى واعيًـا بالخـوف مـما هـو قـادم.

لكن المخدر كان أجمل من أي شيء.

أقوى من أي شيء.

جذبه إلى نعيمٍ بلا ألمٍ.

17

مـرَّت ثانيتـان بالـكاد منـذ خلـت القـارورة العليـا في السـاعة الزجاجية مـن آخـر حبـة رمـل أسـود عندمـا دار قفـل البـاب وانفتـح عـلى مصراعيه.

آصف يقف على العتبة مبتسمًا.

إنهـا المـرة الأولى التـي يـراه فيهـا إيثـان مـن دون لثـام، ويدهشـه أنـه لا يبـدو ذلـك الرجـل القـادر عـلى أن يفعـل بإيثـان تلـك الأشـياء التـي أقسـم إنـه سـيفعلها.

وجهه حليق وليس به إلا شعيرات نامية قليلة.

شـعره أسـود ومتوسـط الطـول ومدهـون بالزيـت وممشـط إلى الخلـف.

يسأله إيثان: "مَن من والديك كان أبيض؟".

يخطـو آصـف داخـل الحجـرة وهـو يقـول: "أمـي كانـت بريطانيـة" يتوقـف عند المكتب ويُطـرق محدقًـا إلى الورقـة. يشـير إليهـا: "أنـا واثـق أنهـا ليســت فارغــة عــلى الجانــب الآخــر". يقلبهــا، يتفحصهــا للحظــة، ويهـز رأسـه بينـما يرفـع عينيـه لإيثـان: "كان مفترضًـا بـك أن تكتـب شـيئًا يسـعدني، ألم تفهـم التعليـمات؟".

- إنجليزيتك جيدة. فهمت.

- إذن ربما لا تصدق أني سأفعل ما قلت.

- لا، أصدقك.

- ماذا إذن؟ لماذا لم تكتب شيئًا؟

- لكني كتبت.

- بالحبر السري؟

يبتسـم إيثـان الآن. يتطلـب الأمـر منـه كل مـا فيـه مـن قـوة كي يقمـع الرعـدة التـي تظـل تهـدد بالسريـان في يديه.

يرفع يسراه.

يقـول: "كتبـتُ هـذا.." عارضًـا الوشـم الـذي حفـره في راحتـه بطـرف القلـم الجـاف: وشـمًا داكـن الزرقـة متسـخ الحـواف، ويـده مـا زالـت تنـزف في بعـض المواضـع. لكـن باعتبـار ضيـق الوقـت والظـروف، كان هـذا أفضـل مـا يمكنـه أن يفعلـه. يقـول: "أعـرف أني سـأصرخ بعـد قليـلٍ. في ألمٍ رهيـبٍ. كل مـرة تسـأل نفسـك فيهـا عـما أفكـر فيـه، حتـى لـو كنـتُ غـير قـادر عـلى الـكلام، يمكنـك فقـط أن تنظـر إلى يـدي وتأخـذ هاتـين الكلمتـين عـلى محمـل الجـد. إنهـا مقولـة أمريكيـة. أثـق أنـك تفهـم معناهـا كامـلًا؟".

يهمـس آصـف: "لا فكـرة لديـك.." ولأول مـرة، يميـز إيثـان عاطفـة غـير مكبوتـة في عينـي الرجـل. رغـم الخـوف، يعطـي لنفسـه الحـق في

الشعور بالرضا لأنه كسر برود هذا الوحش، موقنًا أنها قد تكون لحظة انتصاره الوحيدة في هذه الصفقة الوحشية.

يقول إيثان: "في الحقيقة لديَّ فكرة، ستعذبني، تكسرني، وفي النهاية تقتلني. أعرف تمامًا ما هو آتٍ. لديَّ طلب واحد فقط".

تستثير هذه الجملة ابتسامة ماكرة.

- ماذا؟

- كف عن إخباري كم أنت فحل، يا قطعة الخراء. أخرِج ما في جعبتك وأرِني.

***

طوال اليوم، يُريه آصف ما في جعبته.

***

بعد بضع ساعات، يعود إيثان فجأة إلى الوعي.

يضع آصف زجاجة النشادر على الطاولة بجوار السكاكين.

يسأله الرجل: "مرحبًا بعودتك، هل رأيتَ نفسك؟"

لقد فقد إيثان كل إدراك بالفترة التي قضاها في هذه الحجرة ذات الحوائط البُنية عديمة النوافذ والتي تفوح برائحة الموت والدم الزنخ.

"انظر إلى ساقك" حبات العرق تغطي وجه آصف. "قلت انظر إلى ساقك".

عندما يرفض إيثان، يمد آصف أصابعه داخل إناء فخاري، ويخرجها بحفنة من الملح.

يرميها على ساق إيثان.

يصرخ من خلال الشريط اللاصق على فمه.

عذاب.

إغماء.

***

- هـل تفهـم كـم أملـكك الآن تمامًـا يـا إيثـان؟ كـم سـأمتلكك دائمًا؟ هل تسـمعني؟

كلمات حقيقية أكثر.

***

لقـد وضـع إيثـان نفسـه في عـالم آخـر، محـاولًا أن يتتبّـع خيـط أفـكار يقـوده إلى زوجتـه، إلى ولادتهـا لابنهـما الأول، إليـه وهـو في المستشـفى معهـا، لكـن الألم يسـتمر في سـحبه إلى "الآن" مـن جديـدٍ.

***

يزمجـر آصـف في أذنـه: "يمكننـي أن أنهـي هـذا، يمكننـي أيضًـا أن أبقيـك حيًّـا أيامًـا. كل مـا أشـاء. أعلـم أن هـذا مـؤلم. أعـرف أنـك تعـاني مـن ألم أكـبر مـما كنـت تعـرف حتـى أن في إمـكان شـخص أن يعانيـه. لكـن ضـع في اعتبـارك أني كنـت أعمـل عـلى سـاق واحـدة فقـط، وأنـا ماهـر جـدًّا في ذلـك، لـن أسـمح لـك بـأن تنـزف حتـى المـوت. سـتموت فقـط عندمـا أشـاء".

***

هناك علاقة حميمية لا يمكن إنكارها بينهما.

آصف يقطع.

إيثان يصرخ.

في البداية، لم يرغب إيثان في مشاهدة ما يحدث، لكنه الآن لا يستطيع أن يُشيح بعينيه بعيدًا.

يجبره آصف على شرب الماء ويدس حبات فول فاترة في فمه، وطوال الوقت يتحدث إليه بنبرة شديدة الاعتيادية، كأنه مجرد حلاق زاره إيثان ليهذب له شعره.

***

فيما بعد، يجلس آصف في الركن يشرب الماء ويراقب إيثان، متأملًا صُنع يديه بمزيجٍ من المتعة والفخر.

يمسح جبينه وينهض واقفًا، وطرف دشداشته يقطر من دم إيثان.

- غدًا في الصباح أول ما سأفعله أن أُخصيك وأكوي الجرح بموقد اللحام، وبعد ذلك أنتقل إلى العمل على نصفك العلوي، فكر فيما ترغب في تناوله على الإفطار.

يطفئ النور في طريقه للخروج من الحجرة.

***

طوال الليل، إيثان معلق في الظلام.

ينتظر.

أحيانًا يسمع خطوات تتوقف خارج الباب، لكنه لا ينفتح أبدًا.

الألم هائل لكنه يتمكَّن من التفكير بصفاء في زوجته والطفل الذي لن يعرفه أبدًا.

يهمس لتيريزا من زنزانته، ويتساءل إن كان بمقدورها أن تسمعه.

يئن ويبكي.

يحاول استيعاب فكرة أنه سيواجه نهايته.

حتى بعد سنين، ستكون هذه اللحظة -وهو معلق وحده في الظلام بلا شيء غير الألم وأفكاره وانتظار الغد- هي ما سيطارده كشبحٍ.

دائمًا ينتظر عودة آصف.

دائمًا يتساءل كيف سيكون شكل ابنه أو ابنته.

ماذا سيكون اسمه أو اسمها.

دائمًا يتساءل كيف ستكمل تيريزا الحياة من دونه.

ستقول له حتى بعد أربعة شهور، وهما جالسان إلى مائدة الإفطار في مطبخهما في سياتل بينما يسقط المطر: "كأنك لم تعد إليَّ قط يا إيثان".

وسيقول: "أعرف.." بينما يتعالى بكاء ابنه من جهاز مراقبة الرضيع، مفكرًا: آصف لم يقتطع مني أجزاء جسدية فقط.

***

وبعد ذلك ينفتح الباب، وتتدفق نصال حادة من الضوء إلى داخل الحجرة، لتعيد إيثان إلى الوعي، لتعيده إلى الألم.

عندما تتأقلم عيناه مع هجمة نور النهار، لن يكون هيكل آصف الخارجي ما سيراه، بل إطار ضخم لجندي قوات خاصة أمريكي في

كامل عتاده يحمل بندقية إم4- بها منظار قتالي متقدم وما زالت ماسورتها تنفث خيوطًا من الدخان.

يسلط ضوءًا على إيثان، ويقول بلكنة ثقيلة من غرب تكساس: "يا يسوع!".

***

تعتقد تيريزا أن جروح الساق من أثر تحطُّم الطائرة.

***

جندي القوات الخاصة برتبة رقيب، اسمه العائلي بروكس، ويحمل إيثان على ظهره صاعدًا مجموعة ضيقة من السلالم، خارجًا من زنزانة القبو إلى مطبخ تحترق فيه قطع لحم في مقلاة.

إفطار تعرض للمقاطعة.

ثلاثة رجال عرب يرقدون ميتين في الردهة، وخمسة أفراد من فريق العمليات الخاصة يحتلون المطبخ الضيق، أحدهم راكع بجوار آصف، يربط قطعة قماش حول ساقه اليسرى أعلى الركبة، حيث ينزف من جرح رصاصة.

يُنزل بروكس حِمله على مقعدٍ ويزعق في فرد مجموعته الطبي: "ابتعد عنه" ويحدق إلى آصف الملقى أرضًا، "من الذي قام بتقطيع هذا الجندي؟".

يجيب آصف على السؤال بشيء ما بالعربية.

- لا أفهم أي شيء من الخراء الذي قلته.

- إنه هو..

يقولها إيثان.

- هو من فعل بي هذا.

للحظة، لا شيء في المطبخ إلا رائحة اللحم المحترق وأثر البارود من تبادل إطلاق النار.

يقول بروكس لإيثان: "ستأخذنا الطائرة بعد دقيقتين. لم يبق إلا هذا الحقير ولا أحد في هذه الحجرة سينطق بحرفٍ عما ستفعله".

يقول جندي واقف إلى جوار الموقد يمسك بندقية قناص: "نعم، اللعنة!".

يسأله إيثان: "هل يمكنك أن تساعدني على الوقوف؟".

يرفعه بروكس من مقعده، وإيثان يئن بينما يجر قدميه عبر المطبخ نحو آصف.

عندما يقفان فوقه، يُخرج جندي القوات الخاصة مسدسًا نصف آلي من جرابه.

يتناوله إيثان من يده، ويشد أجزاءه.

سيخطر على باله بعد شهور من الآن أنه لو كان هذا فيلمًا، لم يكن ليفعلها. لم يكن ليغوص إلى مستوى هذا الوحش، لكن الحقيقة البشعة أنه لا يمر أبدًا ببال إيثان حتى ألا يفعلها. ورغم أنه سيحلم دومًا بحادث التحطم، وبكل الأشياء التي فعلها به آصف، فإن هذه اللحظة لن تطارده أبدًا. سيتمنى فقط لو أمكن أن تدوم لوقت أطول.

إيثان عارٍ، واقف فقط بمساندة بروكس، وساقاه تشبهان ما يُعلَّق في محلات الجزارة.

يأمر آصف بالنظر إليه.

من بعيدٍ، يمكنه سماع صوت اقتراب مروحة البلاك هوك المميز.

فيما عدا ذلك، الجو هادئ كأن قداسًا يقام في الشارع.

تلتقي نظرات الجلاد والضحية لثانية طويلة.

يقول آصف: "ما زلت مِلكي، وأنت تعرف".

وعندما يبتسم، يطلق إيثان النار على وجهه.

***

في المـرة التاليـة التـي يعـود فيهـا إلى الوعـي، يجـد نفسـه مائـلًا عـلى نافـذة البـلاك هـوك، محدقًـا مـن ارتفـاع ثلاثمئـة قـدم إلى شـوارع الفالوجـة، والمورفـين يـسري في أوردتـه وصـوت بروكـس يـصرخ في أذنـه بأنـه في أمـان، وأنـه عائـد إلى الوطـن، وأن زوجتـه منـذ يومـين ولـدت طفـلا صبيًّـا وافـر الصحـة.

18

فتح إيثان عينيه.

مالت رأسه على نافذة وهو يحدق تحته إلى تضاريس جبلية تتوالى بسرعة مائة وخمسين ميلًا في الساعة. يحلّق، كما خمّن، على ارتفاع ألفين وخمسمئة قدم فوق سطح الأرض. كان قد عمل لستة أشهر في قيادة طائرة إسعاف جوي بعد عودته من العراق وقبل تقدُّمه للعمل في جهاز الخدمة السرية، ولم يميز فقط صوت محركات لايكومينج وهي تهدر أعلى رأسه بل تعرَّف على أبعاد هيكل المروحية BK117. لقد قاد هذا الموديل مع خدمة (فلايت فور لايف).

رفع رأسه من فوق الزجاج، وتحرك ليحك جانب أنفه، لكنه وجد يديه مكبَّلتين خلف ظهره.

كانت كابينة الركاب مرتبة في نسقٍ عادي: أربعة مقاعد مقسمة بين صفين متواجهين، ومساحة شحن في مؤخرة جسد الطائرة، مخبَّأة خلف ستارٍ.

جلس جنكينز والمأمور بوب على الجانب الآخر، وأحسَّ إيثان بالرضا عندما رأى أنف رجل القانون ما زال محاطًا بالضمادات.

إلى جانبه جلست الممرضة بام -وقد استبدلت زي الممرضات الكلاسيكي ببنطال عسكري أسود، وتيشيرت أسود طويل الكمين، وسترة مموهة، وبندقية تكتيكية طراز هكلر آند كوخ. انحنى خط غرز هلالي من جزء حليق في جمجمتها مارًّا بصدغها ومنتهيًا في منتصف وجنتها. كانت بيفرلي مسؤولة عن ذلك، وأحسَّ إيثان برفة غضب عارم تجتاحه مع ذكرى ما حدث لهذه المرأة المسكينة.

طقطق صوت جنكينز عبر السماعة: "كيف حالك يا إيثان؟".

رغم أنه كان يشعر بدوار من أثر الأدوية، فإن رأسه بدأت تصفو بالفعل.

لكنه لم يُجِب.

حدَّق أمامه فقط.

- آسف على الصعقة بالأمس، لكن لم يكن بمقدورنا القيام بأي مخاطرة. لقد أثبتَ أنك أكثر من قادر على التعامل بنفسك، ولم أرغب في المخاطرة بأي فقدٍ آخر للحياة، حياتك أو حياة رجالي.

- فقد حياة، هه؟ ذلك ما يقلقك للغاية الآن؟

- سمحنا لأنفسنا أيضًا بأن نرويك من جديد ونرطب جسدك، بمنحك بعض الغذاء، والملابس الجديدة. تولينا أمر إصاباتك. يجب أن أقول... تبدو أفضل بكثيرٍ.

ألقى إيثان نظرة خارج النافذة - غابات صنوبر بلا نهاية تتدفق عبر الوديان وفوق التلال التي تعلو أحيانًا فوق حد الغابات لتغدو جروفًا صخرية خالصة.

تساءل إيثان: "إلى أين ستأخذوني؟".

- أنا أفي بكلمتي.

- لمن؟

- لك.. أريك ما وراء كل هذا.

- لا أفهم..

- ستفهم، كم ما زال أمامنا يا روجر؟

أجابه الطيار في السماعة: "سنكون على الأرض خلال خمس عشرة دقيقة".

***

كان امتدادًا مذهلًا من أرض ريفية مقطوعة.

لا طرق، ولا منازل على مدى بصر إيثان.

مجرد تلال مكسوة بالغابات وتعرجات عابرة من المياه بين الأشجار - لمحات من مجرى ونهر.

بعد قليلٍ انحسرت غابة الصنوبر خلفهم وصار بمقدور إيثان أن يجزم من تغيُّر درجة صوت المحرك المزدوج بأن الطيار بدأ الهبوط.

***

طاروا فوق سفوح تلال بُنية قاحلة، انبسطت هابطة على مدى عشرة أميال إلى غابة صنوبريات صلبة فسيحة.

عنـد ارتفـاع مائتـي قـدم أعـلى سـطح الأرض، مالـت المروحيـة جانبًـا ودارت حـول نفـس الربـع ميـل المربـع مـن الأرض لعـدة دقائـق بينـما بـوب يتفحـص المنطقـة عـبر منظـارٍ مقـرِّب.

أخيرًا تحدث في ميكروفونه: "نحن في أمان".

***

هبطـوا في مسـاحة خـلاء كبـيرة محاطـة بأشـجار بلـوط شـاهقة في ألوانهـا الخريفيـة الخالصـة، ومـراوح الطائـرة تحـرِّك العشـب في أمـواج طويلـة امتـدت مـن المروحيـة في دوائـر متحـدة المركـز.

نظر إيثان عبر الحقل بينما المحركات تهدأ.

قال جنكينز: "هل تنضم إليّ في تمشية قصيرة يا إيثان؟"

مالت بام إليه، وفكت الحزام من حول حجره وظهره.

تساءلت: "والأصفاد أيضًا؟"

نظر جنكينز إلى إيثان: "هل ستحسن التصرف؟"

- طبعًا.

مال إيثان إلى الأمام حتى تتمكَّن بام من الوصول إلى ثقب المفتاح.

طقطقت الأصفاد وانفتحت.

تمطى بذراعيه ودلَّك معصميه.

نظـر جنكينـز إلى بـوب، وفتـح يـده قائـلًا: "هـل جلبـت لي شـيئًا كـما طلبـت؟"

دسَّ المأمـور في يـده مسدسًـا مـن فـولاذ مقـاوم للصـدأ بـدا سـمينًا بمـا يكفـي لحشـوه بطلقـات ماجنـوم عيـار .357.

بدا جنكينز متشككًا.

قال بوب: "لقد رأيتك تطلق النار، ستكون بخيرٍ، أي مكان قرب القلب، أو الأفضل طلقة في الرأس، وستكون في التمام".

مدَّ بوب يده خلف مقعده وأخرج مدفع كلاشنكوف مجهزًا بخزانة أسطوانية تحمل مائة لفة. راقبه إيثان وهو يبدِّل الوضع من الأمان إلى إطلاق ثلاث لفات.

خلع جنكينز سماعته. ثم أزاح الستارة الفاصلة بين كابينة الركاب ومقصورة الطيار، وقال للطيار: "سنكون على القناة الرابعة، وستسمعنا إذا احتجنا إلى المغادرة في عجلة"

- سأبقي إصبعي على زر تشغيل المحرك.
- أبلغنا باللاسلكي عند أول علامة خطر.
- تمام يا أفندم.
- هل ترك لك آرني بندقية؟
- اثنتين في الحقيقة.
- لن نتأخر.

فتح جنكينز باب الكابينة وخرج.

بعد بوب وبام نزل إيثان ليخطو على زلاقة الطائرة ومنها إلى عشب ناعم في ارتفاع الخصر. لحق بجنكينز، وتحرك أربعتهم بسرعة عبر الحقل، بوب في المقدمة مع مدفعه الرشاش وبام تحمي المؤخرة.

مضى جزء كبير من النهار وكانوا في أصيل ذهبي منعش.

بدا الجميع قلقين ومتوترين، كأنهم خرجوا في دورية حراسة.

قـال إيثـان: "منـذ جئـت إلى وايـوارد باينـز، لم تفعلـوا شـيئًا إلا العبـث بي، مـاذا نفعـل هنـا في هـذه البريـة اللعينـة؟ أريـد أن أعـرف الآن فـورًا".

دخلــوا الغابــة، وهــم يشــقون طريقهــم بصعوبــة عــبر شــجيرات متشــابكة في فــوضى.

علت ضجة الطيور أكثر.

- لكن يا إيثان، هذه ليست البرية.

لمـح إيثـان شـيئًا يـكاد يختفـي عـن العيـان عـبر الأشـجار، وأدرك أنـه فاتـه في البدايـة بسـبب كل هـذه النباتـات. أسرع في خطـوه، وهـو يشـق طريقـه الآن عـبر الشـجيرات والشـتلات التـي شـكَّلت الطبقـة السـفلى مـن الغابـة، وجنكينـز يسـير وراءه عـن قـرب.

عندما وصل إيثان إلى قاعدة الشيء، توقف وتطلع إليه.

للحظـة، لم يفهـم مـا كان يحـدق إليـه بالضبـط. في الأسـفل كانـت العـوارض ملفوفـة في عـدة أقـدام مـن التعريشـات الميتـة والحيـة، واللونـان البنـي والأخـضر يموِّهـان شـكل البنـاء، ليمزجـاه عـلى نحـوٍ مثـالي بلـون الغابـة إلى درجـة أنـك لـو نظـرت إليـه نظـرة جانبيـة، سـيختفي.

في الأعـلى تبـدت العـوارض الفولاذيـة وقـد بلـغ الصـدأ فيهـا درجـة عميقـة جعلتهـا تقـارب اللـون الأحمـر. مئـات السـنين مـن التأكسـد. نمـت ثـلاث شـجرات بلـوط في قلبهـا، التفَّـت وتلـوَّت في صعودهـا حتـى إن بعـض الغصـون وفـرَّت دعامـات للعـوارض الخشـبية. فقـط إطـار الطوابـق السـتة السـفلى هـو مـا زال واقفًـا - كأنـه هيـكل عظمـي متـآكل لمبنـى. حفنـة مـن العـوارض قـرب القمـة انحنـت وتجعـدت مثـل خصـلات شـعر كسـتنائي، لكـن أغلـب الفـولاذ كان قـد تداعـى داخـل المركـز لتبتلعـه أرض الغابـة.

كان صـوت الطيـور القـادم مـن الأطـلال هائـلًا كأنـه مبنـى متعـدد الطوابـق خـاص بالطيـور، وأينـما نظـر إيثـان وجـد أعشاشًـا.

سـأله جنكينـز: "هـل تذكـر عندمـا قلـتَ لي إنـك تريـد أن تُحـوَّل إلى مستشـفى في بويـسي؟"

- نعم.

- حسنًا، لقد أتيت بك إلى بويسي.. إلى قلب المدينة مباشرةً.

- عم تتحدث؟

- أنـت تتطلـع إلى مبنـى يـو إس بنـك. أطـول ناطحـة سـحاب في آيداهـو. هنـا يقـع المكتـب الميـداني لجهـاز الخدمـة السريـة في بويـسي، أليـس كذلـك؟ أعـلى في الطابـق السـابع عـشر؟

- لقد فقدتَ عقلك!

- أعـرف أن هـذه تبـدو كأرضيـة غابـة، لكننـا في الحقيقـة واقفـون في منتصـف جـسر كابيتـول بوليفـارد. مبنـى حُكـم الولايـة هـو الثالـث بعـد ميـل عـبر هـذه الأشـجار، رغـم أنـك كي تجـد أثـرًا لـه عليـك أن تحفـر.

- ما هذا؟ نوع من الخداع؟

- قلت لك.

جـذب إيثـان الرجـل مـن ياقتـه وسـحبه قريبًـا منـه: "قـل كلامًـا لـه معنـى الآن".

- لقد وُضعت في حالة حياة مرجأة. رأيتَ الوحدات...

- لكم من الوقت؟

- إيثان...

- لكم.. من الوقت؟

صمت جنكينز هنيهة، وأدرك إيثان أن هناك شيئًا بداخله يكاد لا يرغب في سماع الإجابة.

- ألف وثمانمئة وأربع عشرة سنة...

أفلت إيثان قميص جنكينز.

- ... وخمسة شهور...

تراجع مترنحًا.

- ... وأحد عشر يومًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

نظر إلى الأطلال.

نظر إلى السماء.

قال جنكينز: "ينبغي لك أن تستريح قليلًا، فلنجلس" عندما تداعى إيثان على بساط من نباتات السرخس، تطلّع جنكينز إلى بوب وبام، وقال: "فلتعطونا دقيقة يا شباب، ممكن؟ لكن لا تذهبا بعيدًا".

سارا مبتعدين.

جلس جنكينز في مواجهة إيثان.

قال: "عقلك يسابق أفكاره، هلا حاولت ألا تفكر لمدة دقيقة وأنصتَ فقط إليّ؟"

لقد أمطرت هنا قبل قليل - كان بمقدور إيثان أن يحس برطوبة الأرض عبر البنطال البُني المموه الذي ألبسوه إياه.

قال جنكينز: "دعني أسألك سؤالًا: عندما تفكر في أعظم اكتشاف رائد في التاريخ، ماذا يخطر ببالك؟".

هزَّ إيثان كتفيه.

- هيا، سايرني.
- السفر إلى الفضاء، نظرية النسبية، لا...
- لا، أعظم اكتشاف في تاريخ البشرية هو معرفة كيف سينقرض الإنسان.
- كنوعٍ؟
- بالضبط. في عام 1971، قام عالِم وراثة شاب اسمه ديفيد بيلتشر باكتشاف مذهل. وضع في اعتبارك أن هذا كان قبل تضفير الرنا[1]، قبل تعددية أشكال الدنا[2]. أدرك أن الجينوم البشري -الذي يشكِّل في الأساس مجمل معلوماتنا الوراثية والذي يبرمج نمو الخلية- يتعرض للفساد.
- ممَّ؟

"مم؟" ويضحك جنكينز. "من كل شيء، مما فعلناه بالأرض فعلًا، ومن كل ما سنفعله في القرون القادمة. انقراض الثدييات. إزالة الغابات. فقْد جليد البحر القطبي. الأوزون. تزايد معدلات ثاني أكسيد الكربون في الجو. الأمطار الحمضية. المناطق الميتة في المحيطات. الصيد الجائر. التنقيب عن النفط في البحر. الحروب. صُنع مليار سيارة تحرق البنزين. الكوارث النووية: فوكوشيما، ثري مايل آيلاند، تشيرنوبل. ما يزيد على ألفي تفجير متعمد لقنابل نووية باسم اختبار الأسلحة. إلقاء النفايات السامة. حادثة تسرب النفط من الناقلة العملاقة

(1) الحمض النووي الريبوزي ويُسمى اختصارًا (رنا RNA)، هو جزيء حيوي يتواجد تقريبًا لدى كل الكائنات الحية والفيروسات، كما يلعب أدوارًا متعددة في نقل وتشفير وفك تشفير وتنظيم التعبير عن المعلومات الوراثية وتحفيز العديد من التفاعلات الكيميائية. (المترجم)

(2) الحمض النووي الصبغي واختصارًا (دنا: DNA) هو جزيء ضخم يتواجد داخل خلايا كل الكائنات الحية والعديد من الفيروسات ويحتوي على المعلومات الوراثية التي تسمح بعمل وتكاثر وتطور هذه الكائنات. (المترجم)

إكسون-فالديز. التسرب النفطي لمنصات شركة بريتيش بتروليوم في خليج المكسيك. كل السموم التي نضعها في طعامنا وشرابنا كل يوم.

منذ الثورة الصناعية تعاملنا مع عالمنا كأنه غرفة فندقية ونحن نجوم روك. لكننا لسنا نجوم روك. في مخطط قوى التطور والارتقاء، نحن نوع ضعيف وهشٌّ. شريطنا الوراثي قابل للفساد، وقد أسأنا معاملة هذا الكوكب بشدة إلى درجة أننا أفسدنا في النهاية تلك البصمة الثمينة الخاصة بالدنا والتي تجعلنا بشرًا.

لكن هذا الرجل، بيلتشر - رأى ما هو آتٍ. ربما لم يره بشكلٍ مفصَّلٍ، لكن في خطوطه العامة. رأى بيلتشر أنه مع توالي الأجيال وبسبب التغيرات البيئية الجوهرية التي أحدثناها وصار علينا تحمُّلها، ثمة إمكانية للتطور الطفروي. لصياغة المسألة في مصطلحات يمكنك فهمها: تغير سريع على نطاق كبير. ماذا أقول؟ من بشر إلى شيء آخر خلال ثلاثين جيلًا. ولصياغة المسألة بمفردات تنتمي إلى الكتاب المقدس: آمن بيلتشر أن الطوفان قادم، لذا قرر أن يصنع فُلكًا. هل تتابعني؟

- إطلاقًا.

"اعتقد بيلتشر أنه لو تمكَّن من حفظ عدد من البشر الأنقياء قبل أن يصل الفساد إلى الكتلة الحرجة، سيمكنهم فعليًّا البقاء خارج التغيرات التطورية التي ستؤدي إلى تدمير الحضارة البشرية ونوعنا. لكن لتحقيق هذا، سيتطلب الأمر تكنولوجيا إرجاء حيوية قوية.

أنشأ مختبراً وألقى بما لديه من مليارات في البحث والتطوير. أسسه قبل عام 1979 وبدأ العمل على صناعة ألف وحدة إرجاء. في نفس الوقت، كان بيلتشر يبحث عن بلدة صغيرة تؤوي حمولته، وعندما عثر على وايوارد باينز عرف أنها مثالية. معزولة. أرض يمكن الدفاع عنها. مطوقة بهذه الأسوار الجبلية. من الصعب الوصول إليها.

مـن الصعـب مغادرتهـا. اشـترى كل الأراضي والعقـارات السـكنية والتجاريـة وبـدأ بنـاء مجمـع حصـين في عمـق الجبـال المحيطـة. كان مشروعًـا ضخـمًا. اسـتغرق اثنتـين وعشريـن سـنة ليكتمـل".

سـأله إيثـان: "كيـف بقيـت الإمـدادات كل هـذا الوقـت؟ لا يمكـن أن يكـون الخشـب والطعـام قـد بقـوا قرابـة ألفـي عـام".

- إلى أن أعيـد إحيـاء طاقـم العمـل، كانـت مغـارة المسـتودع والمهاجـع ومركـز المراقبـة -حرفيًـا كل بوصـة مربعـة مـن ذلـك المجمـع- موجوديـن في الفـراغ. لم يكـن الأمـر مثاليًـا، وفقدنـا بعـض المـواد، لكـن بقـي مـا يكفـي لإعـادة بنـاء البنيـة التحتيـة لوايـوارد باينـز، التـي كان الزمـن وعنـاصر الطبيعـة قـد محوهـا تمامًـا. لكـن منظومـة الكهـف التـي اسـتخدمناها احتـوت الحـد الأدنى مـن محتـوى الرطوبـة في الهـواء، وبمـا أننـا تمكّنّـا مـن قتـل تسـعة وتسـعين وتسـعة مـن عـشرة في المائـة مـن كل البكتيريـا، تبـيَّن كفـاءة الأمـر التـي ماثلـت تقريبًـا كفـاءة الإرجـاء ذاتـه.

- إذن حققت البلدة الاكتفاء الذاتي تمامًا؟

- نعـم، هـي تعمـل مثـل قريـة لطائفـة الأميـش[1] أو مجتمـع مـا قبـل صناعـي. وكـما رأيـت، لدينـا مخـازن ضخمـة مـن المـواد الغذائيـة التـي نعبئهـا ونشـحنها إلى البلـدة.

- رأيت أبقارًا. هل أنشأتم غرف إرجاء للماشية أيضًا؟

- لا، وضعنـا فقـط بعـض الأجنـة في حالـة ركـود، ثـم اسـتخدمنا أرحامًـا صناعيـة.

---

(1) طائفـة مسـيحيّة تجديديَّـة العـماد تابعـة للكنيسـة المنيونيّـة. نشـأت في العصـور الوسـطى ويؤمـن أفرادهـا بالانعـزال عـن العـالم الخارجـي وعـن أي محـاولات لدمجهـم أو خلطهـم بمجتمعات وتعاليـم أخـرى. (المترجـم)

- لم يكن هناك شيء كهذا في عام 2012.

- لكن كان هناك في عام 2030.

- وأين بيلتشر الآن؟

ابتسم جنكينز ابتسامة عريضة.

قال إيثان: أنت؟

- عندما اختفى زميلاك، كيت هيوسون وبيل إيفانز، في وايوارد باينز؛ كانا يحاولان العثور عليّ. وقعت بعض معاملاتي التجارية على رادار جهاز الخدمة السرية. لهذا تجلس هنا الآن.

- اختطفتَ عملاء فيدراليين؟ وحبستهم؟

- نعم.

- وآخرين كثيرين...

- بعيدًا عن طاقم عملي الذين اخترتهم بعناية وعوضتهم بسخاء، لم أعتقد أني سأجد الكثير من المتطوعين لمسعى من هذا القبيل.

- لذا اختطفتَ من أتوا إلى وايوارد باينز.

- أتى بعضهم إلى البلدة وأخذتهم هناك. وآخرون سعيت وراءهم.

- كم عددهم؟

- ستمئة وخمسون جرى تجنيدهم بشكل إلزامي طوال خمسين عامًا.

- أنت مريض نفسي.

بدا أن بيلتشر يتأمَّل الاتهام، حيث احتدَّت عيناه السوداوان وغرقتا في التفكير. كانت أول مرة ينظر فيها إيثان مدققًا بالفعل في

وجـه الرجـل، وأدرك أن الـرأس الحليـق والبـشرة الجيـدة يخفيـان سـن بيلتـشر الحقيقـي. لا بـد أن الرجـل كان في أوائـل سـتينياته، وربمـا أكبر. كان إيثـان حتـى هـذه اللحظـة قـد أسـقط مـن حسـابه طريقـة كلام الرجـل المحكومـة والدقيقـة تمامًـا باعتبارهـا أداة للتلاعـب، خدعـة للتحايـل، لكنـه الآن رآهـا عـلى حقيقتهـا: دليـل واضـح عـلى ذكاء هائـل، أدهشـه أنـه جالـس هنـا تحـت خيمـة مـن أشـجار البلـوط مـع أحـدٍ ذهـن قابلـه في حياتـه، ثمـة شيء مثـير ومخيـف معًـا في ذلـك.

أخيرًا قال بيلتشر: "لا أرى المسألة بهذه الطريقة."

- لا؟ إذن كيف؟

- أقرب إلى... منقذ نوعنا.

- أنت سرقتَ أشخاصًا من عائلاتهم.

- ما زلتَ لم تفهم الأمر، أليس كذلك؟

- أفهم ماذا؟

- ماهيـة وايـوارد باينـز. يـا إيثـان... إنهـا البلـدة الأخـيرة عـلى الأرض. كبسـولة زمنيـة حيـة لطريقتنـا في الحيـاة، للحلـم الأمريـكي. السـكان، طاقـم العمـل، أنـا وأنـت... نحـن كل مـا تبقـى مـن جنـس الإنسـان العاقـل.

- وكيف تعرف هذا؟

- لقـد أرسـلتُ فرقًـا اسـتطلاعية طـوال السـنين. مـن عـاد منهـم أخبرنـا بأبشـع ظـروف يمكـن تخيلهـا. دون الحمايـة والبنيـة التحتيـة لمـكان مثـل وايـوارد بيانـز، لم يكـن يمكـن لأحـد أن ينجـو. منـذ أن خـرج طاقـم عمـلي مـن الإرجـاء قبـل أربعـة عـشر عامًـا، أقمنـا محطـة لاسـلكي تبـثُّ باسـتمرارٍ نـداء اسـتغاثة عـلى كل تردد طـوارئ معـروف. بـل إني اتخـذت قـرارًا ببـثِّ إحداثيـات وايـوارد

باينز على احتمال بعيد بأن يوجد بشر آخرون في مكان ما. لم يظهر أحد عند بابنا، لم يقم أحد بأي اتصال. قلت إن هذه بويسي، لكنها ليست كذلك. لا توجد بويسي، ولا آيداهو، ولا أمريكا. لم تعد الأسماء تعني شيئًا.

- وكيف انتهى كل هذا؟

- لن نعرف أبدًا، وكيف لنا أن نعرف؟ ذهبت إلى النوم بعدك بقليلٍ لذا ما زال في إمكاني البقاء في وايوارد باينز خمسة وعشرين عامًا بعد الإرجاء. وبعد عام 2032، كنا كلنا نيامًا في الجبل. لكن ماذا لو كان عليَّ أن أخمِّن؟ قبل عام 2300، قدَّرت أننا سنرى وقوع اضطرابات كبرى. ومع كون التنوع هو المادة الخام للتطور، قبيل 2500 قد يمكن تصنيفنا كنوعٍ مختلفٍ تمامًا. كل جيل يقترب أكثر وأكثر من أن يكون شيئًا يمكن أن يبقى في هذا العالم السام، شيئًا أقل بشرية باستمرارٍ.

- يمكنك تخيل التداعيات الاجتماعية والاقتصادية، حضارة كاملة بُنيت من أجل البشرية تنهار. أظن أن إبادات جماعية حدثت. ربما جاءت النهاية على مدار أربعين سنة رهيبة، ربما استغرقت ألف سنة، ربما حرب نووية شاملة أبادت مليارات في غضون شهر. أنا واثق أن كثيرين اعتقدوا أنه وقت النهاية، لكننا لم نعرف هذه المعلومة أبدًا، كل ما نعرفه هو الموجود حاليًّا.

- وما هو ذلك؟

- المنحرفون، تلك المخلوقات ذات الجلد الشفاف التي كادت تقتلك في الوادي الضيق. منذ خرجتُ من حالة الإرجاء، تحركت بالمروحية ثلاث مرات فقط، من ضمنها اليوم، ثمة مخاطرة كبيرة في الأمر. أبعد ما وصلنا إليه كان سياتل، أو

حيـث كانـت سـياتل. كان علينـا أن ننقـل وقـودًا؛ عدنـا بصعوبـة. اسـتنتاجًا مـما رأيـت لا بـد أن هنـاك مئـات الملايـين مـن تلـك المخلوقـات في هـذه القـارة وحدهـا. هـم مفترسـون بالطبـع، وإذا كانـت تجمعاتهـم عـلى نفـس القـدر مـن الصحـة التـي أراهـا، فهـذا يشـير إلى تزايـدٍ في أعـداد الغـزلان أو أي تجمعـات لحيوانـات مُجـترَّة أخـرى. ربمـا حتـى تكـون سـلالة مـا مـن ثـيران البيسـون تجـوب الوديـان مـن جديـدٍ بأعـدادٍ كبـيرة.

ولأننـا لا نسـتطيع مغـادرة الـوادي لإجـراء الأبحـاث، لدينـا فقـط عينـة صغـيرة لنقيـس منهـا أي الأنـواع نجـت في الألفـي سـنة الماضيـة دون أن يمسسـها أذى. يبـدو أن الطيـور مـرَّت مـن الأزمـة دون تأثُّـرٍ، وبعـض الحـشرات. لكنـك عندئـذٍ سـتدرك أن شـيئًا مـا مفقـود. مثـلًا، لا توجـد صراصـير ليـل، ولا خنافـس مضيئـة، وطـوال أربعـة عـشر عامًـا لم أرَ نحلـة واحـدة.

- ماذا يكون هؤلاء المنحرفون؟

- مـن السـهل التفكـير فيهـم باعتبارهـم مسـوخًا أو مخلوقات شـاذة، لكـن الاسـم الـذي منحنـاه لهـم خطـأ في التسـمية حقًّـا. الطبيعـة لا تـرى الأشـياء عـبر عدسـة الخـير أو الـشر. إنهـا تكافـئ الكفـاءة. هـذه هـي البسـاطة الجميلـة للتطـور. فهـو يلائـم التصميـم مـع البيئـة. في أثنـاء تحطيـم عالمنـا، تسـبَّبنا في تحوُّلنـا غصبًـا إلى نـوعٍ منحـدرٍ مـن الإنسـان العاقـل، نـوعٍ تكيَّـف عـبر الانتقـاء الطبيعـي كي ينجـو مـن دمـار الحضـارة البشريـة. ضـع تسلسـلات حمضنـا النـووي جنبًـا إلى جنـب، وسـتجد سـبعة مليـون حـرف مختلـف فقـط؛ هـذا يشـكِّل نحـو نصـف في المائـة.

- يا إلهي!

- من منظور لوجستي، يشكِّل المنحرفون مشكلة هائلة. هم أذكى بكثيرٍ من القردة العليا وأكثر عدوانية بكثيرٍ. لقد أسرنا حفنة منهم على مدى السنوات الماضية، درسناهم، حاولنا أن نقيم تواصلًا، لكن فشل كل هذا. سرعتهم وقوتهم أكثر انسجامًا مع الإنسان البدائي العادي. بوزن ستين رطلًا يكونون قاتلين، وبعضهم ينمو إلى مائتي رطلٍ، كنتَ محظوظًا كي تنجو.

- لهذا بنيتم أسوارًا حول وايوارد باينز.

- من المقلق أن تدرك أننا لم نعُد على قمة سلسلة الغذاء. من وقتٍ إلى آخر سيعبر منحرف، لكننا نبقي أطراف البلدة في حراسة مجسَّات الحركة والوادي بأكمله تحت رقابة القناصين، ليلًا ونهارًا.

- إذن لماذا فقط لم...

- نقتنصك؟ (وابتسم جنكينز) في البداية أردت أن يفعل الناس هذا. وما إن وصلتَ الوادي الضيق، عرفنا أن جماعة من المنحرفين في المنطقة، كنتَ أعزل؛ لماذا نهدر الذخيرة؟

- لكن السكان... لا يعرفون شيئًا من هذا؟

- لا.

- ماذا يعتقدون؟

- استيقظوا هنا بعد حادثٍ كما حدث معك تمامًا، مصابون من جديدٍ بالطبع في الأماكن المناسبة. من خلال برنامجنا للدمج، يفهمون أنه لا سبيل للمغادرة. ولدينا قواعد وعواقب لتقليل التعقيدات التي تنشأ عندما يعيش شخص من عام 1984 مع شخص من عام 2015. لكي يعيش السكان في ازدهار ويتناسلوا،

لا يمكـن لهـم أن يعرفـوا أنهـم كل مـا بقـي، عليهـم أن يعيشـوا كأن العـالم مـا زال موجـودًا.

- لكنـه ليـس كذلـك، إذن مـا جـدوى الكـذب؟ عندمـا تُخرجهـم مـن حالـة الإرجـاء، لمـاذا لا تقـل لهـم فقـط: مـبروك! أنتـم الناجـون الوحيـدون!

- فعلنـا ذلـك الـشيء بالضبـط مـع المجموعـة الأولى. كنَّـا قـد انتهينـا للتـوِّ مـن بنـاء البلـدة، وجمعنـا كل النـاس في الكنيسـة وقلنـا: اسـمعوا، تلـك هـي الحكايـة! وحكينـا لهـم كل شيء.

- وبعد ذلك؟

- خـلال عامـين، انتحـر خمسـة وثلاثـون في المائـة، وغـادر عـشرون في المائـة آخـرون البلـدة ونُحـروا، لم يتـزوج أحـد، لم تحبـل امـرأة. فقـدتُ ثلاثـة وتسـعين شـخصًا يـا إيثـان. لا أسـتطيع -لا- البشريـة لا تسـتطيع أن تتحمَّـل خسـائر بهـذا الحجـم. ليـس وجنسـنا في هـذا الخطـر، حتـى وصـل إلى آخـر ثمانمئـة وأحـد عـشر نفسًـا منَّـا. لا أقـول إن وسـيلتنا مثاليـة، لكـن طـوال هـذه السـنين وبعـد تجريـب كل شيء تقريبًـا، أثبتـت أنهـا أكفـأ نظـام وجدنـاه لزيـادة تعدادنـا.

- لكنهـم يتسـاءلون دائمًـا، صحيـح؟ عـمَّ يوجـد هنـا بالخـارج؟ عـن أيـن هـم فعـلًا؟

- بعضهـم يفعـل، لكننـا جنـسٌ متكيِّـف. مـن خـلال التكيُّـف، مثـل البـشر الصالحـين، يصـل أغلبهـم إلى قبـول بيئتهـم، مـا دام أنهـا ليسـت خاليـة تمامًـا مـن الأمـل.

- لا أصـدق أنهـم يقبلـون بـأن العـالم مـا زال موجـودًا، بينـما لا تسـمح لهـم برؤيتـه.

- أتؤمن بالله يا إيثان؟

- لا.

- كثيرون فعلوا ذلك، تبنوا قوانين أخلاقية. أنشؤوا أديانًا. قتلوا باسم آلهة لم يروها قط ولم يسمعوها. أتؤمن بالكون؟

- طبعًا.

- أوه، إذن فقد سافرت إلى الفضاء، رأيتَ تلك المجرات النائية رأي العين؟

- عندك حق.

- وايوارد باينز مجرد عالم مصغَّر. بلدة صغيرة لم يبرحها أهلها قط. ما زال الخوف والإيمان بالمجهول يفلحان، فقط على نطاقٍ أصغر. حدود العالم الذي جئتَ منه كانت الفضاء والرب. في وايوارد باينز، الحدود هي الأسوار الصخرية التي تحمي البلدة، والحضور الغامض في الجبال.. المعروف باسمي.

- لستَ طبيبًا نفسيًّا حقيقيًّا.

- لم أحظ بتدريب رسمي، لكنني ألعب هذا الدور هناك في البلدة. أجد هذا مفيدًا في اكتساب ثقة السكان، أظل على اتصال بحالة البلدة المزاجية، أشجع الناس في نضالاتهم، في شكوكهم.

- أنت جعلت الناس يقتلون بيفرلي.

- نعم.

- والعميل إيفانز.

- أجبرني على ذلك.

- وكنت ستجعلهم يقتلونني.

- لكنك هربت، أثبت أنك أكثر براعة مما ظننتك في البداية.

- لقد خلقتَ ثقافة عنفٍ.

- لا جديد في ذلك. اسمع، عندما يصبح العنف هو العُرف، يتكيَّف الناس مع العُرف. لا يختلف هذا عن مباريات المصارعة أو إلقاء المسيحيين إلى الأسود أو الإعدام على الملأ في الغرب القديم. وجود مناخ من ضبط النفس ليس شيئًا سيئًا.

- لكن هؤلاء الناس ليسوا أحرارًا فعلًا.

- الحرية ابنة القرن الواحد والعشرين، هل ستجلس هنا وتقول لي إن الحرية الفردية أهم من بقاء نوعنا على قيد الحياة؟

- يمكنهم أن يقرروا هذا بأنفسهم، ستكون هناك كرامة في ذلك على الأقل. أليس هذا ما يجعلنا بشرًا؟

- ليس قرارهم كي يتخذوه.

- أوه، هو قرارك؟

- الكرامة مفهوم جميل، لكن ماذا لو اتخذوا الخيار الخاطئ؟ مثل تلك المجموعة الأولى. إذا لم يبق أحد من النوع حتى لاستمرار هذا المبدأ المثالي، فما الفائدة؟

- لماذا لم تقتلني؟

ابتسم بيلتشر، كأنه سعيدٌ لأن إيثان تطرق أخيرًا إلى هذا الموضوع. مال برأسه وقال: "أتسمع هذا؟"

- ماذا؟

- الصمت.

كانت الطيور قد سكنت.

استند بيلتشر إلى ساقيه وجاهد ليقف.

وقف إيثان أيضًا.

كانت الغابة قد أصبحت ساكنة فجأة.

سحب بيلتشر المسدس من حزامه.

فتح جهاز الاتصال اللاسلكي، وقرَّبه من فمه.

- بوب، عُد.. حوِّل.

- نعم، حوِّل.

- أين أنت، حوِّل.

- مائتا متر شمالًا، هل كل شيء على ما يرام؟ حوِّل.

- لديَّ شعور بأن الوقت قد حان للهروب إلى التلال، حوِّل.

- عُلم، في طريقنا، انتهى.

حدَّق بيلتشر نحو الأرض الخلاء.

من خلفهما بمسافة، استطاع إيثان أن يسمع ضجة أغصان تنكسر وأوراق ميتة تُسحق بينما يتوجه بوب وبام عائدين في طريقهما.

- كانت مخاطرة كبيرة يا إيثان بالنسبة إليَّ كي أطير بك مائة وثلاثين ميلًا إلى هنا حيث أطلال بويسي. آمل أن تُقدِّر هذه الحركة. واجهنا حفنة من أهل المشاكل طوال السنين، لكن لا أحد مثلك، ماذا تعتقد أنه أكثر ما أُقدِّره؟

- لا فكرة لديَّ.

ألقى إيثان نظرة نحو المرج عبر أشجار البلوط.

تهاوت أوراق حمراء في دعة من الغصون في الأعلى.

- التحكُّم، يوجد فصيل تحت الأرض في باينز، يقدمون فروض الطاعة ظاهريًّا، لكنهم في السر، يريدون أن يستولوا على السلطة. سمِّه... تمردًا.. عصيانًا. يريدون أن يتحرروا، أن يجذبوا الستار، أن يغيِّروا طريقة سير الأمور. أنت تفهم أن هذا سيعني نهاية وايوارد باينز.. نهايتنا.

خرجوا من بين الأشجار، وكانت المروحية على مبعدة مائة ياردة، ولونها البرونزي يلمع في شمس الأصيل.

جزء من إيثان يفكر: **يا له من يوم خريفي مثالي!**

تساءل إيثان: "ماذا تريد مني؟"

- أريدك أن تساعدني؛ لديك مجموعة مهارات نادرة.

- لماذا ينتابني شعور بأنك تشير إلى أني لا أملك خيارًا في هذه المسألة؟

- بالطبع لديك.

هبَّ النسيم على وجه إيثان، ومالت أعشاب المرج نحو الأرض.

وصلوا إلى المروحية وفتح بيلتشر الباب، وترك إيثان يصعد أولًا.

عندما جلسا وصار أحدهما في مواجهة الآخر، قال بيلتشر: "كل ما أردت أن تفعله منذ استيقظتَ في باينز أن ترحل. وأنا أعطيك هذه الفرصة، وعليها مكافأة. الآن حالًا، انظر خلفك".

ألقى إيثان نظرة من فوق مقعده إلى مساحة الشحن، وأزاح الستار.

دمعت عيناه.

كانـت هنـاك طـوال الوقـت: حقيقـة قاسـية لم يسـمح لنفسـه حتـى بالاعـتراف بهـا. لـو كان مـا قالـه بيلتـشر حقيقيًـا، فلـن يـرى أسرتـه مـرة أخـرى أبـدًا، لـن يكونـوا إلا عظامًـا نَخِـرة.

والآن، هـا هـما ذا - تيريـزا وبـن فاقـدا الوعـي ومربوطـان بالأحزمـة عـلى نقالتـين وبينهـما حقيبـة سـوداء مـن الصـوف الخشـن.

جسمه لم يبدُ في هيئة صبي صغير.

- بعـد أن وضعتـك في حالـة إرجـاء، بحثـت عـن معلومـات عنـك يـا إيثـان، واعتقـدت أن لديـك إمكانـات حقيقيـة، لـذا ذهبـت إلى أسرتـك.

مسح إيثان عينيه وقال: "كم لبثا في باينز؟"

- خمسة أعوام.

- ابني... إنه...

- في الثانيـة عـشرة مـن عمـره الآن، كلاهـما اندمـج بشـكلٍ جيـدٍ. ظننـت أنـه مـن الأفضـل أن يكـون مسـتقرين ومتوازنـين قبـل محاولـة إدخالـك في التجربـة.

لم يكلـف إيثـان نفسـه عنـاء مـداراة الغضـب خلـف صوتـه، وخرجـت كلماتـه أشـبه بزمجـرة: "ولمـاذا انتظـرتَ كل هـذا الوقـت؟"

- لم أنتظر، هذه محاولتنا الثالثة معك يا إيثان.

- كيف يمكن هذا؟

- أحـد آثـار الإرجـاء هـو فقـدان الذاكـرة الانتـكاسي. في كل مـرة تعـاد فيهـا إلى الحيـاة، يعيـد عقلـك ضبـط نفسـه عـلى حالتـه قبـل الإرجـاء الأول. في حالتـك - حـادث السـيارة المحطمـة، رغـم أني أشـك في أن بعـض الذكريـات تبقـى. ربمـا تظهـر في الأحـلام.

- هل حاولتُ الهرب من قبل؟

- في المـرة الأولى هربـتَ عـبر النهـر، وكـدت تلاقـي حتفـك عـلى أيـدي المنحرفـين. تدخلنـا وأنقذنـاك. في المـرة الثانيـة، تأكدنـا مـن اكتشـافك لوجـود أسرتـك معتقديـن أن هـذا قـد يفيـد، لكنـك حاولـت الهـرب معهـم، وكـدتَ تتسـبَّب في أن تلاقـوا حتفكـم جميعًـا.

- لذا اشتغلتَ هذه المرة على عقلي؟

- اعتقدنـا أننـا لـو اسـتطعنا تحفيـز الاضطرابـات الذهانيـة، ربمـا تكـون لدينـا فرصـة. وحقنـاك بمجموعـة قويـة مـن مضـادات الذهـان.

- هذا هو السبب في إصابتي المتكررة بالصداع.

- بل حاولنا استخدام تاريخك في التعرض للتعذيب ضدك.

- عم تتحدث؟

- لـديَّ ملفـك العسـكري، تقريـرك عـما حـدث لـك في الفالوجـة، حاولنـا أن نسـتفيد مـن هـذا خـلال تحقيـق بـوب معـك.

- أنت... مريض.

- لم أتوقـع منـك قـط أن تتسـلل إلى القبـو فعـلًا. كنَّا سـنترك المنحرفين ينالونـك. لكـن عندمـا رأيتـك واقفًـا في قاعـة الإرجـاء، خطـر شيء لي، أنـت عنيـد، مقاتـل إلى النهايـة. لـن تقبـل أبـدًا واقـع وايـوارد باينـز. أدركـتُ أني في حاجـة إلى التوقـف عـن محاربتـك. رغـم أنهـا قـد تكـون مسـؤولية، لكنـك ربمـا تكـون بالفعـل شـيئًا ثمينًـا.

- لماذا لم تخبرني فقط بكل هذا؟

- لأني لم أعرف ماذا ستفعل بالمعرفة يا إيثان، تنتحر؟ تهرب؟ تحاول أن تستفيد منها بطريقتك؟ لكني أدرك الآن أنك واحد من النوادر.

- ماذا تعني؟

- أغلب الناس في البلدة لا يمكنهم التعامل مع حقيقة ما يوجد هناك. لكنك... لا يمكنك التعامل مع الكذبة، مع عدم المعرفة، أنت أول ساكن أشاركه أيًّا من هذا، بالطبع كان قاسيًا على أسرتك أن ترى ما واجهته من صعوبات.

التفت إيثان وحملق إلى بيلتشر: "لماذا أتيت بهم إلى هنا؟"

- أنا أمنحك خيارًا يا إيثان. هما لا يعرفان شيئًا عن العالم خارج باينز. لكنك تعرف. قلها وسأتركك هنا في هذا الحقل مع أسرتك. هناك حقيبة قماشية مملوءة بالطعام والمؤونة، بل وبعض الأسلحة. أنت رجل تريد أن تسيِّر الأمور بشروطك، وأنا أحترم هذا. إذا كان هذا أهم شيء بالنسبة إليك، تفضَّل. يمكن أن تكون سيدًا في الجحيم هنا في الخارج، أو تخدم في الجنة هناك في باينز. الخيار لك. لكنك لو عُدت إلى باينز، لو أردت الأمان والدعم لأسرتك ولنفسك، سيكون هذا بشروطي. وشروطي يا إيثان تصاحبها جزاءات قاسية. إذا خذلتني، إذا خنتني، سأجعلك تتفرج بينما آخذ ابنك و...

قاطعت الضحة المفاجئة بيلتشر. في البداية، ظنَّ إيثان أن أحدهم شغَّل آلة ثقب الصخور في الغابة، لكن بعدها سرى الخوف بين عينيه مباشرة.

كانت طلقات الكلاشنكوف المتتالية.

تعالى صوت بام في اللاسلكي: "شغِّل المروحية! إنهم قادمون!".

ألقى بيلتشر نظرة داخل مقصورة الطيار وقال: ”أخرجنا من هنا.“

- أعمل على ذلك يا زعيم.

سمع إيثان محركات المروحية تدور، والفرقعة الهادرة من بندقية بام. تحرك نحو النافذة، محدقًا إلى الغابة بينما يتعالى صوت إطلاق النار.

كانت الضجة داخل المروحية أعلى من أن يتحدث أحد، لذا سحب سماعة رأسه وأشار إلى بيلتشر كي يفعل مثله.

تساءل إيثان: "ماذا تريدني أن أفعل؟"

- ساعدني على إدارة باينز. من الداخل. ستكون وظيفة قاسية، لكنك خُلقت من أجلها.

- أليس هذا ما يفعله بوب؟

رأى إيثان حركة في الأشجار عندما بدأت المحركات تطنُّ، والكابينة ترتجُّ مع زيادة عدد اللفات في الدقيقة.

انشقَّت الغابة عن بوب وبام متراجعين بظهرهما إلى داخل الأرض الخلاء.

قفز ثلاثة منحرفين من بين الأشجار أنهى بوب على اثنين منهم بدفعة كاملة من الرصاص تعالى دويها طويلًا، بينما أطلقت بام رصاصتين على صدر الثالث.

اندفع إيثان إلى الجانب الآخر من الكابينة ونظر من النافذة.

- بيلتشر.

- ماذا؟

- أعطني مسدسك.

- لماذا؟

نقــر إيثــان عــلى الزجــاج، مشــيراً إلى زمــرة مــن المنحرفــين يخرجــون مــن طــرف الحقــل البعيــد؛ أربعــة منهــم عــلى الأقــل، وكلهــم منطلقــون كالســهام في عــدوٍ سريــعٍ منخفــضٍ عــلى أربــع.

- هل أنت معي يا إيثان؟

- سيُقتلان!

- هل أنت معي؟

أومأ إيثان برأسه.

وضع بيلتشر المسدس في يده.

انتــزع إيثــان الســماعة مــن فــوق رأســه وصــاح في مقصــورة الطيــار: "كــم بقــي مــن الوقــت؟"

- ثلاثون ثانية.

جذب إيثان الباب ليفتحه وقفز هابطًا إلى العشب.

ضجة وريح المراوح تصرخان في أذنه.

كان بــوب وبــام عــلى مبعــدة خمســين يــاردة ومــا زالا يتراجعــان نحــو المروحيــة ويطلقــان وابــلًا مــن النــيران الكثيفــة.

كانــا قــد قتــلا نصــف دســتة منهــم بالفعــل -تناثــرت الأجســاد الشــاحبة عــلى العشــب- ومــا زال يــأتي المزيــد منهــم.

أكثر مما يمكن لإيثان أن يحصي.

جرى في الاتجاه المعاكس.

بعــد المروحيــة بعشريــن يــاردة، توقــف وثبَّــت قدميــه في وضــع منفــرجٍ باتســاع كتفيــه.

حـدَّق إلى المسـدس الـذي أمسـك بـه: مسـدس روجـر بزنـاد مـزدوج الحركـة وبـه أسـطوانة تحمـل سـت طلقـات.

رفعه.

وأمال الماسورة.

خمسة منهم يندفعون بكامل سرعتهم.

رفـع صـمام الأمـان بينـما هديـر الكلاشـنكوف والبندقيـة يعلـو عـلى صـوت المحـركات.

كان المنحرفـون عـلى مبعـدة ثلاثـين قدمًـا، وإيثـان يفكـر: أي وقـت تريـد فيـه البـدء في إطـلاق النـار، قـد يكـون فكـرة جيـدة. ولا تلجـأ إلى الضغـط مرتـين. أنـت في حاجـة إلى طلقـة واحـدة قاتلـة لـكل واحـد.

صـوَّب عـلى مـن كان في المنتصـف، وعندمـا وصلـت خطوتـه إلى ذروة اتسـاعها، أطلـق رصاصـة أطاحـت بأعـلى رأسـه وسـط نافـورة مـن الدمـاء.

على الأقل كان يُطلق رصاصات مجوفة.[1]

استمر الأربعة الآخرون في التقدم، غير آبهين.

على مبعدة عشرين قدمًا.

أسقط الاثنين على اليسار - بطلقة في وجه كل واحد منهما.

أصاب الرابع في الحلق.

المنحرف الأخير على بعد أقل من عشرة أقدام الآن.

قريب بما يكفي لشم رائحته.

(1) نـوع مـن الرصـاص يتمـدد عنـد الاصطـدام، مـما يتسـبَّب في إصابـة أكـثر فتـكًا دون اخـتراق أكـثر مـن الـلازم. (المترجـم)

أطلـق إيثـان النـار عندمـا قفـز، واحتكـت الرصاصـة بسـاقه فقـط. أحكـم إيثـان تصويبـه بينـما يندفـع المنحـرف نحـوه كالصـاروخ.

جـذب الزنـاد عندمـا قفـز الوحـش عليـه رافعًـا مخالبه، مشـهرًا أسـنانه، وصرختـه مـن هـذا القـرب أعـلى من المحـركات.

اخترقـت الرصاصـة أسـنانه خرجـت مـن مؤخـرة جمجمتـه وسـط رشـاش مـن العظـم والمـخ بينـما يصطـدم بإيثـان.

لم يتحرك.

سقط إيثان مذهولًا.

ارتطمـت رأسـه بقـوة شـديدة حتـى إن ومضـات مـن الضـوء كانـت تنفجـر في كل مـكان ينظـر إليـه، وتشـوش سـمعه - انكتمـت الأصـوات وتباطـأت حتـى صـار بمقـدوره أن يلتقـط كل صـوت مفـرد يشـكل سـيمفونية الفـوضى مـن حولـه.

طلقات البندقية.

الكلاشنكوف.

المراوح الدوّارة.

صرخات المنحرفين.

وهو يقول لنفسه: **أفِق، أفِق، أفِق.**

أزاح إيثـان جسـد المنحـرف الميـت مـن فـوق صـدره واعتـدل جالسًـا. حـاول أن ينظـر عـبر الحقـل، لكـن رؤيتـه كانـت عالقـة في الغشـاوة. رمـش بقـوة عـدة مـرات وهـزّ رأسـه، والعـالم يتبلـور ببـطء كأن شـخصًا مـا يضبـط بـؤرة منظـارٍ مكـبِّر.

يا إلهي!

لا بد أنه كان هناك خمسون منهم بالفعل في قطعة الأرض الخلاء.

ومع مرور كل ثانية كان عشرات آخرون يخرجون من بين الأشجار.

كلهم يتحركون نحو المروحية في مركز الحقل.

جاهـد إيثـان كي ينهـض عـلى قدميـه، شـاعرًا بالـدوار بعـد الاصطـدام، وقـد انمحـى مركـز توازنـه.

سار مترنحًا نحو المروحية.

كانت بام في الداخل بالفعل.

وقـف بـوب عـلى مبعـدة عـدة أقـدام مـن الزلاقـة، محـاولًا أن يصـدّ المنحرفين. كان قـد أسـند البندقيـة إلى كتفـه، وصـار يوجـه طلقـات دقيقـة الآن، وإيثـان يحسـب في عقلـه أنـه لا بـد قـد وصـل إلى الطلقـات الأخـيرة في خزانـة ذخيرتـه.

ربـت إيثـان عـلى كتفـه وهـو يخطـو عـلى الزلاقـة، صارخًـا في أذنـه: "هيـا بنـا!"

فتح بيلتشر الباب واندفع إيثان صاعدًا إلى داخل الكابينة.

جلس وربط حزامه وأطل من النافذة.

جيش من المنحرفين اجتاح الحقل.

مئات منهم.

عـلى مبعـدة عـشر ثـوان مـن المروحيـة ويقتربـون مثـل قبيلـة مـن الضبـاع.

عندمـا وضـع السـماعة عـلى رأسـه، كان بيلتـشر يغلـق بـاب الكابينـة ويوصـده ويقـول: "هيـا بنـا يـا روجـر."

- ماذا عن المأمور؟

- بوب سيبقى.

عبر النافذة رأى إيثان المأمور آرنولد يلقي الكلاشنكوف ويحاول أن يفتح الباب، مجاهدًا مع المقبض الذي لا يدور.

حدَّق بوب عبر الزجاج في بيلتشر، وخفقة ارتباكٍ تومض في عيني رجل القانون، تبعها الفهم بسرعة.

ثم الخوف.

صرخ بوب بشيء لم تكن له قط فرصة أن يُسمع.

قال إيثان: "لماذا؟"

لم يحول عينيه عن بوب: "يريد أن يَحكم."

ضرب بوب النافذة بقبضتيه، والدم يلطخ الزجاج.

- لا أريد أن أستعجلك يا روجر أو أي شيء، لكن سنموت جميعًا إن لم تُخرجنا من هنا.

أحسَّ إيثان بالزلاقات تدور حول محورها وترتفع في الهواء.

قال: "لا يمكنك أن تتركه هكذا..".

بينما المروحية ترتفع من فوق الأرض، شاهد إيثان المأمور وهو يعقد ذراعه اليسرى حول الزلاقة، مجاهدًا كي يتعلَّق بها.

قال بيلتشر: "قُضي الأمر، وأنت الآن مأموري الجديد، مرحبًا بك على متن طائرتنا".

تجمَّع حشد من المنحرفين تحت بوب، يقفزون ويخمشون، لكنه كان قد قبض بقوة على الزلاقة وتدلَّت قدماه بعيدًا عن متناولهم.

قال بيلتشر: "روجر، انزل بنا قدمًا أو اثنين إذا لم يكن لديك مانع".

هبطت المروحية بطريقة خرقاء -كان بمقدور إيثان أن يجزم بأن الطيار لم يقُد طائرة منذ سنين- وأدلى بوب من جديدٍ إلى الجنون المستعر على الأرض.

عندما قبض أول منحرف على ساق بوب، غاص ذيل المروحية نحو الأرض تحت الثقل.

تعلَّق واحدٌ آخر بساقه الأخرى، وللحظة مرعبة، اعتقد إيثان أنهم سيسحبون المروحية إلى الأرض.

قام روجر بتصحيح مساره في حدة مفرطة، صاعدًا بسرعة إلى ارتفاع عشرين قدمًا فوق الأرض.

حدَّق إيثان إلى أسفل في عيني بوب المليئتين بالجنون.

كانت قبضة الرجل على الزلاقة قد ضعفت وصارت يدًا وحيدة تمسك بها، وعقلات أصابعه تكاد تتمزق تحت الضغط، وقد تعلق ثلاثة منحرفين بساقيه.

التقت عيناه بعيني إيثان.

صرخ بشيء ضاع وسط هدير المحركات.

أفلت بوب الزلاقة، وسقط لمدة نصف ثانية، ثم اختفى وسط السرب المسعور.

أشاح إيثان بنظره.

كان بيلتشر يحدق إليه.

يخترقه بناظريه.

مالت المروحية بحدة وصرخت محركاتها وهي تتجه شمالًا نحو الجبال.

***

كانـت رحلـة طـيران هادئـة، وقـد تـوزع انتبـاه إيثـان بـين التحديـق مـن نافذتـه والنظـر مـن وراء السـتار إلى أسرتـه النائمـة.

في المـرة الثالثـة التـي يلقـي النظـر عليهـما خلالهـا قـال بيلتـشر: "سـيكونان بخـيرٍ يـا إيثـان. سيسـتيقظان الليلـة آمنـين ودافئـين في الفـراش، هـذا هـو المهـم، أليـس كذلـك؟ هنـا في الخـارج كنتـم لتموتـون جميعًـا بالتأكيـد."

كان الوقت يزحف نحو الغسق.

إيثـان مُتعـب حتـى المـوت، لكـن في كل مـرة يغلـق عينيـه كانـت أفـكاره تجـري في مائـة اتجـاه مختلـف وبسرعـات مذهلـة.

لذا حاول فقط أن يراقب العالم وهو يمرُّ به.

كان يطل على الغرب.

غربـت الشـمس، وفي أعقـاب زوالهـا، نهضـت سلاسـل الجبـال عـلى خلفيـة سـماء المسـاء مثـل نصـل منشـار مشـوَّه.

لم يكن هناك شيء يُرى من غابة الصنوبر تحتهم بألف قدمٍ.

ولا بقعة ضوء واحدة في أي مكان من صنع الإنسان.

***

طاروا عبر عتمة محدقة.

مـع خفـوت أضـواء الكابينـة ووهـج لوحـة القـراءات في مقصـورة الطيـار المخفيـة خلـف السـتار، كان يمكـن لإيثـان أن ينجـرف أيضًـا في بحـرٍ مـن السـواد.

أو الفضاء.

مكتبة
t.me/soramnqraa

لديـه أسرتـه خلفـه، ووجـد بعـض الراحـة في هـذه الحقيقـة، لكنـه عندمـا مـال إلى الزجـاج القـارص الـبرودة، لم يسـتطع أن يتفـادى الشـعور بطعنـة خـوفٍ تنغـرز داخلـه.

ويأسٍ.

كانوا وحدهم.

وحدهم تمامًا.

أصابه هذا في مقتل.

طـوال الأيـام القليلـة الماضيـة، كان يحـارب كي يعـود إلى حياتـه خـارج وايـوارد باينـز، لكنهـا راحـت.

راحت لما يقرب من ألفي سنة.

أصدقاؤه.

بيته.

وظيفته.

تقريبًا كل ما يمنحه هويته.

كيف من المفترض أن يتصالح رجل مع شيء كهذا؟

كيف يكمل أحدهم حياته في مواجهة مثل هذه المعرفة؟

ماذا يجعلك تنهض من الفراش ويجعلك راغبًا في الشهيق والزفير؟

أسرتك، الشخصان النائمان خلفك.

فتح إيثان عينيه.

في البداية، لم يصدق ما رآه تمامًا.

تحتهم بمسافة، سطع ينبوع ضوء وسط كل ذلك الظلام.

إنها باينز.

مصابيح المنازل والشرفات الأمامية.

أعمدة الإضاءة في الشوارع وأضواء السيارات.

كلها مندمجة في ذلك الوهج الليلي الناعم لأي بلدة.

لأي حضارة.

كانوا يهبطون الآن، وكان يعرف أنه في ذلك الوادي بالأسفل ثمة منزل فيكتوري عاشت فيه زوجته وابنه.

حيث يمكنه العيش أيضًا.

ثمة فراش دافئ يزحف إليه.

ومطبخ سيفوح برائحة طعام يطبخونه.

وشرفة أمامية يجلسون عليها في أمسيات الصيف الطويلة.

وفناء قد يلعب فيه المسَّاكة مع ابنه.

وربما حتى يكون له سطح من الصفيح، ولم يكن هناك شيء أحب إليه من صوت المطر وهو يدق على الصفيح.

خاصةً في وقتٍ متأخرٍ من الليل في الفراش، وزوجتك بين ذراعيك وابنك نائم في الناحية الأخرى من الصالة.

توهجت أضواء وايوارد باينز في مواجهة التلال الصخرية التي طوقتها، ولأول مرة بدت هذه الأسوار الجبلية مرحبة.

حصون ضد كل الرعب الذي امتد وراءها.

ملاذ للبلدة الأخيرة على الأرض.

هل ستمنحه شعور من يسكن في وطنه أصلًا؟

وهل سيكون هذا شعورًا طيبًا لو تحقق؟

هل تعتقدون أن الإنسان يمكنه تدمير الكوكب؟ يا له من غرورٍ مُسكر! لقد نجت الأرض من كل شيء في زمنه، وستنجو بالتأكيد منَّا. بالنسبة إلى الأرض ... مليون عام لا تساوي شيئًا. هذا الكوكب يحيا ويتنفَّس على نطاقٍ أكبر بكثيرٍ. لا يمكننا تخيُّل إيقاعاته البطيئة والقوية، ولم نملك التواضع كي نحاول. كنَّا سكانًا هنا لفترة تساوي غمضة عين. ولو اختفينا غدًا، لن تفتقدنا الأرض.

مايكل كريكتون

الخاتمة

يجلس في هدأة مكتبه، وحذاؤه مرفوعٌ على المكتب، يفحص النجمة النحاسية في يده ويمرِّر أصابعه على نقش حرفي (و ب) في الوسط، حرفان مصنوعان من حجر أسود، لعله زجاج بركاني. يرتدي بنطالًا بنيًّا داكنًا من الكتان وقميصًا أخضر داكنًا بكمين طويلين وأزرار مقفولة، تمامًا مثل سلفه، يبدو النسيج جديدًا ومنشًّى بإفراطٍ.

هناك اجتماعٌ مكثَّفٌ مع بيلتشر وفريقه مقرَّر له الغد، لكن اليوم بلا أحداث.

وغريب.

لمدة ثماني ساعات، جلس في سكون مكتبه، تائهًا في أفكاره، وقاطعه الهاتف مرة واحدة فقط، بليندا، موظفة الاستقبال، في ساعة الظهيرة تسأله إن كان يود منها أن تُحضر أي شيء للغداء.

يراقــب عقــرب الثــواني وعقــرب الدقائــق يتكتــكان في طريقهــما إلى الثانيــة عــشرة.

الساعة الآن الخامسة.

يُنــزل قدميــه مــن فــوق المكتــب، وينهــض ويضــع قبعتــه ويُســقِط نجمتــه النحاسـية في جيبــه. ربمــا غــدًا يحمــل نفســه عــلى تعليقهــا فــوق صــدره أخــيراً.

وربما لا.

مثــل اليــوم الأول مــن أي شيء جديــد، كان يومًــا طويــلًا، وهــو ســعيدٌ برؤيتــه ينتهــي.

ينظــر إلى خزانــات الأســلحة الثــلاث العتيقــة -نظــرة اشــتهاء عابــرة- ويخــرج مــن المكتــب، ويتوجــه عــبر الردهــة إلى مكتــب الاســتقبال.

مكتب بليندا مغطى بأوراق اللعب.

يقول إيثان: "سأنصرف..".

تضــع المــرأة ذات الشــعر الأبيــض ورقــة الآس البســتوني وترفــع وجههــا بابتســامة دافئــة لا علاقــة لهــا مطلقًــا بكشــف جانــبٍ واحــدٍ ينبــئ بمــن تكــون حقًــا.

- كيف كان يومك الأول؟

- لا بأس به.

- فلتقضِ ليلة طيبة سيدي المأمور.. سنراك في الصباح.

***

مساء لطيف صحو.

انزلقت الشمس بالفعل خلف الأسوار الجبلية، وثمة برودة منعشة حطّت ربما لتبشِّر بأول سقوط للصقيع هذا الموسم.

يمشي إيثان على رصيف حي هادئ.

رجل عجوز جالس على مقعدٍ هزَّاز في شرفة أمامية مسقوفة يهتف: "مساء الخير أيها المأمور!".

يلمس إيثان قبعته.

يرفع الرجل قدحًا يتصاعد منه البخار.

يرفعه كأنه نخب.

في مكان ما بالجوار، امرأة تهتف: "ماثيو! حان وقت العشاء!".

- مهلًا يا ماما! خمس دقائق أخرى فقط!

- لا، الآن حالًا!

يتردد صدى صوتيهما ويخبو عبر الوادي.

في الشارع التالي، يسير بمحاذاة مساحة مربع سكني كامل مخصصة لحديقة مجتمعية؛ حيث يجد بضع عشرات من الأشخاص في العمل، مالئين سلالًا كبيرة بالفاكهة والخضراوات.

يحمل النسيم أريج تفاح مفرط النضج.

أينما تطلّع إيثان، يجد الأضواء منبعثة من داخل البيوت، والهواء يعبق بروائح طهو العشاء.

من خلال النوافذ المواربة، يسمع جلجلة الأطباق، وحوارات غير واضحة، ومواقد تُفتح وتُغلَق.

كل من يمرُّ به يبتسم ويقول أهلًا.

كأنها لوحة من لوحات نورمان روكويل[1] تنبعث فيها الحياة.

***

يعبر الشارع الرئيسي، ويمضي في الشارع السادس مسافة عدة مربعات سكنية حتى يصل إلى العنوان الذي أعطاه له بيلتشر.

منزل فيكتوري من ثلاثة طوابق، أصفر كناري بحوافٍ بيضاء، أبرز ملامحه نافذة على شكل دمعة في الوسط تمامًا أسفل قمة السطح الصفيح.

عبر نافذة كبيرة في الطابق الأول، يرى امرأة واقفة عند حوض مطبخ، تُغرق وعاء من المعجنات المسلوقة في مصفاة، وسحب البخار تتصاعد في وجهها.

بينما يراقبها، يشعر بضربات متلهفة في صدره.

إنها زوجته.

يقطع الممر الحجري عبر الفناء الأمامي، ويصعد ثلاث درجات من الطوب، وبعد ذلك يجد نفسه واقفًا على الشرفة الأمامية.

يطرق الباب الحاجز.

بعد لحظة، يضيء المصباح.

تفتح الباب باكية ومحدقة إليه عبر الحاجز السلكي بينما وقع خطوات تدب هابطة الدَرَج.

يظهر ابن إيثان خلفها، ويضع يديه على كتفي أمه.

- أهلًا بابا.

(1) مصور ورسام أمريكي (1978-1894) تحظى أعماله بشعبية واسعة في الولايات المتحدة بسبب تصويره لثقافة البلاد والحياة اليومية. (المترجم)

ليس بصوت ولدٍ صغيرٍ.

- يا إلهي! أنت أطول من أمك!

ما زال الحاجز السلكي بينهم وعبر شبكة السلك تبدو تيريزا كما هي إلى حدٍّ كبيرٍ، رغم أن شعرها الأشقر أطول من المعتاد.

يقول بِن: "سمعتُ أنهم جعلوك المأمور..".

- هذا صحيح.

وتمر لحظة طويلة مشحونة بالعاطفة.

- تيريزا.

تمسح عينيها بكلتا يديها.

يقول إيثان: رائحة رائعة.

- أنا أطهو إسباجيتي.

- أحب الإسباجيتي الذي تصنعينه.

- أعرف.

ويتهدج صوتها.

- هل أخبروكِ أني قادم؟

تومئ برأسها.

- أنت هنا حقًّا يا إيثان؟

- نعم.

- كي تبقى هذه المرة؟

- لن أترككما مرة أخرى أبدًا.

- لقد انتظرنا طويلًا.

عليها أن تستمر في مسح وجهها.

- بِن، اذهب وقلِّب الصلصة من فضلك.

يهرع الصبي إلى المطبخ.

يسألها إيثان: هل سيكون كل شيء بخيرٍ إذا دخلتُ؟

- فقدنـاك في سـياتل، ثـم فقدنـاك هنـا، لا يمكننـي أن أتقبَّـل هـذا، وهـو لا يمكنـه أن يتقبَّلـه.

- تيريزا، انظري إليَّ.

تنظر إليه.

- لن أترككما مرة أخرى أبدًا.

يشـعر بالقلـق مـن أن تسـأله مـاذا حـدث، لمـاذا لم يمـت؟ إنـه سـؤال يخشـاه ويتجهـز لـه طـوال اليـوم.

لكنه لا يأتي.

وبدلًا من ذلك، تدفع الباب لتفتحه.

لقـد خـشي أن يـرى صلابـة في وجههـا، خـشي ذلـك أكـثر مـن أي شيء، لكـن تحـت وهـج مصبـاح الشرفـة الأماميـة، لا وجـود للمـرارة هنـا. بعـض الانكسـار. بدايـات تجاعيـد حـول فمهـا لم تكـن موجـودة مـن قبـل، وحـول هاتـين العينـين الخضراويـن اللامعتـين اللتـين ذبحتـاه منـذ كل تلـك السـنين، الكثـير مـن الدمـوع، والكثـير مـن الحـب أيضًـا.

الحب أساسًا.

تجذبه من فوق العتبة إلى داخل بيتهم.

ينغلق الباب الحاجز بقوة.

داخل المنزل، صبي يبكي.

رجل يفشل في حبس دموعه.

ثلاثة أشخاص مشتبكون في عناق ضارٍ لا يبدو منه فكاك في القريب العاجل.

وفي الخارج، تضاء أعمدة النور في اللحظة المضبوطة، وتبدأ ضجة في مكان ما في سياج الشجيرات التي تنمو بموازاة الشرفة الأمامية، تتكرر في فواصل زمنية مثالية، ثابتة كأنها بندول إيقاع.

إنها صوت صرصار ليل يتعالى صريره.

كلمة أخيرة

بقلم بليك كراوتش

في يـوم 8 أبريـل عـام 1990، أذيعـت عـلى قنـاة إيـه بي سي الحلقـة التجريبيـة مـن المسلسـل التليفزيـوني الأيقـوني تويـن بيكـس *Twin Peaks* الـذي صنعـه مـارك فروسـت وديفيـد لينـش، وللحظـة مـن الزمـن أبقـى لغـز (مـن قتـل لـورا بالمـر؟) أمريـكا كلهـا ثابتـة أمـام الشاشـات. كنـت في الثانيـة عـشرة مـن عمـري وقتهـا، ولـن أنـسى أبـدًا الشـعور الـذي اسـتولى عـليَّ وأنـا أشـاهد هـذا العـرض المـليء بالمفاجـآت والتحـولات عـن بلـدة مريبـة بهـا قهـوة طيبـة عـلى نحـوٍ لعـينٍ وفطائـر كـرز رائعـة، لكـن لا شيء فيهـا مطابـق لمـا يبـدو عليـه.

أُلغـي مسلسـل تويـن بيكـس في النهايـة، ومـضى المخـرج الرائـع والممثلـون ليقدمـوا أشـياء أخـرى، لكـن السـحر الـذي لا يمكـن إنـكاره

والماثـل في تلـك الحلقـات الأولى مـا زال يسـكنني بعـد عقديـن مـن الزمـان. ثمـة مسلسـلات مثـل *Northern Exposure* ، *Picket Fences* ، إكـس فايلـز،*Lost* مالـت أحيانًـا إلى ذلـك الجـو المريـب الجميـل بغرابـة الـذي ميَّـز مسلسـل تويـن بيكـس، لكـن في الأغلـب الأعـم -بالنسـبة إلى هـذا المعجـب الشـديد عـلى الأقـل- لا شيء آخـر اقـترب منـه أصـلًا.

يقولـون إن كل فـن -سـواء كتـب أو موسـيقى أو فنـون بصريـة- هـو رد فعـل لفـن آخـر، وأعتقـد أن هـذا صحيـح. ورغـم جـودة مسلسـل تويـن بيكـس، فـإن الطريقـة الحـادة التـي انتهـى بهـا قبـل الأوان عـلى نحـوٍ خـاصٍّ، تركتنـي غـير راضٍ إلى حـدٍّ بالـغٍ. بعـد قليـلٍ مـن إلغـاء العـرض، انفطـر قلبـي بشـدة حتـى إني حاولـت أن أكتـب موسـمه الثالـث الوهمـي، ليـس لأي أحـد إلاي، فقـط كي أتمكَّـن مـن متابعـة التجربـة.

فشـلت تلـك المحاولـة، مثـل محـاولات أخـرى عديـدة عندمـا كـبرت، سـواء كشـخصٍ أو ككاتـبٍ، في إعـادة القبـض عـلى الشـعور الـذي مـرَّت بـه ذاتي ذات الأعـوام الاثنـي عـشر هنـاك في عـام 1990.

روايـة غابـة الصنوبـر Pines هـي ذروة محـاولاتي، التـي امتـدت الآن عـلى مـدى عشريـن عامًـا، لإبـداع شيء يجعلنـي أشـعر بنفـس الشـعور الـذي صنعـه مسلسـل تويـن بيكـس. مسـتحيل أن أشـير بـأي شـكلٍ إلى كـون غابـة الصنوبـر في جـودة تحفـة لينـش، أو حتـى شيء مـن المحتمـل أن يعيـدك إلى الشـعور الـذي أثـاره هـذا المسلسـل. كان المسلسـل شـيئًا فريـدًا تمامًـا حتـى إن أي محاولـة لإعـادة خلـق هالتـه سـيكون محكومًـا عليهـا بالفشـل مـن الأسـاس. لكنـي أشـعر بالحاجـة إلى التعبـير عـن مقـدار اسـتلهام روايتـي لمـا قـام بـه لينـش مـن إبـداع بلـدة صغـيرة في قلـب العـدم - جميلـة مـن الخـارج، لكـن جوفهـا حالـك السـواد.

لم تكـن روايـة غابـة الصنوبـر لتخـرج إلى النـور أبـدًا، وربمـا لم أكـن لأصبـح كاتبًـا أبـدًا، لـو لم يتركنـي أبـواي أسـهر إلى وقـتٍ متأخـرٍ في ليـالي

الخميس، في ذلك الربيع من عام 1990، لأشاهد عرضًا لن نرى مثيلًا له أبدًا مرة أخرى.

لذا شكرًا ماما وبابا. شكرًا مستر لينش ومستر فروست. وبالطبع شكرًا للعميل دايل كوبر -بطل المسلسل- الذي لا يضاهى.

رواية غابة الصنوبر ليست هي توين بيكس، ليست هي بأي شكلٍ من الأشكال؛ لكنها لم تكن لتوجد دونها.

آمل أن تكونوا قد استمتعتم بعرضي.

بليك كراوتش

دورانجو، كولورادو

أغسطس 2012

مكتبة
t.me/soramnqraa

شكر وتقدير

وكيـلي: ديفيـد هيـل سـميث، وكل شـخص في منصـة نـشر تومـاس آنـد مـيرسر قـدم 110 في المائـة مـن جهـده كي يسـاعد هـذا الكتـاب عـلى التحليـق مـن فـوق الأرض. إنـه لامتيـاز أن تتعـرَّف وتعمـل مـع مثـل هـذه المجموعـة مـن النـاس الموهوبـين بشـكلٍ بالـغٍ والذيـن يغـيِّرون طريقتنـا في القـراءة للأفضـل.

شـكرًا مـن القلـب لــ: آنـدي بارتليـت، جـاك بـن زكـري، روري كونيـل، فيـكي جريفـث، ميـا ليبـمان، جـون فايـن، أليكـس كار، فيليـب باتريـك، آلان توركـوس، سـارة جيلـمان، جـودي وارشـو، ليـزلي لارو، وأخـيرًا.. رسـالة تقديـر لمسـؤولي النـشر المبـاشر عـلى كينـدل: برايـن ميتشـيل، برايـن كارفر، نـادر قبـاني.

أنـا محظـوظ بشـكلٍ مدهـشٍ لكـوني أحسـب بـين أصدقـائي بعـض الكُتَّـاب الرائعـين والقـراء المخضرمـين بشـدة. هـؤلاء النـاس قدمـوا آراء مدهشـة حـول المسـودات الأولى مـن غابـة الصنوبـر وجعلـوا الكتـاب أفضـل بـكل طريقـة يمكـن تصورهـا. شـكرًا جزيـلًا لزميـلي في الكتابـة جـو كونـراث، ماريـا كونـراث، وأخـي جـوردان كراوتـش، وفنـان أغلفتـي المبهـر جيرويـن تِـن بـيرج، آن فـوس بيترسـون، سـوزان تيربـاك، سـيلينا كيـت، ماركـوس سـاكي، وشـكرًا خاصًّـا لبـاري إيسـلر لقراءتـه شـديدة البراعـة.

أخـيراً، أحضـاني وقبـلاتي لأسرتي العزيـزة: ريبيـكا، آيـدان، آنسـلي. شـكرًا عـلى مشـاركتي هـذا الكتـاب الـذي كنـت أتحـرق شـوقًا إلى كتابتـه. أحبكم.

نبذة عن الكاتب

بليك كراوتش Blake Crouch - كاتب وسيناريست أمريكي من مواليد 1978. يُعد كراوتش من الأسماء المعروفة في قائمة أفضل الكُتّاب مبيعًا؛ تضم رواياته تحسين، استدعاء ذاتي، المادة السوداء، وثلاثيته *The Wayward Pines* التي صدرت ما بين 2012 و2014، وتحوّلت إلى مسلسل تليفزيوني من إنتاج شركة فوكس عام 2015. كما شارك كراوتش أيضًا في كتابة مسلسل تليفزيوني لقناة تي إن تي بعنوان سلوك حسن Good Behavior اعتمد على روايته القصيرة ليتي دوبيش، يعيش في كولورادو مع زوجته جاكلين بن زكري وأطفالهما الثلاثة.

نبذة عن المترجم

عبد الرحيم يوسف - شاعر ومترجم مصري من مواليد 1975. صدر له ثمانية دواوين بالعامية المصرية، وثلاثون كتابًا مترجمًا، نشر عددًا من الترجمات الأدبية في عدد من الدوريات المصرية والعربية وشارك كمحرر مساعد في مجلة (مينا) الثقافية التي صدر منها ثلاثة أعداد في الفترة من 2005 إلى 2009.. ترجم عددًا من التقارير لمنظمة هيومان رايتس ووتش، ومكتب اليونسكو بألمانيا وصندوق الأمم المتحدة للسكان وموقع مدى مصر. وحصل على جائزة الدولة التشجيعية في الآداب فرع ترجمة الأعمال الفكرية عام 2017 عن ترجمته لكتاب (ثلاث دراسات حول الأخلاق والفضيلة) لبرنارد ماندفيل.

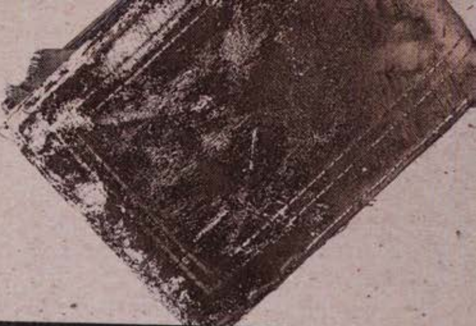

غابة الصنوبر

في الثالثة وسبع دقائق مساءً، عند مفترق طرق في وايوارد باينز، انحرف ستولينجز أمام شاحنة من طراز ماك. قُتل على الفور، وبسبب عنف التصادم والدمار الذي لحق بجانب الراكب إلى جوار السائق، كان لا بد من أخذ السيارة إلى موقع آخر لاستخراج جثة إيثان. غير أنهم بمجرد أن شقوا الباب وأزالوا من السقف ما يكفي للدخول، وجدوا المقصورة فارغة.

بلدة صغيرة خلابة ظهرت من قلب العدم، جميلة من الخارج، لكن قلبها حالك السواد، يأخذنا بليك كراوتش في رحلة ملؤها الغموض والإثارة إلى أقصى ما تفتق عنه الخيال البشري من شراهة وتسلط.

telegram @soramnqraa

ISBN 978-977-313-986-5
9 789773 139865

المحروسة